الآثار الغارقة

تأليف

روبرت سلفربرج

ترجمة

الدكتور محمد الشحات

الناشر

مؤسسة سجل العرب

باشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده

٢٦ شارع شريف باشا القاهرة

تليفون ٤٩٩٩٩ ٥٢٣٠٩

١٩٦٥

SUNKEN HISTORY : THE STUDY OF WATER
ARCHAEOLOGY

محتويات الكتاب

مقدمة

منذ أن بدأ الإنسان يمشى على الأرض ظلت تدفعه ثلاثة احتياجات : أن يكتشف ، أن يختبر ، وأهمها جميعاً أن يفهم . وهذه الدوافع نفسها هى التى جعلت البحارة المغامرين يجوبون فيما وراء أطراف العالم المعروف ليكتشفوا ما هنالك . وكذا « جاليليو » الذى عرض نفسه للسجن لأنه تجرأ ورفع عينين متسائلتين نحو النجوم والكواكب « وفسيليوس » الذى عمل سراً لكى يزيح الغطاء عن عجائب التشريح الإنسانى ـ لقد شقوا جميعاً طريقهم قدماً رغم الخطورة التى جابهتهم لأنهم كانوا يستهدفون المعرفة .

وقد دفع حب الاستطلاع الإنسان إلى بذل آلاف المحاولات . فالنجوم السيارة تدور فى السماء تكشف عن أسرار المجرة ـ ويهيم الباحثون فى مجاهل غينيا الجديدة والمناطق النائية فى القطب الجنوبى المتجمد . والجسيمات الذرية تبتعد وتتصادم فى أجهزة تحطيم الذرة عند محاولة الإنسان أن يكشف القناع عن جوهر المادة نفسها .

وتستمر الحرب ضد الجهل على طول جبهات متعددة . ويعتبر علم الآثار ـ أى دراسة بقايا الماضى ـ من أهم المظاهر المثيرة لتلك الحملات اللانهائية لمعرفة المزيد عن العالم ومكانة الإنسان منه .

ولقد سبق أن تكلمت فى كتاب سابق (المدن المفقودة والحضارات التى امحت ـ تشيلتون ١٩٦٢) عن بعض الانتصارات المبكرة لعلم الآثار مثل استعادة بعض المدن من قبضة الزمن كبومبى ، وبابل ، وتشيشين إتزا ، وكنوسوز ، وطروادة ، وانجكور . وقد أصبح علم الآثار منذ نشأته عندما طمس البركان مدينة

« بومبى » من مائتى عام من أكثر العلوم تشويقاً بل ورومانسية . وقد كشفت أمم بأكملها ، عفى عليها النسيان ، عن أسرارها حتى ليمكننا أن نرسم بكل ثقة صوراً عن الحياة اليومية فى مصر التى مضى عليها ثلاثة آلاف عام أو قد تصل إلى أربعة آلاف عام .

وقد أظهر كتاب « المدن المفقودة والحضارات التى انمحت » أن علم الآثار ماهو أساساً إلا حفر الأرض بالمعول ، والإقامة تحت الشمس الاستوائية الحارقة . وهذا ينطبق فعلا على ما قام به بعض رواد علم الآثار مثل لايارد ، وشليمان ، وإيفانز ، وكولدواى حيث كانوا يعملون على اليابسة .

ولكن فى هذا القرن ، وبالذات فى الخمس والعشرين سنة الماضيــة ، اتسع المجال أمام علماء الآثار . وظهر ميدان جديد لعلم آثار ما تحت الماء . ومع أن مهام علم الآثار الأرضى قد اكتملت بشكل ما ، إلا أن علماء آثار ما تحت الماء مازالوا يقومون بحملات تبشر باكتشاف آثار جديدة من الماضى . وقد تمت فعلا أعمال رواد آثار الأرض . وشكراً للوسائل الفنية الجديدة التى أتاحت لهم الآن أن يتحولوا إلى البحار ، وأن يضيفوا إلى معلوماتنا الكثير من الاكتشافات المثيرة فى وسط أمريكا ، وفى البحر الأبيض المتوسط ، وعشرات من المواقع الأخرى فى أنحاء العالم .

وهذه هى قصة التطور الجديد فى بحث الإنسان من أجل المعرفة ــ قصة علم الآثار تحت الماء .

الفصل الأول

علم الآثار ينتقل إلى البحر

« إن هدف علم الآثار هو إظهار وكشف مجرى الحضارة الإنسانية » هذه هي كلمات سير « ليونارد وولي » عالم الآثار العظيم الذي اكتشف « أور » — مدينة إبراهيم .

وقد يظن البعض أن هدف علم الآثار هو الكشف عن أشياء جميلة من الماضي فحسب — مثل التماثيل والفسيفساء والمعابد — حقاً لقد أضافت الأشياء التي اكتشفها علماء الآثار الكثير إلى تراثنا الفني . ومن منا لا يملك إلا أن يعجب ويؤخذ بروعة جمال تلك الأشياء الأثرية التي وجدت مثل تمثال صغير لحمل اكتشفه وولي في أور ، ويوجد حالياً في متحف جامعة فيلادلفيا ؟ ومن منا لا يملك إلا أن يعجب برؤية رونق الجدران التي وجدها سير آرثر إيفانز في قصر الملك مينوس في كريت؟ وقطعاً ستشعر كأنك قد دخلت فعلا في دنيا الإلياذة عندما ترى درعاً ربما استخدمها « أخيل » ، أو قناعاً قد لبسه أجاميمنون ، أكثر مما لو فعلت ذلك بمجرد قراءة هوميروس ؟

ولكن هذه كلها نتائج ثانوية في علم الآثار . ولنستعد مرة ثانية ما قاله ليونارد وولي « إن عالم الآثار ببحثه عن كل ما هو إنساني يتمتع باكتشاف أشياء نادرة وجميلة . ولكن زيادة على ذلك فهو يريد معرفة كل شيء عنها . وعلى كل فهو يفضل تحصيل المعلومات عن المقتنيات أكثر من المقتنيات في حد ذاتها . إن الحفر بالنسبة له يعني الملاحظة والتسجيل والتفسير » .

ولم يكن هذا هو الحال دائماً . فقد اهتم قدامى علماء الآثار بتكديس متاحفهم بالكثير من الأشياء الفنية أكثر من اهتمامهم بالملاحظة والتسجيل والتفسير . وقد تسبب هؤلاء فى خسائر بالغة . لقد كانوا حسنى النية بالطبع ولكنهم عندما توغلوا بآلات حفرهم فى المدن المدفونة حطموا الكثير من شواهد الماضى التى لا تعوض أثناء بحثهم المحموم عن مقتنيات للمتحف .

وفى أواخر القرن التاسع عشر وبالتدريج نما نوع جديد من علم الآثار . فبدلا من الحفر السريع فى موقع ما ، بدأ علماء الآثار المعاصرون يعملون ببطء وبطريقة منظمة . فهم يكشفون عن بضع أقدام ثم يتوقفون لتسجيل كل ما رأوه نعم كل شيء رأوه : أجزاء من الفخار — قطع من الطوب الأحمر المكسور — مسامير متفرقة قد علاها الصدأ وحتى أى خط أبيض طباشيرى أقيم عليه فى يوم ما سور خشبى — وتسجيل كل هذه الأشياء ثم تصور فى موقعها الأصلى قبل عمل أى محاولة أخرى لتعميق الحفر .

ثم ينشر عالم الآثار اكتشافاته بعد ذلك ، ويخمن كل انسان معناها . فلربما أمكن مقارنة صناعة وتصميم قطعة من الفخار وجدت فى منطقة ما بين النهرين (بالعراق) بأخرى وجدت فى الهند . وهنا يمكن كشف النقاب عن حقيقة هامة عن الماضى ، ألا وهى وجود تجارة بين بلاد ما بين النهرين والهند فى العهود القديمة . وقطع الفخار لا تبدو جذابة فى صناديق العرض بالمتاحف ، إلا أنها على جانب كبير من الأهمية فى مساعدة علماء الآثار على كشف وفهم معانى تاريخ الإنسان .

وعلى ذلك فلا يعنى علم الآثار اليوم مجرد الحفر بحثاً عن الكنوز المدفونة ، يبحث عالم الآثار ليعرف كيف يبنى الناس بيوتهم والأطعمة التى يأكلونها والأسلحة

التى يستعملونها وكيف كانوا يلبسون ، وكيف كانوا يعبدون آلهتهم . ويتطلب الوصول إلى كشف هذه الأشياء التنقيب المنظم الحريص بوصة بعد بوصة ؛ فعالم الآثار يشعر بمسئولية كبيرة ويقوم بعمله على أتم وجه فلو أنه أتلف جزءاً من الآثار سواء عن جهل أو إهمال ، فهو يدرك أنه يعرقل تقدم المعرفة الإنسانية أكثر مما يساعدها .

ويخضع عالم الآثار الذى يعمل فى البحار لنفس هذه القوانين ؛ فيجب عليه أيضاً أن يكون منظماً ودقيقاً ، ويصور أيضاً ويسجل كل التفاصيل الدقيقة قبل أن يحركها من مكانها ولكن مهمته فى هذه الحالة صعبة بشكل غريب فبدلا من أن يتصدى للشمس المحرقة فعليه أن يعمل تحت ثقل أطنان من الماء ، وهو مهدد بقرش البحر والباراكودا وأسماك القاع المفترسة . ويجب أن يعمل دائماً فى موقع مدفون لا بالرمال والحجارة ، وإنما بأنواع من الحلزونيات المائية والأسماك الصدفية والشعب المرجانية أو حجر الجير الصلب . وتتوقف حياته أثناء العمل على مصدر الأكسيجين الذى يساعده على استمرار التنفس .

ولا يتردد عالم الآثار الذى يعمل تحت الماء ــ رغم كل هذه الصعوبات ــ فى أن يهيمن على مسئوليته وهو يرحب فعلا بأخطار مهنته . ولقد فتح العمل فى البحار لعلم الآثار مجالاً جديداً . فيعمل أولئك « الأساتذة ذوو الزعانف » وهم يدركون تماماً أنهم على حدود مملكة الإنسان وهم فى هذا كمثل رواد الفضاء ، فهم يخاطرون باسم العلم فيما وراء الغلاف الجوى .

وهناك أربعة أنواع عامة من المواقع يعمل فيها علماء الآثار تحت المائية . وفى الفصل القادم سنتناول بالشرح كلا منها . فلنر الآن ما هى :

١ — حطام السفن الغارقة القديمة :

تعتبر هذه المجموعة من أخصب المجالات بالنسبة لعالم الآثار فقد كان الإبحار بالسفن محفوفاً بالمخاطر مما يؤدى إلى فقدان بعض السفن كل عام . وكان البحر الأبيض المتوسط فى أيام الرومان والإغريق يموج بالسفن التجارية وكانت مآسى اصطدامها تحدث دائماً بدون سابق إنذار : يكفهر الجو وتقوم العاصفة فكانت أى سفينة قاصدة إلى أسبانيا أو شمال إفريقيا تجدها تنقلب فى لحظة ، وتغوص إلى الأعماق بكل ما عليها من أحمال . ولذلك يمتلىء البحر الأبيض المتوسط ببقايا السفن أى منذ أربعة أو خمسة آلاف عام .

ولم يكن وجود هذه السفن الغارقة هناك سراً غير معروف ، وإنما كانت المشكلة هى كيفية الوصول إليها وانتشال الكنوز المخبأة فى أماكنها المتآكلة . وسنجد أنه بالرغم من أن بعض الصيادين كانوا يجدون بين السفينة والسفينة أجزاء من التماثيل أو آنية مغطاة بطبقة من الطين اللزج ، إلا أن مثل هذه الأشياء نادرة لا قيمة لها إلا بتذكير علماء الآثار بالعجائب التى لم يصلوا إليها بعد .

وحديثاً فى سنة ١٩٢٨ كتب الأستاذ « سالومون ريناتش »(١) يقول : « لا زالت أغنى المتاحف الأثرية فى العالم بعيدة المنال ، لأنها تكمن فى قاع شرق البحر الأبيض المتوسط . ومع أننا قادرون على اكتشاف الأرض والهواء بدون صعوبة تذكر إلا أننا أبعد ما نكون عن منافسة الأسماك فى الماء . وهى — كما جاءت على لسان القديس أوجستين — تعيش فى مسالك الهاوية السرية . ولقد بقيت هذه المسالك سراً مغلقاً علينا

---

(١) Salomon Reinach.

ثم قال « وبينما نحن فى انتظار ذلك اليوم الذى يسمح لنا فيه تطور العلم بأن ندلى بدلونا فى هذه الاكتشافات ، لا يملك عالم الآثار إلا أن يدين بالفضل للمصادفة وللصيادين بالنسبة لهذه الاكتشافات » .

أما اليوم فلم تعد مسالك تلك الهاوية مغلقة عنا ــ إذ يتجول علماء الآثار بشغف فى أعماق البحر الأبيض المتوسط ، وبدأ المتحف المغمور بالماء يفرط فى كنوزه الواحد تلو الآخر .

٢ – مناطق الشواطىء المهجورة :

ويعتبر اكتشاف تلك المناطق (التى كانت فى يوم ما أرضاً يابسة ثم اكتسحها البحر) نوعاً هاماً آخر من علم الآثار تحت المائية ــ ولقد تغيرت معالم الشاطىء على مدى آلاف السنين : ففى بعض الأجزاء من العالم تراجع البحر كاشفاً وراءه ما كان فى يوم ما قاع المحيط . وفى أماكن أخرى طغى البحر على الأرض فتآكلت قدماً بعد قدم .

وقد نتجت أحسن المواقع الصالحة لعلم الآثار تحت المائية من هذا التآكل . ويوجد معظمها على طول شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، التى تعتبر مركزاً لمعظم نشاط علماء الآثار تحت المائية . وتعتبر ميناء قيسارية القديمة (بفلسطين) أحد هذه المواقع : فعندما طغى عليها البحر أغرق جزءاً من الميناء . ويحاول علماء الآثار الآن استعادته من قبضة البحر الأبيض المتوسط . ويمكن رؤية أطلال المدن القديمة حول أطراف البحر على بعد قليل من الشاطىء وستجد كل منها بدورها عناية واهتمام علماء الآثار .

٣ — المدن الغارقة :

أحياناً يغرق الطوفان مدينة بأكلها ولا يقتصر على طول الشاطىء فقط . ويعتقد بعض علماء الآثار أن الطريقة التى تلاشت بها بعض المدن التى وردت فى الإنجيل مثل سادوم وعمورة هى أن الأرض قد انهارت وغاصت ، فغمرتها مياه البحر الميت . وهناك أيضاً مدينة إس Y S شبه الخرافية وهى بعيدة عن الشاطىء البريطانى ، ونفس الشىء بالنسبة « لأطلانطس » الأسطورية ، وهى القارة الخرافية التى غرقت والتى طالما حلم الإنسان باكتشافها منذ عصر أفلاطون . وحديثا اكتشف علماء الآثار مدينة « بورت رويال » وهى على جزيرة جامايكا التى أغرقتها الزلازل . وفى فصل قادم سنتناول بإسهاب تفاصيل البحث عن أطلانطس وإس والمدن الأخرى التى غرقت فى العالم .

٤ — ابار القربان :

وبعتبر بئر التضحية هو المجموعة الرابعة والكبيرة فى علم الآثار تحت المائية . ويبدو أن إلقاء الأشياء فى بئر هى طريقة تهدف إلى ضمان الحظ السعيد . ومن منا لم يلق بعملة فى بئر الأمنيات فى يوم ما .

وهناك أمم تؤمن بقذف ما هو أكبر من العملات الصغيرة فى الآبار من أجل حظ سعيد . وأشدها غرابة هم المايا the Mayas فى وسط أمريكا . فلهم طقوس منتظمة يقدم فيها الكائن الحى قرباناً للآلهة ، وذلك بدفعه فى آبار عميقة وجنباً لجنب مع الضحايا الذين لا حيلة لهم . فإن شعب المايا يرمى بالمصوغات والقرابين والهدايا الأخرى إلى الآلهة .

وقد ذكرت فى كتاب « المدن المفقودة والحضارات التى انمحت » كيف أن « ا . ه . طومسون » قد اكتشف بئر القربان فى « تشيتشان أتزا » فى المكسيك . وكان طومسون ، وهو أحد رواد علم الآثار تحت المائية يستخدم آلات بدائية وملابس غريبة غير متقنة للغطس إلى أعماق الآبار الموحلة . وكانت نتائجه كبيرة فقد استخرج مئات من الأدوات المصنوعة من النحاس والذهب وحجر اليشم من البئر .

ومنذ عدة سنوات نزل أحد المكتشفين المعاصرين إلى بئر «تشيتشان أتزا» ليرى ما إذا كان طومسون قد ترك شيئاً خلفه . ولايزال أمام باحثين آخرين — فى مكان آخر فى أرض « المايا » الكثير مما يمكن اكتشافه فى الآبار والبحيرات حيث ترك هؤلاء الهنود الغريبو الأطوار آلاف من المخلفات الأثرية لحضارتهم .

ويجابه الإنسان مشكلتين كبيرتين إذا ما أراد أن يسبر غور أعماق البحر ألا وهما : مشكلة التنفس ومشكلة الضغط .

وكان الغواصون الأوائل يمسكون أنفاسهم . وحتى الآن وفى كثير من أنحاء العالم لايزال صيادو اللآلىء والسمك يستعملون هذه الطريقة البدائية ، ولكن كمية الاكتشاف التى يمكن عملها بهذه الطريقة محدودة جداً . فأكبر الغواصين مهارة يمكن أن يمسك أنفاسه دقيقتين أو ثلاثة على الأكثر . وتنقطع أنفاس السباح العادى غير المدرب فى أقل من دقيقة . ولا يمكن لأى عالم آثار أن يقوم بأى نوع من الاستكشافات فى نفس واحد يستغرق دقيقة . وعلى ذلك يجب البحث عن طريقة تزود الإنسان بما يساعده على التنفس فى الأعماق ، لكى يزدهر علم الآثار تحت المائية .

ويضاعف ضغط الماء صعوبة الموقف : فنجد أن المـاء وهو على عمق ثلاثة وثلاثين قدماً يضغط على كل بوصة مكعبة من جسم الغواص بضعف قوة ضغط الهواء عند السطح . وعلى عمق ستة وستين قدماً يصبح الضغط ثلاثة أضعاف ماهو موجود على سطح الماء . وعلى عمق تسعة وتسعين قدماً يرتفع إلى أربعة أضعاف وهكذا . وعند نزول الغواص إلى الماء يشعر كأن قبضه غير مرئية تعصره عصراً وبشدة أكثر فأكثر ودائماً أشد ، وتدفع مقلتى العينين إلى الداخل وكذا طبلتى الأذنين ، وتضغط الرئتين — وهذا إحساس غير مريح قطعاً .

ويمكن للغواص الذى لم يحتم بشىء ما ، أن ينزل إلى عمق مائتى قدم دون أن يعانى بشكل جدى من الضغط . أما أبعد من هذا — فلا بد من وجود درع واق — وقد نجح الإنسان فى أن يصل إلى عمق آلاف الأقدام مرتدياً درعاً تقاوم جدرانه المعدنية الضغط . ولو تحطمت جدران هذا الدرع لاندك جسم الإنسان بداخله بتأثير ضغط الماء .

ويتم معظم البحث عن الآثار تحت المائية على أعماق لا تصل إلى هذا المدى الذى يعرقل العمل . وهنا تظهر مشكلة التنفس مرة ثانية .

وقصة الغطس تحت الماء قصة طويلة تحتاج لكتاب بأكمله . وترجع ملابس وأجراس الغواصين إلى العصور الوسطى . وقد بدأت تتحسن بسرعة منذ القرن التاسع عشر حتى الآن حيث أصبحت ملابس الغواصين الحديثة تمكنهم من أن يجولوا حولهم بأمان وبراحة تامة فى الأعماق البعيدة ، وتصلهم إمدادات الهواء خلال أنابيب من سطح الماء البعيد .

ومع ذلك فرداء الغطس غير مريح فى المياه الضحلة لأن الغواص يتحرك داخل غلاف معدنى مما يجعل خطواته ثقيلة ومعرقلة ، ولا يمكنه أن يتحرك

كما يحلو له . ولو انقطع مايربطه بالحياة على السطح لوقع فى أشد المآزق . والإنسان المرتدى رداء الغطس معرض أيضاً للإصابة فى أى حادثة . هذا بالإضافة إلى عرقلة حركته نتيجة هذا الحمل من الأدوات .

ورداء الغواصين ضرورى جداً للعمل به فى الأغوار العميقة وإلا تعرض الجسم للتحطيم بواسطة ضغط الماء . ولما كانت المواقع التى يعمل فيها علماء الآثار لا تبعد أكثر من مائتى قدم تحت سطح الماء أصبح لا بد من البحث عن شىء أبسط وأكثر ملاءمة .

وقد تمكنا من الوصول إليه ، ويعرف باسم « سكيوبا » Scuba وهو اختصار للجملة الإنجليزية التى تعنى جهاز التنفس الذاتى تحت الماء . وقد أحدث السكيوبا ثورة فى علم الآثار تحت المائية ، فقد حرر الغواصين من خطر الاعتماد على خرطوم الهواء . وكذا حررهم من قيود ملابسهم السابقة . وكل ما يرتدونه هو قناع ورداء البحر وزعانف ، ويحمل غواص السكيوبا معه الإمدادات التى يحتاجها للتنفس . ويتحرك حوله كما يحلو له . وحالياً يتم تقريباً كل البحث عن الآثار تحت المائية بواسطة غواصى السكيوبا أو الغواصين العراة إلا عندما يكون العمق مشكلة .

وتعتبر ثورة السكيوبا حديثة ، ولو أن فكرة الجهاز الذاتى للغطس ترجع إلى ما قبل مائة وخمسين عاماً . فقد اكتشف « و. ه. جيمس » سنة ١٨٢٥ أول جهاز ، وقد استخدم أسطوانة أكسوجين مثبتة فى رداء الغطس التقليدى فى ذلك العهد .

ولكن عندما نتنفس فإننا نطرد ثانى أكسيد الكربون الذى يصبح ساماً إذا ما زادت كمياته . ويسمح جهاز « و. ه. جيمس » لثانى أكسيد الكربون

يأن يتجمع فى خزان النفس . وسرعان مايفسد الأكسوجين المختزن بثانى أكسيد الكربون ويضطر الغواص أن يعود إلى السطح .

ولم يتم استكمال الجهاز الذاتى بحيث يتخلص من ثانى أكسيد الكربون الخارج مع الزفير إلا سنة ١٨٧٨ . وجهاز « هـ. ا. فلوس Fleuss » من انجلترا قد تمكن من استمرار دورة الأكسوجين ، فاستبعد ثانى أكسيد الكربون بطريقة كيميائية وتم التخلص منه من خلال صمام — ولكن هذا الترتيب — ولو أنه مفيد بطريقته الخاصة إلا أنه غير ملائم للسباحين . ويمكن استخدامه فقط إذا كان الإنسان سائراً بأقدام مثقلة على قاع المحيط .

وقد بدأ الغطس بالجلد كما نعرفه الآن فى فرنسا سنة ١٩٣٣ . اخترع الكومندان « إيفز لو بريير » وهو ضابط بحرى فرنسى جهاز سكيوبا مكوناً من زجاجة مملوءة بالهواء المضغوط ومعلقة على الصدر ومتصلة بأنبوبة هواء تصل إلى قناع يغطى كل الوجه . وحتى بهذا الجهاز لم تكن السباحة ممكنة . ولكن يجب أن يمشى الغواص على القاع . ولكن عمل مهندسو العقد الذى يليه فى جميع أنحاء العالم على تعديل الجهاز الأصلى . وفى نفس الوقت ظهرت الزعانف التى تساعد على السباحة . وقدم إدى كورليو الفرنسى سنة ١٩٣٥ أول زعانف للقدم إلى السوق (كانت لدى ليوناردو دافينشى منذ أربعمائة عام فكرة عن استعمال زعانف يدوية ، وقد صنع بنيامين فرانكلين فعلا زوجاً منها) .

وقد صاحب الحرب العالمية الثانية تطور فى وسائل التنفس تحت الماء لأسباب حربية . فقد زود رجال البحرية الأمريكية (الضفادع) بأجهزة أكسوجين تسمح لهم بالبقاء ساعتين مرة واحدة تحت الماء بدون الصعود إلى السطح ، ولكن حتى هذه الأجهزة لا تصلح إلا لعمق ثلاثة وثلاثين قدماً . أما أبعد من هذا فالغواص معرض للتسمم بالأكسوجين نتيجة لاستنشاقه الأكسوجين النقى بدلاً من الهواء .

وبعد الحرب بيعت هذه « الأقنعة » الفائضة من مخازن الحرب إلى الجمهور ، وأصبح الغطس بالجلد هواية محبوبة بين المغامرين . ولكن هذه الأقنعة القديمة الصنع كانت خطيرة وسببت كثيراً من الوفيات عند ماذهب الغواصون إلى أعماق بعيدة . فعلى عمق أكثر من ثلاثة وثلاثين قدماً أو «٢جو» يمتص الدم الأكسوجين بسهولة ويصبح مشبعاً به بسرعة وينتج عن هذا عجز الدم المشبع بالأكسوجين عن حمل ثانى أكسيد الكربون بعيداً وبشكل سليم وبالتالى يؤدى إلى الوفاة البطيئة .

وعندما ظهرت خطورة أجهزة الأقنعة شغل المخترعون أنفسهم مرة ثانية وتحولت الأنظار إلى أجهزةالتنفس ذات « الدائرة المفتوحة » .

وسميت أقنعة الأكسوجين الخطيرة أجهزة « الدائرة المقفلة » لأن نفس الكمية المخزونة من الأكسوجين تدور بلا نهاية مع ثانى أكسيد الكربون وبعض الشوائب الأخرى التى تمتص معه . وتعتبر وحدات « الدائرة المفتوحة » التى ينفذ هواء الزفير منها إلى الماء أكثر أمناً لأسباب تكتيكية مختلفة .

ومع ذلك فهناك عيب واحد كبير فى أجهزة « الدائرة المفتوحة » وهو أنها تفرغ الهواء بسرعة فيستطيع الغواص بجهاز دائرة مغلقة أن يبقى تحت الماء عدة ساعات . أما جهاز الدائرة المفتوحة فيغذى بالهواء باستمرار وتستهلك الكمية فى الحال مما يضطر الغواص للصعود إلى السطح خلال دقائق معدودة وإلا فليحمل خزانات ثقيلة ترهقه .

والمطلوب هنا هو نوع من الصمام يبطىء استهلاك الهواء فى جهاز الدائرة المفتوحة . ومن الغريب أن الفكرة الرئيسية لهذا الصمام كانت قد اخترعت منذ ١٨٦٦ ، وقد أضاف مخترع باريسى اسمه « بنواست روكارول » تحسينات

إلى الجهاز المعروف حالياً باسم « منظم الطلب » وتلائم منظمات الطلب نفسها حسب ضغط الماء المحيط بالغواص ولا تسمح بإخراج الهواء إلا عند ما يتنفس الغواص . وبتنظيم عملية إخراج الهواء من منظم الطلب بالخزان يمكن لأجهزة الدائرة المفتوحة أن تحمل من الهواء ما يسمح للغواص أن يستمر نصف ساعة أو أكثر تحت الماء .

ولقد سبق روكارول زمنه ولم يلفت اكتشافه الأنظار . وبعد ذلك بتسعين عاماً كان العالم على استعداد لتقبله ، ثم تم تعديل منظمات الطلب لتحقق الأمان والكفاية للسكيوبا ذات الدائرة المفتوحة .

ونجح فرنسى ذو ظهر محنى ووجه يشبه الصقر إسمه « جاك ايفز كوستو » — سنقابله مراراً فى الفصول المقبلة — فى عمل هذا النوع من الأجهزة . فقد طور هو ومهندس يدعى « إميل جانيان » جهازهما سنة ١٩٤٣ وبذلا مايزيد على ٥٠٠ محاولة للغطس به فى ذلك العام حيث وصلا به إلى عمق ٦٠ قدماً و ٧٠ قدماً ثم ١٣٠ قدماً وبمنتهى الحذر إلى العمق المذهل وهو ٢١٠ أقدام .

وسجل كوستو وجانيان اختراعهما فى الولايات المتحدة فى مارس سنة ١٩٤٧ وأطلقا عليه إسم « الرئة المائية » ، وهو إسم تجارى يشير فقط إلى جهاز كوستو وجانيان ولكن مثله كمثل الأسماء التجارية الأخرى مثل « فريجيدير » أصبح جزءاً من لغتنا . ونستعمله الآن للدلالة على أى نوع من أجهزة السكيوبا ولا يقتصر على الجهاز الذى سجله كوستو وجانيان .

وتوجد حالياً فى السوق أنواع مختلفة من الرئات المائية بعد مرور مايزيد عن خمسة عشر عاماً من عرض الجهاز الأول على الجمهور . ومع ذلك تتشابه المبادىء الرئيسية فى جميع الأجهزة . فيحمل الغواص خزانات من الهواء

المضغوط — لا الأكسوجين النقى — على ظهره ، وتتصل بخرطوم الهواء الذى يصل إلى مكان الفم ، ويمده منظم الطلب بالهواء الذى يحتاجه ، ويخرج الهواء الفاسد من خلال صمام العادم . ويلبس الغواص قناعاً وزعانف وإذا كان الماء بارداً يلبس رداءاً من المطاط يغطى جسمه كله .

وقد أصبح استعمال أجهزة السكيوبا اليوم سهلا كسهولة السباحة ذاتها ، ويجرب النشء من سن عشر سنوات فما فوق مهارتهم فى استعمالها تحت رقابة صحيحة بالطبع ولا يتطلب الأمر أكثر من بضع دروس فى حوض سباحة أو فى مياه ضحلة جداً حتى يدركون مبادئها ويتعلمون ماذا يفعلونه فى حالات الضرورة وعلى المبتدىء أن يعرف جيداً كيف يتصرف فى حالة فساد خرطوم الهواء أو امتلاء القناع بالماء .

ولكن هذه الأسس يمكن معرفتها كلها فى ساعتين من التمرين ، ثم بعد ذلك يتراءى أمامك عالم ما تحت البحار : العالم الذى سماه الكابتن كوستو « العالم الصامت » ، وذلك فى كتاب مشهور له .

إن الغطس بالجلد هو أقرب الأشياء إلى الطيران الحر الفعلى الذى يمكن أن يجربه أى واحد منا . فأنت لا تحس بالخزانات على ظهرك . وإذا هبطت — كما فعلت أنا فى المياه البللورية الصافية فى بحر الكاريبى فستفقد تماما كل إحساس بأنك فى الماء . فالأمواج فوقك والماء شفاف تماما . وإذا نظرت إلى أسفل سترى تشكيلات جميلة من قرون الغزلان المرجانية المتشعبة . وإذا دفعت زعانفك وجدت نفسك هابطاً خمسة عشر فعشرين فخمسة وعشرين قدماً . وتستطيع أن تفحص الشعب المرجانية عن قرب بينما تغوصك أنت سمكة صغيرة جسورة ذات ألوان مثل قوس قزح ، وأحياناً تضرب بالفعل قناع وجهك بدافع من حب الاستطلاع .

وربما يمر من فوقك أسطول من الحبار يبلغ طول الواحد منه قدماً يسبح فى تشكيلات عسكرية محكمة . ثم تحرك مرة أخرى زعانفك فتصعد دون جهد لتحصل على نظرة أفضل ، وعندئذ ترى الحبار دون أن يفقد اعتزازه بنفسه ، ويخرج عصارة بنية فى الماء ثم يسبح بعيداً عنك .

إنه عالم بلا زمن . والشىء المؤسف حقاً هو أنه يجب عليك أن تعود إلى السطح عندما تقارب خزاناتك النهاية . وكثيراً ما تعانى لـكى تفرض على نفسك العودة إلى السطح فأنت حر تماماً ، حر تتحرك فى أى اتجاه كما تشاء ، إلى أعلى أو إلى أسفل فى أى اتجاه . أما عندما تعود إلى الأرض الجافة فإنك تصبح عبد الجاذبية مرة أخرى .

ولا يهبط أغلب الهواء من الغواصين بالجلد أكثر من ثلاثين قدماً تقريباً . ولـكن إذا اتخذت إجراءات سليمة يستطيع الغواص المدرب أن يصل إلى أعماق تصل إلى عشرة أضعاف هذا الرقم تقريباً . هناك أخطار بالطبع ، ولـكن هناك أيضا تعويض مجز .

وقد نشط ظهور السكيوبا من علم الآثار التحت مائية . لقد ذهبت بدل الغطس المتعبة إلى غير رجعة ، وكذلك الأحذية المربوطة بأثقال — وهى التى كانت تثير سحباً من التعكير والترسيب وتقلق آثار ومخلفات التاريخ . إن عالم الآثار يستطيع الآن أن يتحرك وفقاً لارادته يفحص أو يصور أو يدرس ، كما أنه عند ما يحتاج الأمر إلى عمل دقيق يستطيع أن يقوم به بيديه دون الحاجة إلى قفازات .

وبالطبع لا يستطيع كل علماء الآثار أن يغطسوا بالجلد . وحتى فى هذه الحالة يستطيعون أن يستفيدوا من تدريبات الآخرين الرياضية . أما علماء الآثار ذوو

الحركة البطيئة أو من غير الشباب ممن لا يستطيعون استخدام الرئة المائية فيمكنهم بل ويستطيعون أن يوجهوا نشاط الآخرين . وهذا هو ما يفعلونه تماماً . لقـد رأس الرحلات الاستكشافية أناس لم يضعوا على جسمهم أبداً لباس الاستحمام .

ورغم هذا فإن كل عالم آثار يفضل أن يرى بعينيه هو . ولهذا نشأ جيل جديد من علماء الآثار الشبان ويعرفون باسم « عالم الآثار الغواص بالجلد » وهو يستطيع أن يقوم لا بالغطس فحسب ولـكنه أيضاً مدرب على علم تفسير مايراه .

ونظراً لأن الحصول على جهاز سكيوبا يضمن السلامة والراحة لم يصبح ممكناً على نطاق واسع إلا منذ سنة ١٩٤٧ فقط ، فإن علم الآثار تحت المائية لا زال يخطو أولى خطواته نحو اتساع نشاطه : إن السكيوبا وغيرها من الآلات المستنبطة الجديدة (مثل مصعد لينك الهوائى الذى سنواجهه فى فصول لاحقة) يفتح آفاقاً جديدة واسعة بالنسبة لعالم الآثار .

وقبل أن نبـدأ بدراسـة التقدم الذى حققه العلم الجديد لعـلم الآثار تحت المـائية ، نعود إلى أيام ما قبل الرئة المـائية — إلى أيام الارتياد الأولى فى علم الآثار تحت المـائية .

الفصل الثانى

صيادو السمك والإسفنج

نحن الآن فى سنة ١٩٠٠ . فى ذلك العام هبت عاصفة هوجاء على البحر الأبيض المتوسط . كانت ريحاً شمالية غربية عاتية . وهذا معناه أن يحدق الخطر بكل سفينة شاء لها سوء الحظ أن تكون فى البحر فى ذلك الوقت . كانت مثل هذه العواصف طيلة آلاف من السنين تلقى بالسفن اليونانية فى أعماق البحر . وفى ذلك الوقت تعرضت سفينتان يونانيتان للخطر وهما سفينتان من النوع القديم تحملان غواصى الاسفنج . وقرناً بعد قرن من الزمان كان اليونانيون الأشداء الرياضيون يغطسون إلى أعماق البحر الأبيض المتوسط ليصطادوا الاسفنج بدون الاستعانة بالخوذات أو خزانات الهواء . كانوا يندفعون إلى أسفل وقد علقوا أثقالا من الحجارة بأقدامهم ثم يحصدون الإسفنج حتى ينضب الهواء من رئاتهم القوية ، ثم يتخلصون من أثقالهم ويصعدون إلى السطح ومعهم الغنائم .

وكانت هاتان السفينتان فى طريق العودة بعد رحلة فى شمال إفريقيا ، حيث كان الغواصون يجمعون الاسفنج عند ساحل تونس . وعندما هبت العاصفة المفاجئة اضطرت السفينتان إلى الالتجاء إلى مكان تحتميان فيه ، فغادرتا جزيرة « انتيكيثيرا » Antikythera عند نهاية الأرخبيل اليونانى وهى ليست ببعيدة عن كريت ، ورستا عند مرفأ هادىء على بعد خمس وسبعين قدماً من الساحل .

وبدا كأنهم سيحتجزون هناك بعض الوقت حتى تنتهى العاصفة . وجالت بخاطر الكابتن ديمتريوس كوندوس فكرة اقتصادية :

« لم لا نحاول أن نعرف ما إذا كان هنا اسفنج نجمعه أم لا طيلة الفترة التى سنضطر للبقاء فيها هنا ؟ » .

إن هؤلاء اليونانيين — وهم من سلالة غواصى الإسفنج القدامى — كانوا يستخدمون أساليب حديثة : الخوذة والأحذية المربوطة بالأثقال . واستعد الغواص « إلياس ستادياتيس » وهبط عابراً مائة وخمسين قدماً من الماء الصافى حتى وصل إلى القاع .

وفى غمار دهشته المفاجئة فى موضوع الإسفنج — صاح قائلا : ما هذا ؟ جياد فى قاع البحر ؟ عمالقة من النساء والرجال ؟ هل هذا هو أحد مقار الآلهة ؟ لا . . ليست آلهة : إنها تماثيل .

ونظر « ستادياتيس » فى ذهول وحملق فى المجموعة المتناثرة من التماثيل ، وكان أمامه تمثال لإحدى الأمهات من المرمر مدفونة حتى نصفها فى الرمال وتبدو عارية جميلة ، إذا نظرت إليها من الخلف ، أما وجهها فقد أكله سمك المحار وكانت هناك أيضاً جياد ضخمة حوافرها تضرب فى الماء كأنها على وشك أن تقفز إلى السطح . وهناك أيضاً العيون العمياء لشاب مفتول العضلات تنظر فى ذهول متعمد إلى سمكة عابرة .

واتجه ستادياتيس ليقبض على يد تمثال برونزى قريب منه ولكن ذراعا بأكملها انخلعت فى يده . وما أن قبض على الذراع الضخم فى إحكام حتى جذب بعنف الحبال التى تربطه بأعلى ، كأنه ينادى : « إجذبونى إلى أعلى . . إجذبونى إلى أعلى » .

ثم وصل إلى السطح وكشف عما وجد ، ثم أشار إلى البحر وقال بأنفاس متقطعة « تماثيل — جياد — رجال . آلهة — عشرات من التماثيل » .

ولكن العاصفة كانت على وشك الانتهاء ، كما أن السفينتين لم تكونا معدتين لحمولة التماثيل الثقيلة من الأعماق . وقد حدد الكابتن كوندوس مكان هذا الموقع بالدقة ، بعد أن هبط إلى أسفل ليتحقق من الاكتشافات ، وليأخذ مقاسات التماثيل ، ثم أبحرت السفينتان عائدتين إلى الوطن .

وذهب الكابتن كوندوس والغواص ستادياتيس إلى أثينا يحكيان ما رأياه ومعهما الذراع الضخم إثباتاً لما يقولان . ورحب الناس فرحين بجامعى الاسفنج لأنه إذا كانت الدول الأخرى قد نهبت آثار الإغريق طيلة قرون من الزمان . فقد جاء الوقت ليكون لدى اليونان بعض علماء الآثار من بنيها . وكانوا يستعذبون محاولة اكتشاف الكنوز المجهولة .

وتم تنظيم رحلة بشكل سريع . وفى نوفمبر سنة ١٩٠٠ تم تجهيز سفينة من سفن الأسطول اليونانى تستطيع نقل التماثيل الكبيرة ، وانطلقت السفينة إلى موقع انتيكيثيرا .

واستمر علماء الآثار والغطاسون فى العمل طيلة تسعة شهور . وكانت تهب عليهم أغلب الوقت رياح شديدة تعرض السفن للخطر . وعاش الغواصون فترة عصيبة أيضاً ، فكان عليهم أن يعملوا على عمق مائة وخمسين أو مائة وسبعين قدماً ، وكانت أجهزتهم البدائية المعدة للغطس لا تمنحهم إلا حماية قليلة من الضغط ولم يكن باستطاعتهم البقاء فى الماء أكثر من خمس أو ست دقائق فى المرة الواحدة كما أصيب اثنان منهما «بالبند» التى أعجزتهم عن الغطس : والبند هو مرض يسبب العجز للغواصين الذين يندفعون إلى السطح بسرعة شديدة قادمين من أعماق عميقة . بل لقد مات أحد الغواصين .

ورغم كل هذه العراقيل فقد كانت النتائج ذات وقع طيب . واستطاع

الرجال أن يفصلوا ويسبحوا رأساً برونزية بحجم الرأس الطبيعية ، وتمثالين كبيرين من المرمر وبعض القطع الصغيرة الأخرى . واستطاعت بعثات أخرى فى السنوات القليلة التالية أن تجد عشرات من التماثيل الأخرى فى ذلك الموقع . وكانت مسألة نقل هذه الآثار إلى السطح مشكلة تتطلب الحل . وكان لابد من مهارة فائقة لوضع هذه التماثيل فى علاقات قوية . ولو حدث أن انزلق تمثال من العلاقات لتحطم وحطم أى شىء يقع عليه . ونقلت التماثيل إلى أثينا حيث قام بفحصها عالم آثار يونانى هو الأستاذ جورج كارو . ورغم أن المرء قد يعتقد أن شيئاً من الاصابات ربما لحق بالتماثيل أثناء صعود الغواصين بها ، إلا أن الأستاذ كارو كتب يقول : « إن هؤلاء الصيادين غير المتعلمين الذين يجهلون تماماً الأساليب الفنية لعلم الآثار قد كشفوا عن حرص ملحوظ ودقة عند معالجتهم لهذه الآثار . لقد دهشت لضآلة ما أصاب هذه التماثيل من أضرار حديثة . إن الصيادين دفعوا التماثيل فى رقة ملحوظة . بل إن الأوانى الفخارية والزجاجية جاءت دون أن يصيبها شىء » .

وتعتبر رحلة انتيكيثيرا الاستكشافية (١٩٠٠ ـ ١٩٠١) علامة طريق بارزة فى تاريخ علم الآثار . كانت المرة الأولى التى تبذل فيها محاولة جادة لاستعادة الآثار من البحر .

لقد تم الوصول إلى آثار سابقة ولكنها تمت بصورة عشوائية وعلى أساس مبعثر . لقد كتب « بوسانياس » فى القرن الثانى بعد المسيح أن صيادى « ميثيمنا » ألقوا بشباكهم فى البحر ثم سحبوها فوجدوا داخلها رأساً منحوتة من خشب « شجر الزيتون » ولقرون طويلة لاحقة كان الصيادون يقومون بمثل هذه الاكتشافات غير المتوقعة وهم يسحبون شباكهم .

ولكن الأمور كانت تسير بطريقة عشوائية ليس لها علاقة بعلم الآثار

المنهجى . وفى سنة ١٨٧٧ توصلوا إلى اكتشاف رأس برونزى يمثل « جود جون ميدوسا » من شاطىء فرنسا ولكنه بيع كخردة . أما تمثال أبولو البرونزى الذى خرج فى شباك الصيادين قرب جزيرة « ألبا » قبل ذلك بسنوات ، فقد كان حظه أفضل . إذا أنه الآن فى متحف اللوفر . وتحتوى معظم متاحف أوروبا على واحد أو أكثر من التماثيل التى أمكن استعادتها من البحر .

ولكن أمكن إنقاذ مجموعة بكاملها من الآثار فى وقت واحد عند انتيكيثيرا . وهذا جعل من الممكن التعمق بعض الشىء فى التاريخ الماضى ، وهو ما لم يكن ممكناً عن طريق فحص القطع المتناثرة أو التماثيل المنفردة .

لابد أن هذه المجموعة هبطت إلى قاع البحر مع حطام سفينة . ولابد أن هذه السفينة كانت فى طريقها من أثينا إلى روما خلال القرن الأول قبل الميلاد . ويمكن أن نحدد بالدقة التاريخ لأسباب سنراها حالا . لقد كانت السفينة الغارقة تحمل تماثيل برونزية ومرمرية . ويبلغ عمر هذه التماثيل البرونزية أربعمائة سنة فى الوقت الذى سقطت فيه إلى القاع ، أى أنها قد صنعت أبان عهد سقراط وأفلاطون . وكانت هذه التماثيل رائعة التصميم . وكتب أحد المتخصصين فى التماثيل عن التمثال البرونزى المسمى « أفيب » أو الرياضى ، كتب يقول « إن الفن الكلاسيكى لايحتوى فى جعبته الفنية على أجمل من هذه الدرة » . ولكن التماثيل المرمرية أحدث عهداً ، فلم يتعد عمرها عشرات السنين عندما شحنت على السفينة المنكوبة . ويبدو أنها كانت نسخاً حديثة لتماثيل يونانية قديمة جداً . وقد تأثرت التماثيل المرمرية إلى درجة كبيرة من آثار بقائها تحت الماء ألفين من السنين . وكتب أحد الخبراء الذين رأوا هذه التماثيل « تخيل أجساداً لسعتها النار ، وأنقاضا غطتها الحيوانات الرخوة ، ورجالا أتى عليهم مرض فظيع . إن التماثيل المرمرية قد تآكلت تماما ولم ويبق شىء من النماذج . وإنما يمكنك فقط أن تتخيل

ما كانت عليه هذه التماثيل من أشكال وحركات جميلة » . ومما يسترعى الأنظار أن القواعد المصنوعة من الرصاص لهذه التماثيل البرونزية قد تمزقت والتوت ، كأن التماثيل قد انتزعت منها بعنف . ومن المعتقد أن التماثيل تمثل غنائم الغزاة الرومانيين الذين نهبوا معابد اليونان . ولما كانوا يسرقون وهم على عجل فلم يأخذوا التماثيل القيمة ذات النوعية العظيمة فحسب بل أخذوا قطعاً مرمرية أحدث وأقل أهمية . وربما كانت هذه الجماعة هى جزء من قوة الإغارة الرومانية تحت قيادة الدكتاتور سولا التى نهبت اليونان سنة ٨٦ ق . م .

إن أهم أثر من الآثار التى جمعتها بعثة « انتيكيثيرا » الاستكشافية لم يكن تمثالا على الاطلاق ، ولكنه كتلة من البرونز المتآكلة إلى درجة بعيدة ، وهى كتلة لم تسترع أى انتباه فى بادىء الأمر . لقد عاشت آلاف التماثيل بعد سقوط اليونان وروما ولكن هذه الكتلة كانت شيئاً فريداً : إنها لم تكن شيئاً أقل من آلة على درجة عالية من التعقيد للقيام بعمليات حسابية .

ومرت هذه الكتلة دون أن يلحظها أحد . وألقاها جانباً علماء الآثار الذين سبق أن فحصوا الآثار الموجودة فى أنتيكيثيرا ، لأن تلك الكتلة البرونزية قد أصابها التدمير بشدة واعتقدوا أن لا قيمة لها . ولكن فى سنة ١٩٠٢ عندما كان عالم الآثار « فاليريوس ستايس » أحد رجال المتحف القومى فى أثينا ، يصنف مجموعة من القطع البرونزية من « انتيكيثيرا » حدث أن لاحظ شيئاً غريباً فيما يختص بهذه الكتلة البرونزية . وحملق فيها فى دهشة وقال مستغرباً : « يبدو أن هذه الكتلة هى نوع من الآلات » .

وكانت بالفعل نوعاً من الآلات : فدرس كثير من علماء الآثار هذه القطعة المدهشة بالتفصيل . وكان واضحاً أن هذا الشىء يحوى تروس تعشيق ولوحات

محفورة وميناءاً . لقد كانت هذه الكتلة وما زالت الشيء الميكانيكى الوحيد الذى يبقى من أيام اليونان القديمة .

ورغم أننا عرفنا أن اليونانيون كانوا مبرزين فى النظرية العلمية ، إلا أننا لم ندرك أنهم قد نموا الجانب العلمى من التكنولوجيا أيضاً . إننا هنا إزاء آلة بها أكثر من عشرين ترس تعشيق متداخلة بصورة بالغة التعقيد ، وهى تنطق بأن ما عرفه اليونانيون عن صناعة الآلات أكثر مما توقعنا .

إن طريقة عمل هذه اللوحات المحفورة ساعدت علماء الآثار أيضاً على أن يحددوا تاريخاً محدداً لغرق السفينة . إن الحروف المكتوبة بها اللوحات ينم أسلوبها على أنها لا تزيد عن مائة سنة قبل الميلاد ، وأنها لم تكن تستخدم منذ وقت المسيح تقريباً . إن الكلمات المستخدمة فى الحفر تؤيد هذه الملاحظة إذ أنها تتضمن بعض البيانات الخاصة بعلم الفلك شبيهة بتلك البيانات التى جمعها جيرمينوس اليونانى سنة ٧٧ ق . م. إن هذا الجهاز قدم طريقة واضحة لا نزاع حولها فى تحديد تاريخ غرق السفينة .

وقد استغرق اكتشاف الغرض من هذا الجهاز بالدقة سنين طويلة . فقد كان يجب أولا إزالة الصدأ والتأكسد . أما النقوش المحفورة والميناء فقد قطعت كل شك وأوضحت أن هذه الكتلة البرونزية شيء شبيه بآلة فلكية . وأعتقد علماء الآثار لفترة طويلة أنها أداة خاصة بالملاحة ربما تكون أسطرلاباً (أى أداة تستخدم لتحديد وضع السفينة عن طريق النجوم) .

وبعد أكثر من خمسين سنة بعد استخراج الغواصين لهذه الآلة العجيبة تم انجاز عملية تنظيفها . وفحص هذه الآلة سنة ١٩٥٥ عالم لندنى المولد اسمه « ديريك تادى سولا برايس » واخصائى فى الكتابة اليونانية القديمة وإسمه « جورج

ستاميرس » . وكان أول نجاح لهما أن تمكنا من تركيب القطع العديدة ببعضها بشكل سليم . ورغم أنه كان من المعتقد أن هذه الآلة قد شوهت وهشمت ، إلا أن « بريس » و « ستاميرس » وجدا أنها ما زالت محفوظة فى حالة جيدة . لقد كانت تتكون فى الأصل من صندوق خشبي له أبواب بمفصلات . داخله الآلة ذات تروس التعشيق لا بد وأنها كانت تبدو كساعة قديمة ، ولكن الأجزاء الخشبية اختفت بفعل عشرين قرناً من غمرها فى الماء .

لقد فحص « بريس » و «ستاميرس» النظام المعقد لتروس التعشيق وللميناء ، واندهشوا لدرجة التعقيد فى هذه الآلة . فقد كان هناك ميناء يحمل رموز بروج السماء الإثنى عشر وآخر يحمل أسماء الشهور . وعندما تدور تروس التعشيق كانت الآلة تقدم معلومات عن شروق وغروب الكواكب الهامة والمجموعات الفلكية طيلة العام . أما الموانىء الأخرى فكانت تقدم معلومات فلكية أكثر تعقيداً .

وأعاد العالمان تركيب هذه الآلة من أجزائها المتبقية ، وانتهيا إلى أنها كانت تستخدم لاحتساب مواقع الأجرام السماوية على مدار السنة . لقد عرفنا أن اليونانيين كانوا علماء فلك عظام . ولكننا لم ندرك قدرتهم على أن يترجموا مفهوماتهم إلى عدد وآلات من هذا النوع . وكما كتب الدكتور بريس :

« إن آلات (أنتيكيثيرا) ليست مجرد فقاعة فى الهواء . ولكنها جزء من تيار هام فى المدنية الهيلينية . والتاريخ حاول أن يحيط بالغموض هذا التيار بالنسبة لنا ، ولم يلق الضوء عليه سوى ما جاءت به الصدفة من الاحتفاظ تحت الماء ببقايا كان من الممكن أن تتحول إلى تراب . إنه لشيء مخيف نوعاً أن نعرف أن اليونانيين القدامى اقتربوا من عصرنا نحن ، قبل أن تسقط مدنيتهم العظيمة ، ليس فى أفكارهم فحسب بل فى علوم التكنولوجيا » .

أما الاكتشاف الهام الثانى فى البحر الأبيض فقد جاء بعد ست سنوات من مكتشفات « انتيكيثيرا » ففى يونيو سنة ١٩٠٧ كان الغطاسون اليونانيون يعملون خارج « المهدية » وهى ميناء صغيرة على ساحل تونس والمهدية مدينة غير مهمة ولكنها قديمة تعود إلى أيام الفينيقيين . ورغم أنها اليوم ليست سوى قرية صيد ، إلا أنها كانت ميناء استخدمته أساطيل التجار البحرية المنقرضة فى قرطاجنة واليونان وروما مئات السنين قبل المسيح ، لقد توقف قيصر فى زيارته هناك بعد إقامته فى مصر مع كليوباترا . وكانت هذه القرية وكراً للقراصنة فى القرون الوسطى .

والبحر عند « المهدية » ضحل لا يزيد عمقه عن عشرين قدماً ، حتى إذا تعدينا الساحل بثلاثة أو أربعة أميال . وفى الأعماق تغطى طبقة دقيقة من الطمى جرفاً من الصخور .

وذات يوم فى يونيو سنة ١٩٠٧ كان صائد اسفنج يونانى يجوس على هذا الجرف من الصخور على بعد ثلاثة أميال من الشاطىء ، وعلى عمق مائة وثلاثين قدماً عندما وجد ما يشبه « مجموعة من البنادق الكبيرة » فى أعماق البحر . وبعد نظرة فاحصة أدرك أنه لا يرى مدافع بل عواميد مرمرية مغطاة بالطمى . وتناثرت بالقرب منها تماثيل كبيرة وصغيرة من المرمر والبرونز .

لقد عاد الغواص إلى السطح بسرعة . ثم دعا رفاقه وأشار مضطرباً إلى الماء قائلاً : « لقد وجدت كنزاً هناك تحت الماء . إنه كنز قديم ! » . وعلى الفور كف الغواصون عن البحث عن الاسفنج ليبحثوا عما هو أكثر ربحاً ، عن الآثار

القديمة وأخذوا ينتشلون أى شىء صغير يمكن حمله بأيديهم . وعند عودتهم بغنائمهم إلى الشاطىء باعوها إلى تجار العاديات .

ولقد كانت هـذه ـ لفترة طويلة ـ هى مصيبة علم الآثار . فإن العمال أو الصيادين يكتشفون آثاراً قديمة ويأخذونها معهم ليبيعوها عادة مقابل لا شىء . إن المكتشف يربح كثيراً وفى نفس الوقت يخسر علم الآثار . ذلك لأنه ما أن ينتقل الشىء من الظروف المحيطة به حتى تضيع معلومات أخرى قيمة للغاية . إن الشىء فى هذه الحالة يظل هاماً كقطعة فنية ولـكنه يفقد قيمته التاريخية .

وبعد أن باع غواصو الإسفنج ما عثروا عليه من آثار بأسابيع قليلة كان عالم آثار فرنسى يدعى « ألفريد ميرلين » يتجول فى أحد أسواق تونس ، ودهش إذ وجد أوانى وشمعدانات ونقوشاً على الحجر يونانية أصيلة معروضة للبيع بأثمان بخسة للغاية . واشترى « ميرلين » كل هذه المجموعة . ثم سأل الباعة « من أين أتت هذه الأشياء ؟ » ، فردوا عليه بهز أكتافهم ، ففى هذه البقعة من العالم لا يقـدم إنسان برغبته معلومات لأوروبى . ولـكن بعض النقود غيرت الوضع وفـكت عقدة لسان التجار . وقيل لميرلين « لقد اشتريناها من الغواصين اليونانيين . إن الغواصين يعثرون على مثل هذه الأشياء فى البحر ثم يحضرونها لنا » .

وشرع ميرلين على الفور فى العمل على حماية ما تبقى من هـذه الآثار والاهتمام بأن يتم اكتشاف هذه الآثار بطريقة علمية . ولقد أبلغ الغواصين

اليونانيين بصورة مؤدبة أن هذه الآثار ملك الحكومة التونسية ، وأنه لن يسمح بعد ذلك بأعمال نهب يقوم بها الأفراد . وبعد ذلك استطاع ميرلين أن يجمع أموالا من مجموعة من المليونيرات الأمريكان والباريسيين وأن يحصل على مساهمة من الحكومة التونسية وكذلك من الحكومة الفرنسية ، وذلك ليغطى التكاليف الهائلة لإرسال بعثة لهذا الغرض. إن علم آثار ماتحت الماء مشروع أكثر تكلفة بدرجة كبيرة من أعمال التنقيب فى الأرض . ثم بدأ ميرلين العمل . وما زالت الاستكشافات التى تمت فى « المهدية » تعتبر أحد الإنجازات الرئيسية فى علم الآثار فى هذا القرن . لقد تم تحضير ست بعثات استكشافية منفصلة تحت إشراف ميرلين فى خلال الفترة من ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١١ ، ومساهمة البحرية الفرنسية بتقديم رفاص لقطر المراكب ، وقدم مجلس إدارة الموانىء قارب غطس، ورغم هذه المساعدة كانت عملية « المهدية » تمثل عبئاً من الناحية المالية . إن علماء الآثار الذين يعملون على الأرض يستطيعون أن يعملوا كل يوم . أما علماء الآثار تحت المائية فتعوقهم العواصف والرياح ، وأحياناً يجدون أنهم لن يستطيعوا أن يعملوا أكثر من ساعة أو ساعتين فى اليوم ، أو يومين أو ثلاثة فى الأسبوع كل ذلك فى الوقت الذى يظل فيه الغواصون وتظل السفن متعطلة . فبينما تتم معظم عمليات الحفر على الأرض بأيدى عمال محليين يتناولون أجوراً منخفضة تتم عمليات الاستكشاف تحت الماء على أيدى غطاسين مهرة يتناولون أجوراً تعوضهم عما يتعرضون له من مخاطر .

وتعرض ميرلين لكل المشاكل المألوفة الخاصة بعلم الآثار تحت المائية . لقد كان الغواصون العاملون معه يطالبون بأجور مرتفعة ويتقاضونها . وكانوا جميعهم يونانيين ما عدا تركى واحد . وكثيراً ما كانت تهب عواصف مفاجئة تكتسح العوامات المثبتة لتحديد الأماكن ، مما يضطر « ميرلين » ليحدد من

جديد مواقعه المرة تلو الأخرى . وكانت الرياح العاتية تعوق عمله . ولكن كان هناك ما يجعل كل هذه المصاعب جديرة بالاحتمال . ففى أعماق البحر ترقد ستة صفوف من العواميد يبلغ عددها ستين عموداً تغطى مساحة حوالى مائة قدم طولا . وكتب « ميرلين » يقول « ترقد فى كل هذه المنطقة كتل من قطع المرمر مترا كمة فى مجموعات دون نظام : رؤوس عواميد وقواعدها ، كتل مربعة بدقة وأجزاء معمارية من أنماط متباينة . وكان مختلطاً مع هذه الأشياء ، وبصفة خاصة عند الطرف الشمالى للموقع كثير من الأوانى الخزفية المهشمة . وهى كل ما تبقى من الأوانى التى كانت على ظهر السفينة ، وجرات لم يبق منها سليماً سوى عدد قليل ، وأوان من أنواع مختلفة كانت تستخدم لحفظ الزيت والخمر والماء والمواد الغذائية ومواد يحتاجها البحارة أثناء رحلاتهم . . . وتحت طبقة عميقة من الطمى وجدوا عواميد أخرى وكتلا مرمرية وجرات ومراسى سفن كانت ملتصقة فى غير نظام . وقبل أن يصبح فى الإمكان تحقيق أية نتائج ، كان من الضرورى إزالة العقبات المتعددة ، وأن تتم عمليات الحفر وإزالة الوحل المحيط بها » .

وعاقت عواميد المرمر (ذات الإثنى عشر قدماً طولاً ، والتى بلغ قطر دائرتها قدمين) أعمال إزالة الأشياء الأصغر حجماً . وكلما حاول غواص أن يسقط حبلا تحت عامود ليرفعه بعيداً عن الطريق يثير سحابة من الوحل تغلفه بظلام دامس . كما أن التيار المائى فى الأعماق كان قوياً إلى درجة أن الغواصين المجهدين كانوا يسحبون إلى سطح الماء بعد فترة قصيرة من العمل . وكتب ميرلين :

« عندما حاول الرجال الحفر تحت واحد من هذه العمد التى يمكن فصلها عن غيرها ، أو أن يشقوا طريقهم بينها سرعان ما كانت تواجههم طبقة من الخشب سمكها حوالى ثمانى بوصات ، وفى حالة من التحلل بدرجة أو بأخرى . إن اختراق هذا الغلاف الواقى كشف عن أشياء أكثر دقة : تماثيل صغيرة

من البرونز تنم عن مهارة فى الصنع ، وأجزاء من قطع أثاث مزينة بصور جميلة .

« ويبدو واضحاً أن السفينة عندما غرقت غاصت على الفور إلى الأعماق دون أن تتهشم . وقد لحقتها أضرار معينة ولكنها لم تنقلب على ظهرها . ولهذا فالخشب المتعفن كان ذات يوم يمثل هيكل السفينة . وكانت تقوم عليه العواميد وبعض الأشياء الأقل قابلية للكسر . وكانت العواميد مرصوصة على مسافات بعيدة بدرجة كافية لتجعل من الممكن التحرك بينها . وحتى لا تعوق توجيه السفينة . أما البالات التى كانت تحوى الأجزاء الأخرى من الحمولة الأصغر والأغلى فقد كانت مرصوصة بين الأسطح الخشبية أما جوف السفينة فقد كان مليئاً بالأعمال الفنية المعدنية أو المرمرية » .

واستطاع ميرلين أن يكون فكرة أيضاً عن مصير السفينة . وكان فى اعتقاده أن عاصفة دفعت بها عبر البحر الأبيض إلى الساحل الأفريقى . وأحاط بالسفينة ضباب كثيف انقشع فجأة ليكشف أن أفريقيا ليست ببعيدة . وخاف البحارة أن تنغرس السفينة فى الأرض فحاولوا أن يغيروا اتجاه السفينة ويستأنفوا رحلتهم فى البحر . ولكن يبدو أنهم ما أن تحركوا بالسفينة حتى مالت على جنبها وبدأ يملأها الماء . وقد ألقيت مراسى السفينة لحفظ توازنها أثناء نزح المياه منها . ولكن جوف السفينة استمر يمتلىء بالماء وسرعان ما اندفعت السفينة الغارقة تحت سطح الماء واستقرت بحمولتها الثمينة فى أعماق البحر .

ما الطمى الذى جعل من استخراج هذه التماثيل عملية شاقة فقد حافظ أيضاً عليها . وبينما ثقبت الأسماك الصدفية التماثيل المرمرية فى « انتيكيثيرا » احتفظت تماثيل « المهدية » بنظافتها وسلامتها . لقد كشف الطمى عن تمثال بعد آخر : عشرات فى مجموعها وكثير منها ذات جمال ملحوظ . وتملأ هذه التماثيل اليوم ست حجرات فى متحف « باردو » فى تونس . وكتب سالومون ريناخ المهتم بالآثار

الهيلينية : « لم يحدث أن توصلنا إلى شيء يمكن مقارنته بهذه الآثار منذ أن اكتشفنا بومبى وهيركولانيوم » . إن كنوز حطام « المهدية » روائع من الفن الإغريقى ، وأن عرضها مرة ثانية من شأنه أن يثرى العالم .

وعلى أية حال . فهذه التماثيل الجميلة كانت مجرد جزء من الكنوز الثمينة التى كانت تحويها السفينة الغارقة . وتعتبر هذه التماثيل أقل هذه الأجزاء أهمية فى نظر كثير من علماء الآثار . وكما كانت الآلة الحسابية الفلكية هى أروع ما كان على سفينة انتيكيثيرا ، فإن أروع آثار « المهدية » هى أقلها لفتاً للأنظار .

إنه لشيء ممتع أن تتأمل التماثيل البرونزية والمرمرية . ولكنها لا تعرفنا إلا بالقليل عن أسلوب الحياة اليومية فى العالم القديم . أما أن نجد أوعية للطبخ ومصابيح ، فهذا يقدم لنا تلك التفاصيل الصغيرة عن الحياة اليومية مما يجعل الماضى أكثر حيوية — وهذا ما حققته الآثار التى وجدت فى « المهدية » .

ولهذا السبب فإن اكتشاف « بومبى » على سبيل المثال كنز أثرى هام . فعندما ثار بركان « فيرسوفيس » دفنت تقريباً بومبى وهيركولانيم ومدن أخرى محيطة بالبركان . وغطتها الحمم البركانية والرماد . وهكذا بقيت هذه المدن كما كانت يوم مماتها . واكتسب علماء الآثار نظرة فاحصة وإدراكاً لما كان يجرى فى الحياة اليومية العادية فى العالم القديم بفضل ما قاموا به من حفريات .

ولهذا فعندما تغرق سفينة بكل حمولتها دون أن يصيبها شيء فهذا أيضاً أمر على نفس الدرجة من الأهمية وإن كان على نطاق أصغر . وهكذا ساعدتنا التفاصيل الصغيرة التى أمكن جمعها من حطام « المهدية » على أن نتعلم شيئاً أكثر عن الماضى المنقرض . إن المصباح ذى الفتيل المتفحم الذى ما زال فى مكانه وأوعية الطبخ والمراسى ، وحتى الحصى — إن كل هذه الأشياء تضيء لنا معالم الطريق فى العالم القديم .

لقد قدم علماء الآثار البيانات الهائلة عن السفينة ذاتها ، لا عن سبب غرقها فحسب ، بل عن المكان الذى جاءت منه ، والمكان الذى كانت متجهة إليه فى الغالب وعن الزمن الذى كانت تبحر فيه . وعند مقارنة طراز الأوانى الخزفية التى وجدت على ظهر السفينة بالأوانى الخزفية المعروفة التاريخ من قبل ، استطاع الخبراء أن يقرروا أن سفينة « المهدية » قد غرقت خلال القرن الأول قبل الميلاد ، أى فى نفس الوقت تقريباً الذى غرقت فيه سفينة « انتيكيثيرا » ، وربما أيضاً من جراء نفس العاصفة . وتبين الألواح اليونانية المنقوشة التى وجدت ضمن هذه الحمولة أن السفينة كانت تبحر بكل تأكيد قادمة من أثينا . ومن الممكن أن تكون حمولتها من التماثيل البرونزية والمرمرية غنائم نهبها من معابد أثينا الجنود الرومانيون الذين غزوا اليونان سنة ٨٦ ق . م ، تحت قيادة سولا مثلها مثل التماثيل التى كانت تحملها سفينة « انتيكيثيرا » .

لقد كانت سفينة « المهدية » محملة أكثر مما تطيق . وكانت تحوى خليطاً من الأعمال الفنية والكتل المرمرية والعواميد التى لم تتم . وكان اللصوص نهبوا كل شىء امتدت إليه أيديهم على أمل أن يميزوا المفيد من غير المفيد فى روما . ولكن السفينة لم تصل روما أبداً ، إذ أن الرياح العاصفة دفعتها بعيداً عن طريقها نحو الساحل الأفريقى .

هكذا تدعمت أسس الافتراض . فإذا كانت السفينة محملة برجال سولا ، فلابد أن يكون اتجاهها روما وليس إفريقيا ، إلا أن أفريقيا فى ذلك الوقت كانت تحت حكم ماريوس عدو سولا . وربما كان هذا هو السبب الذى دفع البحارة ليدوروا بالسفينة بسرعة عندما أدركوا أنهم قريبون من الساحل الإفريقى وفى أثناء دورانها غرقت السفينة المثقلة بحمولتها . وقد انتهت أعمال ميرلين فى ماهديا سنة ١٩١٣ ، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فتوقفت بشكل عام أعمال

التنقيب . وبعد الحرب لم يعد موقع «المهدية» مرغوباً فيه لإجراء استكشافات أخرى على نطاق واسع . ورغم ذلك اتجهت جماعات أصغر وبشكل خاص لتنقب فى حطام السفينة . وحتى اليونانيون عادوا مرة أخرى ليغطسوا بحثا عن الإسفنج . إن البعثات الاستكشافيـة العديدة التى تمت تحت إشراف ميرلين نقلت كل الآثار المرئية التى يمكن نقلها . ولـكن هذا لم يمنع الهواة من علماء الآثار من الذهاب إلى ذلك الموقع .

وفى سـنة ١٩٤٨ ذهبت بعثة جادة أخرى إلى نفس الموقع . ولـكن لقد تغيرت إلى درجة بالغة الأساليب التـكتيـكية لأعمال الـكشف تحت سطح المـاء فى خلال الأربعين سنة التى انقضت منذ بعثة ميرلين الاستكشافية الأولى . فقد اخترعت الرئة المائية ، وأصبح من الممكن الآن للغواصين الذين يسـبحون سباحة حرة أن يفحصوا حطام السفينة . وهكذا أصبحت « المهدية » ميداناً لتمرين الجيل الجديد من علماء آثار ما تحت الماء . ثم تجمعت مجموعة من الغواصـين بالجلد الفرنسيين وهم جاك إيف كوستو وفيليب تاييه وفردريك دوماس ليـكونوا بعد الحرب العالمية الثانية « جماعة أبحاث ما تحت البحر » . لقد قاموا بأعمال إنقاذ فى عدد من الموانى على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطى مستخدمين أجهزة « سكيوبا » للبحث عن حطام السـفن التى غرقت أثناء الحرب . ثم أصبحوا بالتدريج مهتمين بعلم الآثار وقد غمرهم الحماس عندما يعرفوا العدد الهائل من السفن الإغريقية والرومانية الغارقة فى أعماق البحر الأبيض المتوسط .

وفى سنـة ١٩٤٨ كان كوستو وأصدقاءه يغطسون فى شمال أفريقيا ، ويقومون بأعمال الـكشف فى المـاء عند مدينة قرطاجنة القديمة . ورغم أن هذه البعثة لم تصل إلى شيء فقد زارت متحف تونس وعلمت بأعمال ميرلين التى تمت قبل ذلك بعشرات السنين .

وكانوا يقولون لبعضهم البعض « ربما ما زال هناك كنز متبق فى حطام السفينة ـ إن الأمر يستحق القيام بمحاولة » .

وقرأوا تقارير ميرلين فى الفترة من ١٩٠٨ ـ ١٩١٣ واتصلوا بميرلين نفسه ، كان قد كبر فى السن ولكنه استمر فى اهتماماته بعلم الآثار . وعرفوه أنهم سيعودون إلى موقع أبحاثه فى « المهدية » وتمنى الرجل العجوز التوفيق لغطاسى الجلد .

ولم يكن من السهل العثور على الموقع . وكتب الملازم « تافيرا » وهو ضابط بحرى فرنسى كان قد رأس بعثة غطاسى ميرلين تقريراً حدد فيه مكان الموقع ، وذكر تافيرا ثلاثة علامات مميزة : قلعة وشجيرة صغيرة وطاحونة هواء . ووجد كوستو ورفاقه القلعة المحطمة بسهولة . ولكن على حد قول كوستو « لقد نمت غابة حقيقية حول الشجيرة الوحيدة فى خلال الخمسة والثلاثين سنة التى انقضت منذ أن رسم تافيرا هذه الشجيرة . وكان المرشد الأخير فى تحديد المكان هو التغير فى لون خميلة أشجار الزيتون البعيدة الموجودة فى مقدمة طاحونة الهواء . لقد ظللنا ننظر من خلال المنظار حتى تعبت عيوننا ولكننا لم نر طاحونة الهواء . وأبدينا ملاحظات نحقر فيها من عمل تافيرا . وكان قد مات فى ذلك الوقت وهو فى رتبة أميرال بحر . وكنا نتمنى أن يكون تافيرا قد درس فن صناعة خرائط الكنوز على يد روبرت لويس ستفنسون .

وتبعت ذلك محاولة يائسة للبحث عن الطاحونة . وقرر رجال مجموعة أبحاث ما تحت البحر أن ينسوا الملازم تافيرا وتقريره ، وأن يبحثوا عن حطام السفينة وكأنهم لا يملكون أى مرشد يساعدهم فى البحث .

وعاد الغواصون الفرنسيون إلى سفينتهم « إيلى مونييه » ليضعوا خطتهم ، وكل ما كان لديهم من معلومات هو أن حطام السفينة فى مكان قريب يرقد

على عمق ١٢٧ قدماً تحت سطح البحر . وتنقلوا من مكان إلى آخر فى البحر حتى وصلوا إلى العمق المطلوب فى المـاء .

ثم أنزلوا شبكة من أسلاك الصلب تغطى مسافة مساحتها ١٠٠٫٠٠٠ قدم مربع وبذلك أوجدوا شيئـاً شبيهاً بملعب كرة القدم فى أعماق البحر . وسبح الغواصون جيئة وذهاباً على طول الحدود . وقاموا بعملية مسح للأرض . وعلى حد تعبير كوستو « لقد كان فى استطاعتنا أن نجد حتى ساعة سقطت فى هذا المـكان ، إلا أننا لم نعثر فى شبكتنا على ناقلة البضائع الرومانية » .

واستمرت عمليات البحث الدقيق فى أعماق البحر الأبيض المتوسط خمسة أيام . وتوفيراً للجهد كان يتم إنزال الغطاسين من القوارب المرافقة . ومر يوم بعد يوم دون أن يعثروا على حطام السفينة . وفى اليوم السادس كانوا ينقبون على بعد ٢٢٠ ياردة من المـكان الذى حدده تافيرا عندما صعد « تالييه » فجأة إلى السطح ثم خلع مبسم رئته وهتف قائلا : « عامود ! ! لقد عثرت على عامود ! ! » .

لقد كان ذلك حطام السفينة الرومانية أو ما تبقى منها . وكتب تالييه فى كتابه « إلى الأعماق المستورة » يقول : لقـد كان المنظر مثيراً : فـكل ما تبقى من سفينة « المهدية » بعد ألفى سنة مجموعة من الـكتل على مسافات متباعدة ، وعدد من العواميد مرصوصة فى أربع صفوف رئيسية . ورغم الاضطراب الذى سببه الغواصون اليونانيون فقد كان الأثر العام يشير إلى درجة كبيرة إلى سفينة عرضها ٣٦ قدما وطولها ١٢٠ قدما رقدت على المدار الجنوبى الشمالى . وكان من الممـكن رؤية أضلع هيكل السفينة وسطحها وقاعدتها تحت العواميد أو فى المسافات القائمة بينها » .

وفى اليوم التالى هبط كوستو وديماس برئاتهم المائية ، بعد أن قضوا ليلة احتفلوا فيها بالاكتشاف ، وجاس الغطاسان بالجلد خلال الطمى الموجود فى الأعماق ، وفحصوا العواميد الثمانية والخمسين وبقايا السفينة ، وقد كانت ضعف حجم سفينتهم « إيلى مونييه » .

لقد اكتشف الفرنسيون حطام السفينة وهم يعملون فى فرق تضم كل فرقة منها رجلين . ولما كانوا قد قضوا وقتا كبيراً فى مجرد العثور على هذا الحطام فلم يكن لديهم سوى وقت محدود جداً ليقوموا بأعمال الكشف فى الأعماق . لقد استمر كل فريق فى الأعماق خمسة عشر دقيقة فى المرة الواحدة . وكانت إشارة العودة إلى السطح هى إطلاق بعض الأعيرة النارية فى الماء .

ولم تعد التيارات المائية التى كانت تضايق غواصى « ميرلين » أصحاب الخوذ وبدل الغطس تمثل أى مشكلة على الإطلاق للغواصين الجدد الذين يسبحون سباحة حرة بفضل رئاتهم المائية . وانطلقوا فى رشاقة يحفرون بأيديهم تحت العواميد المرمرية دون أن يعوق حركاتهم شىء ، ويزيلون العفن ثم يمررون حمالاتهم ليحملوا فيها حمولة الأعماق من العواميد التى ما أن كانت تصل إلى السطح حتى تزوى وتموت فى لحظات كائنات البحر ذات الألوان الجميلة التى كانت ملتصقة بالمرمر وتخرج العواميد نظيفة حيث يعرضون بياضها للشمس الساخنة . واستخرجوا أربع عواميد كاملة أكبرها يزن أكثر من ثلاثة أطنان بالإضافة إلى بقايا عواميد أخرى ، ومخطافين نسيهما رجال ميرلين وبعض الأوانى الخزفية . وحاولوا أيضاً أن يخرجوا أحد مسامير السفينة وقطعاً من أضلع السفينة المصنوعة من خشب الأرز طولها ياردة كانت ما زالت تحتفظ بطلائها الأصلى .

وفى الفترة الزمنية القصيرة التى كانت متاحة لهم لم يستطع كوستو وزملاؤه

أن يقوموا بدراسة دقيقة للموقع . ولكنهم سجلوا نصراً هاماً فى نفس الوقت ألا وهو أول استخدام رئيسى لاجهزة الرئات المائية فى عمليات الكشف الأثرى . ومنذ ذلك الوقت قام علماء آثار آخرون بالتنقيب فى حطام سفينة ماهديا . ومن الواضح أن حطام السفينة لم تنضب أسرارها . وما زال الطمى عقبة تعوق المنقبين حتى أن الحرية والمرونة الكبيرة التى توفرها أجهزة « سكيوبا » لم تحل مشكلة الطمى إذ أن سحابات من الطمى تعوق عالم الآثار الذى يعمل تحت الماء عن الرؤية وذلك كلما حاول أن يغوص ليفحص الحطام .

ولكن الغواصين يهبطون لفحص هذا الحطام فى كل موسم . إن العمل الذى بدأه ألفريد ميرلين سنة ١٩٠٨ لم ينجز بعد . ويعتقد «الكابتن» كوستو أنه يوجد حمولة لم تمس بعد وكان مكانها فى وسط السفينة . وإنى متأكد أنه فى ذلك الوقت كما فى الوقت الحاضر ، كان البحارة يعيشون فى أعلى مقدمة السفينة وهى الأمكنة الأقل رغبة فى سكناها . وأن هناك ممتلكات شخصية وآلات مدفونة هناك . منها نستطيع أن نعرف أى نوع من الرجال كان بحارة هذه السفينة « الرومانية » .

إن البحر يحتفظ بكنوز أخرى . فبجانب انتيكيثيرا وماهديا يوجد كاب ارتميشن على جزيرة يوبويا فى اليونان .

وقد ظهر أول اكتشاف فى منطقة « كاب ارتميشن » Cape Artemision سنة ١٩٢٥ ، حين ألقى أحد الصيادين ويدعى « إيفانجيلوس ليونيدس » شبكته التى كان يصطاد بها فى الخليج . ولكنه صعق عندما وجد فيها ما يشبه جثة إنسان ـ كانت سوداء ومنتفخة وبدت كما لو كانت جثة سباح غارق . عندئذ رسم ليونيدس المذعور علامة الصليب وتمتم بصلاة على روح الرجل الميت .

ثم نظر بتفحص ونغز الجثة بإصبع حذرة ، وعاد لهدوئه عندما اكتشف أنها ليست جثة بالمرة ولكن تمثالاً برونزياً . فأعلن المختصين بذلك فكافأوه بكرم وأخذوا التمثال إلى المتحف فى أثينا وكان التمثال مغطى بطبقة كثيفة من الأحياء البحرية وقد استغرق تنظيفه ثمانية شهور ـ وهو معروض الآن (باستثناء الحلزونيات التى كانت معلقة به) فى أثينا تحت إسم « إيفيبى أثينا » .

وعندما سمع باقى الصيادين فى منطقة يوبويا عن اكتشاف ليونيدس المحظوظ ، بدأوا يتفحصون بدقة محتويات شباكهم . ولكنهم وقد رأوا أن ليونيدس قد استلم ٣٠٠٠٠٠ر٣٠٠ دراخما ـ وهو مبلغ محترم وقتئذ ـ أحسوا أنه يمكنهم إخفاء مكتشفاتهم عن المسئولين طمعاً فى مزيد من الربح لو باعوها لتجار العاديات .

وبدأت منذ سنة ١٩٢٦ تظهر أجزاء من التماثيل البرونزية فى مياه كاب أرتميشن ، وطاف الصيادون ليبيعوا هذه الأجزاء سراً إلى تجار العاديات . ولكن سرعان ماتنبه علماء الآثار اليونانيون لما يجرى وتدخل رجال البوليس . وتوقفت تجارة القطع الأثرية البرونزية المختلفة .

وتكونت بعثة رسمية تحت رئاسة الأستاذ « جورج كارو » من معهد الآثار الألمانى فى أثينا . وقد خصص « الكسندر بناكس » وهو أحد أنصار الفن فى اليونان ـ مبلغاً من المال لهذه البعثة . وكانت البحرية اليونانية وغواصو الإسفنج من يوبويا هم القائمون فعلاً بعملية الغطس .

وقد لفتت قطعة معينة نظر الأستاذ كارو بشكل خاص ـ وكانت كتلة الذراع الأيسر لما يعتقد أنه لتمثال برونزى هام . وفرح كارو وقال : « يجب أن نجد باقى هذا التمثال » .

ووصل الغواصون إلى عمق ٦٠٠ قدم من الشاطىء وفى تيار قوى . ولم يمض وقت طويل حتى وجدوا التمثال الذى جاءت منه نفس الذراع ، ورفعوه إلى السطح . كان تمثـال زيوس كبير آلهة الإغريق : طوله أكثر من ست أقدام وقد صمم على شكل بطولى وقد ارتفعت ذراع الآلهة . ويعتبر الكثيرون هذا التمثال الفخم من أدق وأجمل ما وجد من التماثيل البرونزية الإغريقية . وليست لدينا تماثيل أقدم من هذا كما تلك التى تضاهيه فى روعته الفنية قليلة . وهو موجود حالياً فى متحف أثينا ، وقد وضعت الحكومة اليونانيـة نسخة منه منذ بضع سنوات فى الردهة الأساسية لمبنى هيئة الأمم المتحدة فى مدينة نيويورك .

ولم يكن زيوس العظيم هو التمثـال الوحيد الذى اكتشفته بعثة الدكتور كارو . فهنـاك آخر يصور حصاناً وراكبه الصغير ، وقسمات وجه الجوكى غير عادية . فبينما كل النحت الإغريقى يمثل النبل والغطرسة ، نجد هذه القطعة الفريدة تصور صبياً ضاحكا مملوءاً بالحيوية والمرح ، لابد أنه كانت له أيام مشهورة مع هذا الحصان .

وقد واجهت دكتور كارو بعض مشاكل الغواصين الذين كانوا يعملون معه فى أعماق أكثر ممـا اعتادوا أن يعملوا فيها . فقد اشترى لهم أحدث ما ظهر من أردية الغطس ، ولـكنهم كانوا يضحكون على إجراءات الأمان التى كان يفرضها عليهم . فقد كان من الخطورة مثلاً أن يخرج بسرعة أحد الغواصين من عمق بعيد إلى السطح ، لأن المفاصل والعضلات والأنسجة الدهنية فى الجسم تمتص النيتروجين تحت ضغط مرتفع ، فإذا عاد الغواص بشكل مفاجىء إلى السطح تحت ضغط منخفض تسرب النيتروجين بسرعة إلى الأوعية الدموية وتجمع على شكل فقاقيع غازية ، وينتج عن ذلك آلام مرعبة غالباً ما يعقبها الموت .

وقد تعلم الغواصون تجنب هذا « البند » ، وهو الإسم الذى أطلق على مرض

التخلخل ـ فيرتفعون فى الماء بخطوات بطيئة متوقفين بين الفينة والفينة ليتسرب النيتروجين الزائد دون أن يكون فقاعات . وقد وضعت جداول للتخلخل مفصلة تظهر للغواص السرعة التى يرتفع بها إلى سطح الماء بأمان . مثال ذلك أن الإنسان الذى يقضى ٢٥ دقيقة فى القاع على عمق مائة قدم يلزمه أربع دقائق للعودة للسطح بمعدل السرعة الآمنة وهو ٢٥ قدم فى الدقيقة . ولكن الإنسان الذى يقضى ساعة فى نفس العمق يلزمه أن يقضى « وقفتى تخلخل » لمدة ١٨ر١٦ دقيقة قبل أن يصل إلى السطح .

ولكم ضحك غواصو كارو الذين عملوا معه لسنين طويلة فى أبعاد ليست عميقة ـ حيث لا يكون امتصاص النيتروجين أى مشكلة ـ عند حديثه لهم عن وقفات التخلخل . وفى محاولة للسخرية من هذه النظرية عمد أحدهم إلى الصعود إلى السطح من عمق ١٤٠ قدم على مرة واحدة سريعة . وصعد على ظهر السفينة وبدأ يضحك أثناء محاولة زملائه نزع القناع ولسان حاله يقول « أترون ؟ لا يجب أن تعيروا اهتماماً لمثل هذه الأشياء » ، وبعد ذلك بلحظة واحدة وقع ميتاً عندما تجمعت فقاقيع النيتروجين وبدأت تسرى فى عروقه .

وبموت الغواص شمل الوجوم جميع المشتركين ، وبدأوا يخافون ويترددون فى النزول للماء . ولما تناقصت المبالغ المحددة للصرف على البعثة وهى فى حاجة إلى معدات لرفع باقى الكنوز قرر كارو وقف العملية .

ومنذ ذلك الوقت . وجد الصيادون تماثيل وأشياء أخرى من المؤكد أنها جاءت من نفس حطام سفينة كاب ارتيميشن . فمثلاً أحضر صياد يدعى سوليتزيس فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ثلاث أوانى قديمة ، وشيئاً آخر ثقيل الوزن كان فى شبكته ثم سقط منه ثانياً فى البحر .

ومما لا شك فيه أنه لا زال يوجد الكثير مما يمكن اكتشافه فى خليج كاب ارتيميشن . وفى استطاعة علماء الآثار المعاصرين المجهزين بالسكيوبا أن يجدوا سهولة فى البحث أكثر من غواصى كارو المجهزين بالأردية فقط . فالجزء الرئيسى من المركب وبه باقى المخلفات الأثرية لم يمس بعد وهناك الكثير من المواقع فى حاجة إلى الاكتشاف – ومع الاسف لا يوجد المكتشفون المؤهلون لذلك – فالغواصون يتنقلون إلى مواقع جديدة بدون استنفاذ المواقع القديمة تماماً . وبدون شك لن يمر وقت طويل حتى تكتشف الكنوز الباقية . وحتى ذلك الوقت « فإن باقى الكنوز محفوظة فى أمان على عمق عشرين قامة فى انتظار يوم أفضل » كما قال الدكتور كارو سنة ١٩٢٨ .

وترقد مئات من المراكب الإغريقية والرومانية فى أمان مشابه على طول قاع البحر الأبيض المتوسط . وسنرى فى الفصول القادمة كيف استخدم الكابتن كوستو وغيره أساليب حديثة تحت الماء لإنقاذ هذه الكنوز – كنوز الماضى .

ومن المستحسن قبل أن نترك قصة علم الآثار تحت الماء فى فترة ما قبل الرئة المائية أن نذكر ما سجل عن آخر لحظات غرق سفينة كانت مشحونة بالتماثيل الإغريقية فى البحر الأبيض المتوسط وقد حدث أن كانت فى نفس الوقت هى اللحظة الأولى لعمليات غطس واسعة لاستعادة أشياء كثيرة منحوتة غارقة .

حدث هذا فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر . فقد زار اليونان كل من توماس بروس وإيرل (أوف) ألجين – السفير البريطانى لدى الإمبراطورية العثمانية – ولاحظا اللوحات المرمرية الرائعة التى تزين معبد البارثينون العظيم فى أثينا ، لقد عانى البارثينون شدائد كثيرة عبر القرون وخصوصاً سنة ١٦٨٧ عندما كاد أن يمحى تماماً عندما أطلقت عليه نيران مدفع وجهت إلى وسط مخزن للبارود أقامه الأتراك هناك أثناء الحرب مع فينيسيا .

ولما كان اليونانيون ثائرين على الأتراك الذين احتلوا أراضيهم منذ زمن بعيد ، فقد خشى لورد الجين أن يقضى على بقايا البارثينون أثناء المعركة . لذلك عمد إلى شراء اللوحات والصفائح والتماثيل فى البارثينون ووقف اليونانيون يشاهدون بحزن ولا حيلة لهم كنوز أثينا الفنية وهى تنقل وتعبأ فى ستة عشر صندوقا كبيراً وتشحن على ظهر « المنتور » وهى سفينة شراعية بصاريتين، ووجهتها إنجلترا .

وكان خط سير المنتور نحو الغرب هو نفس طريق السفينة الرومانية المسلوبة التى سبقتها بحوالى ألفين من السنين والتى غرقت عند أنتيكيثيرا . وفى الليلة الثامنة واجهت المنتور نفس المصير . فعند مرورها بكاب تينارون دفعتها رياح غربية قوية فى اتجاهها . وبدأت المياه تتسرب إلى السفينة . وقرر قبطانها أن يوجهها نحو اليابسة حتى تهدأ العاصفة .

وحاولت المنتور وهى تعبر شمال انتيكيثيرا أن ترسو على شقيقة هذه الجزيرة ألا وهى جزيرة كيثيرا . واقتربت من الشاطىء وحاول البحارة أن يلقوا بالمرساه. ولكنه لم يغرز فى القاع . لقد اصطدمت السفينة بأرض صخرية بارزة وهبطت عمق ستين قدما فى الماء .

حقاً لقد نجا كل من على السفينة ولكن غرقت الحمولة مع المركب وكان بها تماثيل البارتينوم العظيمة التى لم تنقذ من الأتراك إلا لتغرق فى التو تحت الأمواج . وهنا قام سكرتير لورد ألجين ويدعى و . ﻫ . هاميلتون وكان على رأس البعثة بالمهمة المحزنة وهى إبلاغ سيده بالكارثة .

وكتب لورد ألجين فوراً ـ وكان وقتئذ فى أسطنبول ـ يخبر هاملتون أنه يزمع إنقاذ التماثيل . وأمر هاملتون المسكين أن يبقى فى كيثيرا ليحافظ على التماثيل.

المرمرية — والتى لا تقدر بثمن — حتى تصل النجدة التى سيرسلها لورد ألجين لإنقاذ السفينة الغارقة .

وفى نفس الوقت بدأت حرب تحرير اليونان . وأصبحت المنطقة كلها مرتعاً للجواسيس والمؤامرات . وقد عرض ضباط البحرية الروسية مساعدتهم لإنقاذ الحطام أثناء عبورهم ، ولكن هاملتون رفض . وحاول أحد الإيطاليين الذين استأجرهم لورد ألجين ولكنه أيضاً فشل . . . ومرت شهور وهاملتون السيىء الحظ يحملق فى البحر وغالباً كان يلعن ذلك اليوم الذى قرر فيه لورد ألجين شراء هذا المرمر .

وجاء الشتاء وما زال الحطام غارقا تحت البحر ولم يجد لورد ألجين أحداً يقوم بعملية الإنقاذ . . عندئذ قام هاملتون وعلى مسئوليته وأجر بعض الغواصين من جزيرة ساموس .

حدث هذا منذ ١٥٠ عاما بالطبع . . وعلى ذلك سبح الغواصون عراة وبدون مساعدة الأقنعة أو أنابيب التنفس ومع ذلك فقد قام الغواصون الساموسيون بعملهم على أتم وجه . كانوا يغوصون لمدة دقيقتين أو ثلاثة دقائق فى كل مرة . وقد استغرق هذا العمل سنتين . وبدأت الصناديق تخرج من الحطام الواحد تلو الآخر وترفع إلى السطح ثم تركن على الشاطىء حيث تحرس جيداً . وقد علقت التايمز اللندنية على هذا بقولها :

« سيسر عشاق الفن والمعجبون بالآثار الكلاسيكية لسماعهم خبر استعادة هذه المجموعة التى تمت عمليتها بكل دقة وعدل . وسيكون من المؤسف حقاً لو أن هذه التماثيل التى نجت كل هذه السنين الطويلة من جهل وتحامل الأتراك الأغبياء لتفقد مرة أخرى وبسبب آخر فى الوقت الذى كانت تتجه فيه إلى بلد متحضر

قادر ومستعد لتقييم جودتها الفائقة . هؤلاء الفنانون متعطشون لكى يرتفعوا — بدراستها — إلى هذا العلو الشامخ من الجمال والدقة فى النحت وهو الشىء المميز للمجهودات الرفيعة فى النحت عند اليونانيين القدامى » .

لقد أنفق لورد ألجين مبلغاً ضئيلاً لإخراج التماثيل من اليونان ، أما الجزء الأكبر فقد دفعه لاستخراجها من البحر ، ومع ذلك لم تقابله أية متاعب مالية . فقد باع المجموعة بأكملها سنة ١٨١٦ المتحف البريطانى بربح قدره ١٥٠٫٠٠٠ جنيه . ولا زالت التماثيل باقية هناك حتى الآن وبعد ألفين وخمسمائة عام من سوء الاستعمال — رغم الخوف من البلى — ومع ذلك فهى قوية بشكلها الحالى المبتور . واكتسب لورد ألجين شهرة خالدة . لأن المجموعة بأكملها تسمى « بتماثيل ألجين المرمرية » . واليوم واليونانيون يشعرون أنهم قادرين على حماية كنوزهم ، فقد بدأوا يطالبون منذ سنوات بإرجاع تماثيل ألجين المرمرية إلى أثينا . ومع ذلك صم المتحف البريطانى أذنيه . واليوم أصبح على الأجيال المتعاقبة التى هى من صلب اليونانيين المعاصرين لأفلاطون أن تسافر إلى لندن لترى الأمثلة العظيمة لفن أجدادهم .

الفصل الثالث

أقدم التماثيل في العالم

إن التنقيب عن الآثار تحت الماء لا يجرى كله فى البحر فقط ، فهناك أيضاً الكهوف حيث عاش الإنسان وترك وراءه ما يشير إلى وجوده . بعض هذه غمرتها المياه وأصبحت تشكل تحدياً فى مواجهة أكثر المكتشفين جسارة وجرأة الذين يتحتم عليهم أن يشقوا طريقهم فى ظلام دامس وخلال البرك التى ترعش الاوصال ليجدوا كنوز الماضى التى يبحثون عنها .

ويعتبر الفرنسى « نوربرت كاستريت » من أعظم مكتشفى الكهوف فى عصرنا هذا ، وهو ليس بعالم آثار وإنما مكتشف كهوف . قضى حياته كلها منقباً مراراً وتكراراً عن المغارات المظلمة المخيفة تحت الأرض ، ملقياً ضوء الفهم العلمى على هذه الممالك المظلمة .

وتمت أكبر مغامرات كاستريت المثيرة منذ أكثر من أربعين عاما مضت. ولم تكن المخاطرة من أجل الكشف عن الكهوف فحسب ولكن تعدتها إلى ما تحت الماء أيضاً . ففى غمرة من العمل الباهر الشجاع نفذ نوربرت كاستريت إلى كهف تغمره المياه ، واكتشف أقدم التماثيل التى عرفها الإنسان وهى مخلفات أثرية لما قبل التاريخ ترجع إلى عشرين ألفاً من السنين الماضية .

بدأ كاستريت استكشافه قبل الحرب العالمية الأولى عندما كان طالباً فى فرنسا وجاب المغاور والكهوف ، تقوده موجة من حب الاستطلاع كالتى دفعت آخرين على شاكلته .

وقد كتب سنة ١٩٢٤ يقول : « إننى لا أعرف أى شعور أقوى من ذلك الذى يتملك الإنسان والذى يمارسه عند دخوله مغارة لا يعرف شيئاً عن متاهاتها الغامضة المظلمة بينما تتساقط حبات الماء من أعلى فتمزق السكون بآلاف من أغانيها الصغيرة » .

كان أهم ما يشغل باله هو اكتشاف بقايا إنسان ماقبل التاريخ والذى سكن المغارات العديدة فى فرنسا فى الماضى السحيق . وكان على علم بأن رجال الكهوف كانوا يتجنبون المغاور الكبيرة لخوفهم من الظلام والمجهول . وعاشوا فى كهوف صغيرة أو فى مداخل المغاور الكبيرة .

وتسببت الحرب العالمية الأولى فى وقف اكتشافات كاستريت المبكرة للكهوف ، ولكن بانتهاء الحرب استأنف عمله ، فزار الكهوف المشهورة التى تم اكتشافها وتأمل رسومها وانحناءاتها المذهلة التى ترجع إلى ماقبل التاريخ ،ودرس كتابات المؤرخين الذين اكتشفوا هذه الكهوف ، وقام بنفسه باكتشاف بعض الكهوف وكان يحبو خلال الممرات المنخفضة أو يسبح فى مياه أنهار جوفية شديدة البرودة .

ووصل سنة ١٩٢٢ إلى قرية « مونتيسبان » فى البيرينيز . وكانت الكهوف الموجودة فى القرى المجاورة قد أخرجت من بطونها ثروة من النحت ورسومات ما قبل التاريخ . أما المغارة الموجودة فى مونتيسيان فلم يكتشفها أحد من قبل . وقد علم كاستريت أنه من الممكن التوغل فى المغارة فى الجو الجاف إلى بعد خمسة وستين ياردة . أما نهايته فالماء يسده بحيث يصل إلى سطح المغارة . وبدأ كاستريت يتساءل ؟؟ هل يوجد أى شىء فيما وراء الماء ؟؟ .

وأجاب سكان المدينة «لايوجد أى شىء . إن المغارة تنتهى وستغرق نفسك إذا تماديت » .

وكان قدسبقه سنة ١٩١٤ أحد علماء الحفريات الحيوانية والنباتية بالكهوف المشهورين ويدعى الأستاذ جينل وألقى نظرة على كهف مونتيسبان . ودخل الممر والذى يبلغ ارتفاعه إثنى عشر قدما ولكنه توقف عندما وصل الى بركة المياة التى تبدو أنها نهاية الكهف . ولم يكن هناك أى أثر لسكنى الإنسان ، فلم يجد جينل أى مبرر لكى يواصل سيره .

أما كاستريت فقدصمم بعناد أن يدخل إلى الكهف بأى شكل.فليس ببعيدعن هذا المكان وجدالأستاذ م . كونت بوجوين تماثيل رائعة لما قبل التاريخ فى كهف توك دادوبرب . وفى ١٨ أغسطس ١٩٢٢ لبس كاستريت رداء البحر ودخل الكهف حاملاً شمعة .

وكان عليه أن ينزلق داخل ثقب لا يتسع لأكثر من جسمه فوجد نفسه فى دهليز طويل يبلغ اتساعه إثنى عشر قدما وكان ارتفاعة فى بعض الأحيان لا يزيد عن بوصات فوق رأسه .ويجرى جدول ضحل من الماء الباردفىقاع الكهف . وعندما توغل إلى مسافة ١٢٥ قدما انحرف الدهليز بزاوية قائمة وانخفض السطح لدرجة اضطرته أن ينحنى كثيراً ليتمكن من السير وبعد ستون قدما أخرىوجد كاستريت أن الماء أصبح عميقاً حتى تقابل سطح الكهف مع سطح جدول الماء الجوفى . وفى هذا المكان تراجع الأستاذ جينل ولكن كاستريتلم يتراجع .

فقد كتب يقول « عند الوصول إلى هذه البقعة الغير المشجعة دفعتنى ذكريات الاكتشافات السابقة — وعلى الأخص تلك التى وجدت فى توك دودوبرك — لا إلى أن أترك الكهف فى الحال وهو الشىء الطبيعى فى مثل هذه الظروف — ولكن إلى أن أفكر .

ودرس الموقف — فكانت كل الجدران المحيطة به مصنوعة من الحجر الجيرى

القابل للتآكل بسهولة بواسطة المياه الجارية ، فمن المحتمل جداً أن يوجد جدول ماء جوفى يجرى داخل الجبل الذى يحتوى على الكهف ، وأن يكون هذا الجرف بجدوله الواسع ماهو إلا مخرج ذلك النهر الجوفى .

وكانت لدى كاستريت فكرة أخرى . فهو يعلم أن الإنسان إذا سكن مثل هذه الكهوف منذ ألفين أو أكثر من السنين ، فإن جو هذا الجزء من أوروبا لابد وأنه كان يختلف عما هو عليه الآن . لابد وأن الجو كان حاد البرودة والجفاف شبيها بجو البرايخ الحالية . ثم تساءل كاستريت « ماذا لو أن مجرى النهر كان جافا فى زمن إنسان الكهف ؟ والجواب أن الإنسان كان سيستطيع أن يسكن فى غرف الكهف من آلاف السنين ، وربما ارتفع الماء فيها بعد أن هجرها إنسان الكهف .

وكتب كاستريت « لقد قلبت هذه الأفكار والافتراضات غير المؤكدة التى تغرى أى مؤرخ لما قبل التاريخ ، ثم صممت على أن أتوغل فى مسالك الجبل والمجارى تحت المائية التى لم يمكن الوصول إليها بعد .

كنت أدرك أنها فكرة طائشة ، فأمامنا الكثير من أنواع المخاطر . فقد تكون القناة المنبثقة فى الجبل مستمرة إلى مئات من الياردات ، أو ربما أسبح فى جيب مسدود ، أو قد أفقد طريق عودتى فى الظلام قبل أن تنقطع أنفاسى ، أو قد أقع فى ورطة فى مفارق الطرق ، أو قد أغرس فى الرمال المتحركة أو أفقد طريقى فى حجرات الكهف المظلمة .

لقد وضع كاستريت كل هذه الاحتمالات فى اعتباره ، وقرر أن يخوض التجربة مهما كانت ، ثم وضع الشمعة فى بروز ناتىء فى الكهف بكل حرص ثم ملأ رئتيه بالهواء — ولما كان سباحاً قوياً ، كان فى إمكانه أن يبقى تحت الماء

لمدة دقيقتين . وفى غمرة السكون التام والوحدة قفز إلى الماء ماداً إحدى يديه أمامه لتحميه من الصخور التى تعترض طريقه ، بينما الأخرى تتحسس سقف الكهف .

وبدأ يتحرك إلى الأمام ببطء وهو يتحسس ماحوله ، محاولاً أن يتذكر الأشكال التى يراها حتى يمكنه أن يشق طريقه عند العودة فى الظلام . وبدا له للحظة أنه لن يخرج أبداً إلى الهواء ، ولكن ــ لدهشته وفرحته ــ خرج من الماء ليجد نفسه يتنفس الهواء المنعش مرة ثانية . لقد اخترق السرداب المغمور بالمياه الذى كان عقبة فى طريق الآخرين .

ولكنه بالطبع لم ير شيئاً بالمرة فما كان منه إلا أن أخذ نفساً طويلاً وقفز ثانية إلى الماء عائداً إلى المغارة الخارجية حيث ترك شمعته : فقد ثبت أن المغارة تمتد داخل الجبل . ولكن هل سكن إنسان ماقبل التاريخ هذا المكان ؟ لا بد له من ضوء ليكتشف هذه الحقيقة .

وعاد كاستريت بمفرده فى اليوم التالى إلى المغارة مرة ثانية وحمل معه هذه المرة غطاء رأس من المطاط به كبريت ونصف دستة من الشمع ، لأنه لم يثق فى البطاريات الكهربائية التى كانت موجودة وقتئذ ، وفضل مصدر الضوء البدائى . وأغلق غطاء الرأس بإحكام حتى تبقى محتوياته الثمينة جافة ، ثم دلف إلى المغارة وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر . والمرة الثانية سبح خلال القناة المغمورة بالماء .

وخرج سالماً مرة أخرى من الجانب البعيد . وكان واقفا فى الماء مغموراً حتى ذقنه فأخرج بحذر شمعة جافة من غطاء رأسه وأشعلها . وعلى ضوء الشمعة الخافت المتراقص رأى الكهف يمتد أمامه على مسافة بعيدة ، وكان لا يفصل سطح المغارة اللزج عن سطح جدول الماء إلا طبقة رفيعة من الهواء . وبدأ كاستريت يسبح فى الظلام حاملاً الشمعة بيد وغطاء الرأس باليد الأخرى .

وبعد أن توغل أربعمائة قدم أمكنـه أن يلمس القاع الطيني البـارد اللزج . وبعد ذلك بلحظة خرج لشاطىء طيني هو مدخل لغرفة كبيرة . وبدأ يسير على أطراف قدميه وهو يرتعد من السباحة فى الماء المثلج . وكان السقف على ارتفاع ٣٠ قدماً فوق رأسه ، وقد سقطت كتل كبيرة من الحجارة من السقف . ولما كان الجـدول فى ذلك المـكان ضحلاً فقد اختفى تحت كتل الصخر المستديرة الـكبيرة . ووجد الهواء النقى منفذاً له داخل هذه الحجرة من مكان ما بأعلاها . وتصاعدت على مر السنين بلورات من الصخر الستلاجميت ذات المنظر الأخاذ من الأرضية الرطبة . ومع ذلك لم يجد أى أثر يثبت أن الإنسـان قد سكن هذا المـكان الفخم من قبل . وعبر كاستريت بكل شجاعة إلى الداخل ، ووجد مجرى الجدول الضيق واستمر حتى كان على بعد ستمائة قدم داخل الـكهف . وقد كتب يقول « لم أمر أبداً بمثل هذه التجربة من الشـعور بالعزلة والقهر والخوف الذى يخيم على هذا المكان من تحت الأرض ، وأن أى حدث تافه (مثل بلل الثقاب) قد يؤدى إلى نهاية محققة » .

وترك كاستريت البهو الـكبير ، ودار حول عامود ضخم قائم فى مجرى الجدول وجد أن سقف الـكهف قد التقى بالماء . لقد سد سرداب آخر مملوء بالمياه طريقه ومن يدرى مقدار طوله ؟

بعد أن وصل كاستريت إلى هذه النقطة لم يجد أى رغبة فى الرجوع ، مع أن المياه كانت عميقة والسرداب تحف به « الستالـكتاتيت المدبب الأسود » ، وأخذ نفساً عميقاً وغاص تحت الماء ، وسبح لمدة خيلت له أن لا نهاية لهـا ، فقد كان السرداب أطول من سابقه . وخرج من الماء ــ بعد أن كادت رئتاه تنفجران ــ إلى مكان تفصله مسافة ضئيلة من الهواء عن السقف .

وها قد أصبح معزولاً عن العالم الخارجى بسردابين مغمورين بالماء حتى السقف . كتب يقول : « كانت الوحدة بشعة وقاومت بشدة الميل إلى الكآبة الذى بدأ يسرى ببطء إلى نفسى . وللحظة فكرت فى التراجع ، ولكن من حسن الحظ أن هذا المكان لم يكن مشجعاً بالمرة لأى تفكير ، ووجدت نفسى مندفعاً بعامل البرد وإدراك الموقف إلى التقدم بنفس درجة التفكير فى التقهقر » .

لقد كان الرواق الذى وجد نفسه فيه منخفضاً جداً لدرجة أنه اضطر أن يحبو على يديه وقدميه ، والماء يتساقط رذاذاً من السقف ليطفىء الشمعة مراراً وتكراراً ، والجدران الصلبة تعترضه فى عشرات الأماكن . وأخيراً وصل إلى بهو كبير آخر أكبر من البهو الأول . وهنا أيضاً تساقطت من السقف الأحجار الكبيرة المستديرة مما يشير إلى حدوث التواءات فى سطح الأرض فى الأزمنة السابقة . وتوقف كاستريت لحظة فى هذا البهو وبدأ يتراقص ليس تيهاً وعجباً وإنما لكى تجرى الدماء فى أطرافه التى جمدها البرد ، وتساءل عن مدى امتداد هذا الكهف ؟ ربما أميال ؟ هل ستكفيه الشموع حتى رحلة العودة ؟ أم أن الإثارة وحب الاستطلاع سيحملانه إلى النقطة التى لا عودة منها ؟ .

وتسلق كاستريت زاحفاً على الصخور الكبيرة الموجودة فى البهو الكبير . وللمرة الثانية دخل إلى الرواق الضيق الممتلىء بالماء ، واعتقد لعشرات المرات أنه وصل إلى نهاية الكهف ، وإنما ليجد نفسه فى كل مرة فى قسم آخر يقع خلف عامود ضخم .. وتقدم وهو غارق فى الماء حتى رقبته حينا أو سائراً حيناً آخر على يديه وقدميه على جزء بارز من الطمى أو الحصى تاركاً آثار أقدامه وراءه كلما أمكن كعلامة طريق فى رحلة عودته .

وضاق الكهف كثيراً لدرجة أن سد الطريق أمامه . ولم يتمكن كاستريت

إلا من إدخال رأسه وذراع واحدة من الفتحة . وأتى بنظرة فاكتشف جدولاً من الماء تعلوه فروع أشجار عائمة . وفجأة وجد ضفادع ، وأطلق كاستريت صرخة الانتصار فهو يدرك أن الضفادع لا تعيش فى أعماق الكهوف تحت الأرض . وعلى ذلك فلابد أنه قد وصل إلى نهاية الطريق . ولا شك أن ضفادع هذا الجدول على بعد عدة ياردات من السطح فى نهاية الجبل من الناحية الأخرى . وقد اتضح فيما بعد أن تخمينه كان سليماً .

واستدار كاستريت ليعود . وعندئذ واجهته المهمة الشاقة – وهى أن يجد طريقه إلى مدخل الكهف . وبين الفينة والفينة كانت تساوره لحظات من الشك : أى طريق يسلك ؟ ولكنه خرج أخيراً سالماً . وكان أطول السردابين قد سبب له متاعب جمة أثناء عبوره ، لأنه غطس بزاوية حادة مما جعله يضل مخرجه ، وكان عليه أن يعيد الكرة حتى ينفذ خارجاً منه .

وكان يحق لكاستريت أن يشعر بالزهو برحلته التى قام بها خلال خمس ساعات ، قطع فيها ميلين داخل الكهف الرطب وذلك لسببين : أولاً فقد اكتشف كهفاً لم يكتشفه أحد من قبل ، وهذا يدخل السرور إلى قلب كل عالم للكهوف . وثانياً أنه أثناء سيره فى المغارة التقط سن حيوان – وهو بيسون(١) ما قبل التاريخ ، ويسمى باللغة اللاتينية بوسر بريميجينيوس . والمعروف أن البيسون لا يتجول داخل الكهوف من تلقاء نفسه . ومن الواضح أن إنسان ما قبل التاريخ قد قتل البيسون وسحب جثته إلى الكهف لالتهامه . وكان هذا السن دليلاً ضعيفاً على سكنى الإنسان لهذا الكهف . ومع ذلك فقد أشعل خيال كاستريت .

---

(١) البيسون Bison : حيوان أمريكى شبيه بالثور .

وفى الأيام التالية قام كاستريت باكتشاف المغارة عدة مرات وقد وجد أبهاء وممرات لم يلاحظها فى الرحلة الأولى . ولكنه لم يجد أى أثر آخر لإنسان ما قبل التاريخ . ثم فاضت الأمطار بغزارة ملأت المغارة تماماً ، وأجبرت كاستريت على التوقف ذلك العام .

وكان الصيف التالى من أجف الفصول التى مرت بفرنسا منذ سنين عديدة . وعاد كاستريت إلى مونتسبان فى أغسطس ١٩٢٣ ، يصاحبه زميله هنرى جودين . وتسبب الجفاف فى انخفاض مستوى الماء فى الكهف ، حتى أصبح من السهل أن يخوضا خلال أول السردابين المغمورين بينما ظلت الشموع موقدة . وعبرا البهو الكبير الأول ، وبدلاً من أن يغوصا فى السرداب المغمور الثانى ، فقد اكتشفا هذه المرة رواقا جديداً جافاً إلى يسار الجدول الذى اكتشفه كاستريت فى سنة ١٩٢٢ .

وكان طول الرواق الجديد ٦٥٠ قدماً ، وعرضه ١٦ قدماً ، وارتفاعه ١٣ قدما . وكان منظره كما كتب كاستريت « يشبه القصص الخرافية » فالجدران يغطيها حجر الجير المتبلور الستلاكتيت المتألق . وتتكون الأرضية من ألواح من حجر الجير الأصفر اللامع ذات أطراف مروحية الشكل ، ترتفع كل منها لتكون حوضا من الماء . ولكن جمال الروائى السحرى انتهى فجأة . ودارا حول ركن ليجدا نفسيهما فى ممر مظلم كئيب وتحت أقدامهما أرض طينية . وهبط السقف تدريجياً حتى اضطرا فى المائة قدم الأخيرة أن يزحفا على بطنيهما على الأرض الباردة . ونفذا إلى حجرة أخرى كبيرة . وقرر كاستريت أن يحفر فى هذا المكان باحثا عن أى آثار فنية ممكنة لما قبل التاريخ . ورفع المعول الصغير الذى أحضره وحفر فى الطين البارد اللزج .

وكان بعد كل ضربة ينتزع الطين بأصابعه . وفجأة ، وبينما هو ينظف المعول ،

أحس بجسم صلب مدفون فى الطين . «أدركت أننى أحمل أحد تلك الشظايا من حجر الصوان التى قد يضحك عليها أى إنسان عادى ، ولكنها تدخل السرور إلى قلب أى عالم آثار» .

كانت قطعة من الحجر الخام لا شكل لها تقريباً . ولكن مما لا شك فيه أن يد إنسان قديم قد شكلتها . وناول كاستريت المعول لجودين وطلب منه أن يستمر فى الحفر بينما دار هو فى أنحاء الرواق باحثاً عن علامات أخرى لوجود الإنسان .

أدرك كاستريت أن هذا الرواق الشديد الغور فى الجبل لا يمكن أن يكون محلاً للسكنى . فإنسان الكهف لا يحب السكنى بعيداً عن الضوء ، ولكنه استخدم الكهوف العميقة المنيعة للشعائر الدينية . ولقد وجدت معظم رسوم الكهوف العظيمة والتماثيل فى أعمق مكان من المغارة .

وبعد إشعال الضوء جاس كاستريت خلال الكهف ، وتوقف فجأة . فعلى الضوء الضعيف رأى ما لا يمكن تكذيبه : رأى تمثالاً من الطين لدب رابض فى مواجهة مدخل المغارة ، ويبلغ طوله ثلاثة وأربعين قدما وارتفاعه أربع وعشرين بوصة ، مقاما على قاعدة ومتخذاً فى وقفته شكل أبى الهول المصرى . كان بلا رأس ، وتغطى كل جسمه الرسوب الكلسية مما يؤكد أن النحات قد أنهى عمله دون أن يشكل الرأس . وكانت كفوف الدب مطوية ما عدا كف القدم اليمنى الأمامية فكانت ممتدة ومخالبها الخمسة واضحة تماماً . وبين خفيه الأماميين رقد رأس دب صغير مغطى بالحجر الجيرى . وتظهر على التمثال الطينى آثار قذف ما لا يقل عن ثلاثين حربة . ويبدو كما لو أن التمثال كان مغطى بجلد دب حقيقى وأن صيادى الأزمنة القديمة قد قاموا ببعض طقوسهم الدينية التى تتطلب قذف التمثال الطينى بحرابهم . وكتب كاستريت يقول « إنى لأتصور تلك

الحفلات التى أقيمت فى باطن تلك الصخور وكأنها الكابوس الثقيل » .

وقطع الرجلان الكهف بحثاً ـ بأنفاس لاهثة ـ عن مزيد من آثار ماقبل التاريخ ووجدا الكثير منها . أشار كاستريت إلى أشكال جياد بارزة وتمثالين كبيرين من الطين لنمر أو أسد . وعدد من الرسوم المنحوتة على الجدار . « وعلى كل الجوانب كانت تقفز أمام أعيننا نقوش حيوانات ورسوم وعلامات غريبة » . كذا كانت الضبوع والماعز البرية وحيوان الشامواه والأيل والبيزون والماموث والجياد والحمير الوحشية كلها مرسومة على شكل نقوش منحوتة على الصخر أطلق عليها كاستريت « المهارة والواقعية المذهلة » . وبلغ عدد الصور فى مجموعها خمسون ، بالإضافة إلى ثلاثين تمثالاً من الطين بعضها شديد التلف من الماء المتساقط .

وواصل المكتشفان سيرهما إلى الرواق الثانى ووجدا سن حصان وهيكلاً عظميا لثعبان صغير ، وآثار أقدام دب الكهوف على حجر الجير اللين ، وكثيراً من النقوش على الجدران بينها رسم لحصانين فى حالة حمل ، وعلى ظهر أحدهما نقشت يد بشرية مفرودة الأصابع كما لو أنها ترمز إلى « سيادة الإنسان على عالم الحيوان » ، وفوق الحصانين نحتت رأس ماعز برية . كما شاهدا رسماً جانبياً لرأس إنسان غريب ـــ ذى أنف حادة وعينين واسعتين مفتوحتين مستديرتين وبدون أهداب ولحية قصيرة ـــ وتحيط بهذه الرأس علامات تشبه الإسفين ، اعتقد كاستريت أنها تشبه الكتابة المسمارية التى عرفت عن أرض الجزيرة القديمة بالعراق ((فيرديوتاميا) .

وعلى مسافة أبعد ، وجد كاستريت وجودين آثار أقدام بشرية على الطين وقطع من حجر الصوان المنحوت وبصمات الأيدى التى حفرت الطين لتصنع التماثيل . وأظهرت علامات مخالب الحيوان أنها كانت تحجز فى الكهف أيضا ربما لتشترك فى بعض التضحيات الدموية . وعند أحد منحنيات الرواق أقبلا على ثلاثة تماثيل

كبيرة لأسد أو نمر يزيد طول الواحد منها على خمسة أقدام ، ولكنها بليت تماماً من القدم . وعلى الجدار القريب من هذه المجموعة رسم ماموث ، وبجانبه أدوات أخرى من حجر الصوان وأجزاء من العظام المصقولة.وفى مكان آخر من الكهف وجد كاستريت عظام جياد وبيزون ودب وحيوان الرنة مدفونة فى الأرض ، ومعها بقايا بشرية بما فيها عظام الكوع .

حقاً لقد كان متحفاً للتاريخ القديم . وكتب كاستريت « لن أنسى أبداً الرهبة التى شعرت بها عندما وقع نظرى لأول مرة على هذه الآثار التى لم يمسها إنسان بعد مائتى قرن من العزلة . مثل هـذه التجربة تعوض لك فى لحظة واحدة كل المتاعب والمخاطر والصعوبات التى لا حد لها والتى تجابه أولئك الذين يسلبون من التاريخ أسراره » .

وقد دلت دراسة فن مونتسبان على أن هذا المكان كان معبداً مقدساً ، وهو أحد الكهوف المقدسة التى كان سحرة قبائل الصيد فى عصر استئناس الآيل يقومون فيه بطقوسهم السحرية .

وخرج كاستريت وجودين يترنحان وقد بهرتهما الأشياء العجيبة التى اكتشفاها . وسرعان ما أخبرا عدداً من كبار الخبراء المتخصصين فى عصور ماقبل التاريخ لتقييم هذه الآثار ثم اشترك أخو كاستريت وأصدقاء آخرون فى عملية توسيع مخرج الكهف . وقد زاد هذا من جريان الماء فى الجدول وخفض من مستوى الماء حتى أصبح من الممكن الوصول إلى رواق ماقبل التاريخ بدون تقليد كاستريت فى عمليات غطسة الجريئة فى الماء . وأعلن عن رواق مونتسبان ضمن الآثار الوطنية وأصبحت محتوياته اليوم تضاهى أهم الآثار التى وجدت لإنسان ما قبل التاريخ .

ولوأن نوربرت كاستريت قام باكتشافاته لكهف مونتسبان بعدذلك الوقت

بثلاثين عاماً لتضاءلت فرص بطولته ، لأنه كان سيصبح فى مقدوره حينئذ استخدام أجهزة الغطس بالجلد بدلاً من قوة رئتيه القويتين ليسبح خلال السراديب المغمورين بالماء ، ولقلت كثيراً حينئذ المخاطر التى تعرض لها . ذلك أنه لم توجد أجهزة الغطس بالجلد سنة ١٩٢٢ بالطبع ، وكان من المحال أن يلبس كاستريت رداء الغطس فى مثل هذه الأروقة الضيقة . ولكن ربما حتى ولو كان لدى كاستريت رئة مائية يحملها على ظهره لرفض استعمالها . وفى سنة ١٩٥٤ اشترك كاستريت — وقد بلغ من العمر ثمانية وخمسين عاما — فى بعثة انجليزية — فرنسية مشتركة لاكتشاف كهف آخر فى « البرينية » بجبال البرانس حيث سدت الأروقة الغارقة فى الماء الطريق مرة ثانية . واستعمل عشرة من الإثنى عشر عضواً من أعضاء البعثة أجهزة الغطس بالجلد ، أما كاستريت فلم يستعملها . واتضح أن السراديب المغمورة بالمياه لا نهاية لها واستسلمت كل البعثة بما فيها حاملوا الرئات المائية للفشل .

وكانت للسكيوبا قيمة كبرى كجهاز حديث فى الكشف عن الكهوف رغم عزوف كاستريت عنها . وكانت جماعة الكشف عن الكهوف البريطانية التى تأسست سنة ١٩٤٦ من أنشط التنظيمات فى الغطس فى الكهوف . وكانت هذه المجموعة من علماء الآثار الهواة — التى تمضى عطلة نهاية الأسبوع والأجازات فى الغطس — تفضل استعمال أجهزة التنفس بالأكسجين عن الرئات المائية المعروفة .

ويتعرض أولئك الذين يتنفسون الأكسيجين للخطورة على عمق أكثر من ثلاثين قدماً . ولكن من مميزاتهم أنهم يكونون أخف مما لو حملوا أجهزة الهواء المضغوط وهذا ينفع فى ممرات الكهوف الضيقة .

وذهب جزء من جماعة الغطس فى الكهوف البريطانية إلى سومرسنشير لاكتشاف مغارة يطلق عليها روكى هول كانت مسكونة منذ مئات السنين . وقد

وجد الغواصون الذين كانوا يلبسون أردية الغطس العادية — قبل اكتشاف السكيوبا — قطعاً من الأوانى ترجع إلى ألفين أو ألفين وخمسمائة من السنين فى هذا الكهف. أما جماعة الكشف عن الكهوف البريطانية باستعمالها طريقة التنقيب فى الشواطىء الرملية بالكهوف باستخدام شفاطات الماء فقد وجدت أوان يرجع تاريخها إلى الاحتلال الرومانى لبريطانيا، وكذا جماجم بشرية وأوانى زجاجية تعود إلى القرن السابع عشر. وقد دخلت هذه المجموعة الماهرة من الغواصين عشرات من الكهوف المغمورة تحت الأرض فى بريطانيا العظمى. وقد ساعد نشاطهم علماء الآثار فى كشف الغطاء عن أسرار تاريخ جزيرتهم. فبجانب العنصر الرياضى الذى يجذب الغواصين، نجد أيضاً القيمة الأثرية لعملهم. وعندما سئل أحد غواصى الكهوف من البريطانيين ويدعى روبرت. أ. دافيز عما يغرى بعض الناس ليخاطروا بحياتهم فى المغاور المظلمة الشديدة البرودة، أجاب « إنها بالنسبة للانسان الذى لادافع له رياضة خطيرة غير مريحة ولكن تنتج عنها بعض المكتشفات الخاصة بعلم الآثار، كما يستكشف الكثير من الحقائق العلمية التى يجب كشفها. وذلك هو الدافع إلى الاكتشاف تماماً كما يحدث فى تسلق الجبال ».

وقد قاد « الدافع إلى الاكتشاف » الكثيرين نحو الكهوف فى جميع أنحاء العالم. وفى أغلب الأحيان كانت محاولاتهم تنتهى بمآسى، ذلك أن كل مكتشف للكهوف ليس سعيد الحظ أو على مهارة نوربرت كاستريت فى تجنب الأخطار. وحتى فريق كاستو — دوماس — تايبز الشهير، وهم من أمهر وأقدر الغواصين بالجلد، صادفتهم المصاعب أثناء الغطس فى كهف غير أثرى فى فوكلوز بفرنسا، وكادوا يفقدون حياتهم.

ومع ذلك يوجد كثيرون من المغامرين الذين يبحثون عن الكهوف،

ويدخلونها أحياناً لمجرد المتعة الرياضية وأحياناً أخرى بأمل العثور على كنوز ماقبل التاريخ • لقد سكن الإنسان فى الـكهوف منذ بدء الخليقة. ولا شك أن كثيراً من الـكهوف التى لم تـكتشف بعد تحتوى على آثار المـاضى. وقد تم اكتشاف أعظم المقتنيات الأثرية فى الـكهوف الجـافة ، وأبرزها فى العصر الحديث الـكتابة على القراطيس الملفوفة ، فى البحر الأسود — وقد أمدتنا بمعلومات قيمة جديدة عن العصر البابلى . كذا أمدت الـكهوف الجافة فى منغوليا والصين علم الآثار بالـكثير من المعلومات القيمة .

ولم يكتشف بعد عدد كبير من الـكهوف لأن المياه تسد مداخلها . ولم يجرؤ أحد على المخاطرة بدخول هذه المخابىء المظلمة المملوءة بالمـاء ، حيث أن نتائجها غير مؤكدة فى حين أن مخاطرها كبيرة . أما اليوم ، فقد أدت أجهزة الغطس بالجلد إلى تقليل المخاطر وبدت ضخامة المـكاسب — بالنسبة لقيمتها الأثرية — بعد الأعمال المجيدة التى فتح طريقها نوربرت كاستريت فى سنة ١٩٢٢ .

الفصل الرابع

خمور ماركوس سيستيوس

فى حوالى سنة ٢٣٠ قبل الميلاد غادرت إحدى السفن ميناء جزيرة ديلوس اليونانية ، وهى مسقط رأس أبولو ، متجهة إلى الغرب . كانت السفينة ضخمة ، وظهرها المغطى بطبقات من الرصاص قادر على حمل أطنان من البضاعة ، وفى وسطها سارية كبيرة تحمل شراعاً من جلود الثيران .

كانت السفينة ملكاً لتاجر يونانى يدعى « ماركوس سيستيوس » ، ترك روما ليعيش فى اليونان يتاجر ببواخره . وفى سنة ٢٤٠ قبل الميلاد اعتبر مواطن شرف لجزيرة ديلوس ، التى كانت من أهم موانىء البحر الأبيض المتوسط . وكانت له فيللا جميلة فى الحى الذى يسكنه تجار روما .

كانت شحنة سفينة ماركوس سيستيوس الكبيرة هى الخمور ـ خمور من اليونان لتباع فى مستعمرة ماسيليا اليونانية ، التى أصبحت الآن مدينة مارسيليا الفرنسية . ويعتبر تصدير الخمور اليوم إلى فرنسا مثل تصدير الفحم إلى نيوكاسل حيث أن أحسن أنواع الخمور تأتى من فرنسا . ولكن صناعة الخمور فى فرنسا كانت لا زالت فى بدايتها منذ ٢٢٠٠ سنة . وكان المستعمرون الإغريق فى ماسيليا يستوردون الخمور من أرض آبائهم ، على درجة كبيرة من الغنى ومغرمون بالخمور ، ويدفعون مبالغ طيبة فى سبيل الحصول عليها ، حتى بلغ ثمن جرة من الخمر ما يساوى ثمن العبد فى ماسيليا .

وجرة الخمر هى المكيال المعيارى . وهى عبارة عن إناء كبير منتفخ من أسفل

مصنوع من الطين يسع حوالى ست جالونات ونصف . وكانت الجرار تستخدم في شحن الزيت والحبوب والبلح والزيتون والأصباغ والمواد الخام وأى شىء يمكن تخزينه فى الجرة بسهولة ، كما كانت فى الغالب تستخدم لشحن الخمور فى السفن . وتزن الواحدة منها وهى مملوءة بالخمر حوالى مائة رطل .

وكانت حمولة السفينة تقدر بعدد الجرار التى تحملها لا بالأطنان . وعرفت باخرة ماركوس سيستيوس الكبيرة بأنها تحمل ١٠٫٠٠٠ جرة . وكانت هذه الجرار تخزن تحت الجزء الرئيسى من سطح السفينة عند إبحارها من ديلوس حتى يمكن شراء بضائع أخرى أثناء الطريق .

وأبحرت سفينة ماركوس سيستيوس غرباً بين جزائر اليونان المتقاربة بحيث لا تغيب الأرض عن أعين البحارة لمدة طويلة . ثم تركت الجزائر الصديقة وتوغلت فى غمار بحر أيونيان الواسع ، حيث تغيب الأرض تماماً عن الأنظار لمدة أسابيع . وعبرت سفينة الشحن بحر أيونيان بسلام واتجهت إلى مضيق ميسينا الذى يفصل إيطاليا عن صقلية . وقاد الربان سفينة الخمور دون أن تمس بين صخور صقلية المخيفة ودوامات الكاريبى التى وصفها هومر فى « الأوديسة » على أنها زوج من الحيوانات المخيفة المفترسة .

وسارت السفينة إلى شاطىء إيطاليا مارة بنابولى ، ثم رست على ميناء فى خليج جيتا ، حيث توجد مستعمرة إغريقية تصدر منها أوان فخارية بكميات كبيرة . وقد اشترى التجار كمية كبيرة من الأطباق المطلية بالسواد ، وكذا الأوانى لحملها إلى ميسيليا . ووضعت هذه الشحنة الجديدة أسفل السفينة مع جرار الخمر الإغريقى . ثم اشتروا خمراً أحمر يصنع بالقرب من روما ورصوا الجرار الرومانية الرفيعة على بعد ثلاثة أعماق من ظهر السفينة الرئيسى . وما أن شحنت البضاعة الجديدة على ظهر

السفينة ، حتى بدأت جوانبها تزمجر ، وأصبحت مقدمة السفينة ملامسة لسطح الماء بشكل خطير . وربما لاحظ ذلك بعض البحارة وتمتموا ببعض اللعنات ، إذ أن أصحاب السفن الجشعين يملأون مراكبهم حتى درجة الخطر . ولابد وأن البحارة كانوا يقولون « إننا نحمل أكثر مما يجب ، لماذا لا يتعقلون ؟ » .

وسواء كانت ممتلئة عن آخرها أم لا — فقد توجهت السفينة غرباً — وبدأت المتاعب ومسيليا على مرأى العين . فربما هبت عاصفة مفاجئة أو اصطدمت السفينة بجزء بارز من الصخر ولكن مهما كان السبب ، فقد بدأت السفينة تتلاطم فى مكان يعرف الآن باسم جراند كونجلويه ، على مسافة من ساحل البحر الأبيض المتوسط . وانجرفت السفينة الكبيرة تحت الأمواج ، وقد غاص قاع السفينة أولاً فى حين اتجه مقدمها شرقاً فى اتجاه اليونان . وتهشمت مقدمة السفينة وما عليها من قمرة الضباط على صخرة بارزة فى جراند كونجلويه أثناء غرقها . ومالت بزاوية ركزت بمقدمتها على الصخرة على عمق ١١٢ قدماً ومؤخرها على عمق ١٤٠ قدماً — وفى أثناء غوصها اشتبك الهلب مع جزء بارز من الصخر على بعد ٦٥ قدماً من السطح وبقى هناك .

أى حزن عم ديلوس عندما علم ماركوس سيستيوس بغرق سفينته فى البحر ! أى حداد وجذب الشعر ! وكم من الأسنان الرومانية صرت ولكن بدون جدوى ! ولم تكن الآلهة رحيمة بماركوس سيستيوس ، ففى يوم واحد ضاعت كل ثروته .

وجالت الحيوانات البحرية فى السفينة الغارقة ، وهاجمتها الديدان ، ولكنها لم تتمكن من قضم الخشب بسبب طبقات الرصاص العميقة التى كانت تعلوه بسمك ستة عشر بوصة — ولكن فيما بعد عندما تفكك الغطاء الرصاصى ، وعندما بدأت المسامير النحاسية تتحلل من أماكنها ، بدأت الديدان وليمتها .

وجاء الإسفنج وجاءت قنافذ البحر لتعيش على الحطام الذى سرعان ما غطته طبقات من الوحل والرواسب الطينية التى نتجت من تفتت من جدران الصخور الحجرية المحيطة به . واتخذ الأخطبوط من الجرار المكسورة مأوى له . وبدأ الحطام يختفى تحت الغلاف المكون من الطين والكائنات البحرية .

ومع ازدياد وزن الغلاف الخارجى بدأ ظهر السفينة يهوى تحت ضغط شحنته الثقيلة . وبمضى القرون بدأ يتهاوى ظهر السفينة وهيكلها ، وبدأت الشحنة تتملص من قبضة السفينة ، وانفجرت الجرار الإغريقية والصحاف الإيطالية من أحد جوانب السفينة ، وانسابت إلى الأعماق تحت ضغط شحنته الثقيلة .

وبعد انقضاء ما يقرب من خمسة عشر قرناً على غرق السفينة ، أفلتت أحجار كبيرة من جران كونجلاويه وسقطت فى المياه . وقد رسى ثلاثون حجراً ، وكان أكبرها يزن إثنى عشر طناً ، عند أنقاض السفينة الغارقة . وقد خفف الماء من تأثير التصادم الذى حدث عندما رست هذه الأحجار . وهذا ما جعل تفادى تحطيم أى آنية من الأوانى ممكناً . وساعدت هذه الأحجار على إخفاء أنقاض السفينة الغارقة بعيداً عن الأنظار . ونتج عن ذلك أنه لم يكن ثمة شىء يرى سوى رابية طينية كبيرة الحجم فى قاع البحر على شكل تل يغطى منطقة تبلغ مساحتها عشرة آلاف قدم مربع . وتناثرت هنا وهناك أوان قليلة العدد ، وبضع شظايا من صحاف مكسورة اتخذت طريقها بين طبقات الطين .

وهكذا ظلت خمور ماركوس سيستيوس مختفية فى قاع البحر ، وبقيت آلاف من جرار الخمر — أعرق خمر فى العالم — مدفونة وقد تراكم فوقها ما تجمع من طين ومحار طيلة ألفين من السنين .

ثم كان أول من اصطدم بأنقاض سفينة ماركوس سيستيوس المحملة بالخمور

وهو غواص حر يستعين بالرئة المائية ويسمى « كريستيانينى » . كان كريستيانينى يحصل على رزقه من التنقل هنا وهناك تحت الماء بعيداً عن مرسيليا ، لكى يلتقط قطعاً من المعدن الخردة مما يمكن بيعه على الشاطىء . وذات يوم مكث كريستيانينى طويلا تحت الماء ، ثم خرج من الماء مسرعاً ودار على عقبيه — لقد شلت ساقاه عند الركبتين .

وحمل إلى مركز جماعة الأبحاث تحت الماء التابعة للأسطول الفرنسى فى طولون لإسعافه وعلاجه .

وهناك ، وضع الأطباء الغواص المنكود فى حجرة من الصلب لكى تكون مماثلة للضغط تحت الماء . وببطء زادوا الضغط داخلها — بينما كانت فقاقيع النيتروجين تخرج من جسمه . واستطاع الرجل أن يعيش وإن بترت أصابع قدميه ، وقضى ستة أشهر فى مستشفى طولون . وكان فردريك دوماس من بين من زاروه فى المستشفى ، وكان عضواً فى « جماعة البحث عن الآثار تحت الماء » وزميلاً للكابتن جاك ايف كوستو . وشعر الغواص الكسيح — وهو يعانى من الوحدة — شعر بامتنان كبير لشركة دوماس ، حتى أنه قال له فى يوم من الأيام « هل تعلم يا دوماس أننا نحن الغواصين لا نبوح بأسرارنا قط — ولكننى عاجز عن النزول إلى البحر مرة أخرى — ولذا فأريد أن أبوح إليك بهذه الأسرار » .

وهذه « الأسرار » التى أراد كريستيانينى أن يفشيها كان أغلبها يدور حول جراد البحر ، إذ يبدو أن مستعمرة من جراد البحر العملاق قد استوطنت بجانب الصخرة فى أسفل جران كونجلويه . واعتقد كريستيانينى أن فى إمكان غواص سعيد الحظ أن يجمع ثروة طيبة من جمع هذا الجراد فى شبكته ..

وسأله دوماس « وكيف أستطيع الحصول عليه ؟ » .

« هذا أمر سهل . فهناك منحنى حجرى طبيعى على عمق مائة قدم بعيداً عن اللسان الغربى للجزيرة . هناك مكان ستجد فيه كمية كبيرة من الجرار القديمة تبرز من بين الطين . عليك فقط أن تتابع طريقك إلى أعلى فترى جراد البحر » .

لم تكن لدوماس رغبة خاصة فى كسب المال عن طريق صيد الجراد — ولكن ماذا عن الجرار القديمة التى تبرز من الطين ؟ ألا يمكن أن تكون أوانى أثرية ؟ ربما !

فالأوانى تعنى غرق سفينة ، ومن ثم فقد تحمل معها كشفاً أثرياً ضخماً . وقد سبق لدوماس فى عمليات غوص كثيرة سابقة مع كوستو وتاياييه أن وجد أوانى فى قاع البحر ، وكانت فى أغلب الأحيان علامة على سفينة غارقة . ويبدو أن سفن البحر الإغريقية والرومانية كانت تصادف قدراً كبيراً من سوء الحظ فى القرون التى سبقت ميلاد المسيح .

إذن لابد من تنظيم حملة بأية كيفية : فاستخدم كوستو ورفاقه سفينة الأبحاث الخاصة بهم « الكاليبسو » ، ووضعوا فى صيف ١٩٥٢ خطة للكشف عن سفينة غارقة عرف أنها موجودة على بعد من جزيرة « مير » المهجورة الواقعة فى البحر بالقرب من مرسيليا . وقرروا إلقاء نظرة على المنطقة القريبة من جران كونجلويه القريبة منهم ، ليروا ماذا إذا كانت « الجرار » التى تحدث عنها كريستيانينى موجودة بالفعل .

فاتجهوا إلى جران كونجلويه فى أغسطس عام ١٩٥٢ ، وكان الأستاذ « فرناند بنوا » رئيس متحف الآثار بمرسيليا يقف جنباً إلى جنب على ظهر السفينة مع الغواصين لكى يقدم رأيه كخبير فى أى شىء يمكن اكتشافه . ورست السفينة كاليبسو بعيداً عن جران كونجلويه على مسافة عشرة أميال من الشاطىء ، على صخرة طولها خمسمائة قدم وعرضها ٣٢٥ قدماً .

وارتدى دوماس الرئة المائية ثم نزل إلى قاع البحر ، ولم يواجه أية مشقة فى تحديد موضع منحنى الحجر الجيرى الذى تحدث عنه كريستيانينى . ولكنه لم يجد لا الأوانى ولا جرار البحر — فهل كانت مجرد خيالات اختلقها خيال رجل مريض ؟

ونزل كوستو إلى البحر ، وقد عزم على السباحة نحو الجنوب حول اللسان . وتوغل فى أعماق البحر حتى وصل إلى عمق ٢٢٠ قدماً ، ولكنه لم يجد أى أثر لأنقاض سفينة غارقة ، ثم قفل راجعاً مرة أخرى حول اللسان وبينما بدأ يستسلم لخيبة الأمل والانفعال ، صادف فجأة جرة واحدة على عمق مائتى قدم تحت البحر .

وبطبيعة الحال فإن جرة واحدة لا تعنى أنقاض سفينة غارقة ، إذ ربما سقطت من على ظهر سفينة أثناء هياج البحر منذ عشرين قرناً . وثبت كوستو الآنية فى الرمال كعلامة طريق . وبدأ فى الصعود فقد مكث تحت البحر لفترة طويلة على عمق كبير ، ولا يستطيع البقاء على عمق مائتى قدم أكثر من ذلك . وفى طريقه إلى سطح البحر تعثر بأنقاض السفينة الغارقة على عمق مائة وأربعين قدماً . . . ورأى جرار كريستيانينى — عشرات من الجرار تمد رقابها من خلال الطين ، وصحاف منثورة حول المكان . ولم يكن لديه أى وقت لكشفه ، فقد كان من الخطورة بمكان أن يبقى كثيراً تحت الماء عند هذا العمق ، واختطف بسرعة ثلاثة أقداح للخمر وخطافاً برونزياً أكله الصدأ ، ثم واصل طريقه إلى السطح .

وصعق الأستاذ بنوا عندما رأى الأقداح التى سلمها له كوستو ، وتعرف عليها فى الحال . فهى أقداح إيطالية يرجع تاريخها إلى الفترة من ٢٠٠ — ٤٠٠ قبل الميلاد إذ سبق له أن حفر عن الكثير من الأقداح التى تشبهها تماماً فى المجموعة الإغريقية القديمة فى بروفنس ..

وتبخرت كل الأفكار التى كانت تدور حول الكشف عن أنقاض السفينة

الغارقة فى جزيرة «ميد» — فقد وجدوا هنا شيئاً ذا أهمية كبرى — ويرى الأستاذ بنوا أن هذه الأنقاض هى لأقدم سفينة شحن تم اكتشافها حتى وقتنا هذا

وساد جو مثير على ظهر الكاليبسو خلال الأيام التالية ، وكان على ظهرها فرقة من خمسة عشر غواصاً ، فاستمر صعود ونزول أفرادها بصورة مستمرة ، وهم يحملون الجرار الفخارية القديمة ، وامتلأ الكاليبسو بمئات من الصحاف والجرار ، وأخلى كل ما كان فيها فوق الرابية ، وبدأ الغوصون يحفرون طبقات الطين ، ولكنه كان جامداً كالأسمنت ، ولا يمكن شد الأشياء المدفونة فيه بالأيدى المجردة إذ تتكسر الجرات عند محاولة تخليصها عنوة ..

ثم تضاعفت المتاعب ببدء « المنزل فى ذلك العام مبكراً شهرين : «والمنزل» عاصفة هوجاء جافة تهب على مرسايا وطولون فى الخريف ، ولكنها فى عام ١٩٥٢ بدأت فى أغسطس ، فغيرت الريح المياه ، وأخذت الكاليبسو تتمايل فى الماء متعلقة بحبالها ومع ذلك لم يهتم الغطاسون على عمق ١٤٠ قدماً بالعاصفة على السطح ، وإن كان من الممكن انقلاب سلة مملوءة بالجرات الأثرية فى البحر عند تمايل السفينة من جراء العاصفة كما أنه كان من الممكن أن تتهشم السفينة بموجة عاتية ، نظراً لتثبيتها فى الصخر ..

فبنى مهندسو الجيش رصيفاً على الشاطىء لحماية السفينة استخدم كقاعدة لهذه العمليات ونقلوا إليه كافة الأجهزة والماكينات ، وبنوا منزلاً صغيراً ليكون مركزاً للحملة ..

واستخدم المنقبون لنزع الطين الذى يغطى سفينة الشحن مضخة شافطة كبيرة مثبتة على سارية خشبية طولها ٨٥ قدماً ومثبتة على الجزيرة ، وكان الهواء المضغوط يشفط الطين المتجمد ، بالاضافة إلى الجرات وقطع الخزف ، وينقلها للسطح ، حيث

تفصل الجرات عن الطين ومياه البحر بواسطة شبكة كبيرة بسرعة ١٢ جالون في الدقيقة ، وبمراقبة اثنين من علماء الآثار للكشف عما تخرجه المضخة من أشياء ثمينة ..

ومن الطبيعي أن المضخة حطمت بعض الجرات ، وكان الغطاسون يشغلون المضخة على عمق ١٤٠ قدم ويوجهون فتحتها نحو مجموعة من الصحون والجرات التي تسد أحيانا فتحة المضخة فيضطرون لتكسيرها بشاكوش . ونظرا لأنه لايمكن البقاء على عمق ١٤٠ قدم تحت الماء فترة طويلة ، لم يمكن العناية في تنظيف المضخة وبالتالي فإن تحطيم عشرات من الجرات لايمثل خسارة كبيرة بالنسبة لحمولة السفينة التي تبلغ ١٥ الف قطعة من الخزف على الأقل .

ولم ينكر الكابتن كوستو أن تحطيم قطعة أثرية هامة خسارة كبيرة ، إذ لم يستخلص من الأعماق إلا جرة واحدة تحوى نبيذا وعشرين جرة أخرى مسدودة بغطاء داخلي مغطى بالملاط ، إلا أنها جميعاً فيما عدا واحدة منها فقط كانت مثقوبة عند العنق . ويبدو أن البحارة كانوا يشربونها سرا ، ويعتقد الكابتن كوستو أن هذا ربما كان سبب غرق السفينة . ولكن جرة واحدة فقط كانت سليمة بمحتوياتها . ونظرا لأن أعضاء الحملة كانوا يعتقدون في ذلك الوقت أنهم سيعثرون على كثير من الجرات المملوءة فإنه من الممكن فتح واحدة منها وبالفعل نزعوا غطاء الجرة وصبوا لترا من النبيذ وملأ كوستو وفرديناند لاليماند كأسين لنفسيهما ورفعاها ليشربانها . وسرعان مابصق لاليماند النبيذ على ظهر السفينة أما كوستو فقد تمكن نظرا لقوته من ابتلاعه رغم أنها لم تكن تجربة سارة — وقد كتب كوستو يقول « لقد تذوقت بذلك كل ما في عالمنا من عفونة وقدم . لقد تحلل هذا النبيذ الإغريقي وان كان غير مالح المذاق . وفي الشهور التالية وبعد آلاف من الغطسات لم نجد جرة أخرى تحوى بقايا نبيذ وقد لاتكون هناك جرة أخرى . وكان الواجب تسليم الجرة الأثرية

دون نزع غطائها فى صندوق مفرغ الهواء إلى أحد المعامل حيث يمكن للاخصائيين تحليل هذا النبيذ البالغ قدمه ٢٢٠٠ سنة تحليلاً دقيقاً .

واستمر الغطاسون رغم ازدياد عنف العواصف فى الخريف . وتعلم كوستو من خبرته إنه يمكن للغطاس أن يكمل دورة فى مدة ١٧ دقيقة فى القاع دون الحاجة للتوقف لتخفيف الضغط خلال صعوده للسطح. وهكذا كان يكمل كل غطاس دورة طولها ١٧ دقيقة ، ثم تطلق رصاصة إشارة إلى ضرورة صعوده للسطح ، بالإضافة إلى ٥ أو ٦ دقائق أخرى تستغرقها عملية الصعود بسرعة ٢٥ قدماً فى الدقيقة ، وهى مستوى السرعة المأمونة . ويسمح للغطاس بدورتين أو ثلاث فقط فى اليوم ، لأن العمل فى الظلام على عمق ١٤٠ قدم وفى درجة حرارة ٥٢ يتعب العقل والجسم .

وقد استرعى نظرهم جميعاً مالاحظوه من أن كل الجرات التى فقدت أغطيتها قد غدت مملوءة بالحصى والمحار البحرى وقطع الخزف المكسور . فاذا ما عزى دخول هذه القطع فى الجرات الملقاة على جانبها إلى حركة الماء ، فكيف يفسر وجودها أيضاً فى الجرات المنتصبة التى يصعب دخول قطع الخزف فيها ؟

وسرعان ماانكشف هذا السر عند ملاحظة أن كل الجرار التى وصلت للسطح تقريباً كانت تحوى أخطبوطاً ، واكتشف أن الأخطبوط ذا الأرجل العديدة قد اتخذ من هذه الجرات مسكناً له ، وسحب معه أعداداً من الحصى والخزف ليسد بها أبواب مسكنه .

كذلك شفطت المضخة أشياء متعددة: سكاكين من البرونز ، وخواتم ، وخطاطيف ، وصحون ، وقدر ، ثقالة سنانير . وأغلبها أحدث من حطام السفينة فقدها الصيادون عبر القرون عند اصطيادهم بالقرب من الكونجولا العظيم . وكلما

تعمق الغطاسون فى حفر طبقات الطين التى تغطى حطام السفينة كلما وجدوا خزفاً إيطالياً يحمل بقايا طلائه الأصلى . وقد ذكر عالم الآثار لاليماند أنه يأمل أن يسعده الحظ بالعثور على بضع صحون سليمة لم يبل طلاؤها . وسرعان ما أجابه ديماس ذو النكتة الحاضرة إلى طلبه فغطى إحدى القدر القديمة بورنيش أحذية أسود ، وأضافها إلى مجموعة الخزف التى يكشف عليها لاليماند . وعند رؤية القدر السوداء اللامع صاح لاليماند بسرور : « لقد وجدتها ، ولكن سرعان ما انقلب سروره خيبة أمل عندما تلوثت يديه بالورنيش . وتحققت أمنية لاليماند بعد ذلك ، عندما وجد الغطاسون فى الطبقات الدنيا من حطام السفينة الآلاف من الصحون الإيطالية السوداء لم يؤثر الزمن فى طلائها اللامع .

ثم كادت مأساة أن تنهى الرحلة فى شهرها السادس ، إذ استأجر كوستو غطاسين جديدين لهما خبرة كافية فى الغطس تحت الماء — وفى أحد أيام نوفمبر تحركت بعد عاصفة شديدة إحدى العوامات الرئيسية التى تعلم المكان بمسافة ٥٠٠ ياردة عن مكانها ، وتطوع أحد الغطاسين الجدد ويدعى بيير سرفانتى للنزول ومعرفة ماجرى .

ورجع سرفانتى بعد فترة طويلة قائلاً إن سلسلة العوامة قد انكسرت تحت الماء واختفى الخطاف ، بينما انسحبت السلسلة فى الماء تاركة أثراً ، واقترح سرفانتى متابعة هذا الأثر حتى يجد الخطاف المفقود .

وقد وافق كوستو على نزول سرفانتى مرة أخرى ولكنه حذره قائلاً « خذ حذرك ، إنها مياه عميقة وقد لاتجد الخطاف من غطسة واحدة » . ثم أعطاه عوامة صغيرة ليأخذها معه ، ليتركها كعلامة عندما يشعر بالتعب ، فيمكن لغطاس آخر البحث عن الخطاف عند هذه النقطة التى وصل إليها سرفانتى .

وغطس سرفاتى فى الماء ، ولكنه لم يعد بعد ١٠ دقائق ، ولاحظ المراقبون أن فقاعات جهاز التنفس لم تعد تظهر عند السطح . وبسرعة لبس واحد من أحسن الغطاسين ويدعى ألبرت فالكو جهاز التنفس ونزل إلى الماء حيث وجد سرفاتى فاقداً الوعى أبيض الوجه على عمق ٢٢٠ قدماً . وقام فالكو واثنين من الغطاسين بسحب سرفاتى للسطح حيث وضع فى غرفة الطوارىء بالسفينة ، بينما أسرعت الكاليبسو نحو مارسيليا. وبعد خمس ساعات من التنفس الصناعى فى غرفة الطوارىء الكبيرة بمستشفى مارسيليا مات سرفاتى فى الليل ، إذ كانت غيبوبته تحت الماء مميتة .

وساد الحزن الحملة وفكر كوستو فى وقف الرحلة ، ولكن ريمون لتنزى صديق سرفاتى طالب بمتابعة العمل ، فقرروا الاستمرار ، ووجد كوستو بنفسه الخطاف الذى كلف سرفاتى حياته .

وفى ديسمبر هدمت الريح العالية رصيف العمل المبنى على الكونجولا العظيمة ، وألقت بالكثير من أنابيب الهواء وأجهزة التنفس فى البحر . ولكن الرجال عملوا طول الليل وتمكنوا من إنقاذ المضخة والسارية التى يبلغ طولها ٢٥ قدما ، ثم تمكنوا بعد ذلك من تحديد مكان الأشياء التى سقطت فى الماء . وكان لا بد من بناء رصيف جديد ومركز للحملة ، فبنوا منزلاً صغيراً من الصفيح الأصفر به سراير لثمان أشخاص وشرفة من الحجر زينها الغطاسون بالجرات الأثرية وبقيت الحملة فى هذا المنزل طوال الشتاء تجمع الجرات والصحون الأثرية بطريقة روتينية مملة . ومر عيد الميلاد ، وحلت ليلة رأس السنة بعد أربعة شهور من العمل ، واقترح أحد الغطاسين مازحاً فى أحد حفلات ليلة رأس السنة أن يستخرجوا من الماء أول جرة فى عام ١٩٥٣ ، فأعجب الجميع بالفكرة . وعند منتصف الليل تحدت مجموعة من الغطاسين برودة الشتاء القارسة ونزلت نحو حطام السفينة لاستخراج الجرة المطلوبة .

وانتهى فصل الشتاء وأدفأت أشعة الشمس الـكونجولا العظيمة ، وازدهرت أزهار الربيع على الصخور العالية ، وخرجت التماسيح تتشمس على السطح ، ومع ذلك استمر الغطاسون فى عمليات الغطس حتى وصل عدد الجرات الأثرية التى الى ١٠٠٠ — ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ جرة . وفى ١٥ مايو ١٩٥٣ وصل الغطاسون إلى قاعدة السفينة الخشبية ، وعرفوا من حجمها أن السفينة الغارقة أكبر كثيراً مما كانوا يتعودون ، وأنه من الممكن أن يصل عدد الجرات إلى الآلاف العديدة ، وكلما استمر الحفر كلما تمكنوا من استنتاج تاريخ السفينة من طريقة ترتيب حمولتها ومن أنواع الجرات التى عثر عليها .

وكان الغطاسون يحبون تدبير مقالب لعلماء الآثار . وكان لاليماند يعتقد أن حطام السفينة قد يحوى عملات قديمة . ولذا فقد وضع الغطاسون الأشقياء عملات حديثة من الألمونيوم فى أنبوبة الشفط لإثارة دهشة لاليماند الذى كان يراقب ما تخرجه الأنبوبة على الشاطىء .

ومرة أخرى أرسلوا أخطبوطاً حياً صغيراً خلال الأنبوبة ليخرج عند قدمى عالم الآثار . وكانت تسلية الغطاسين المفضلة هى إدعاؤهم بإطفاء سيجارة فى أحد الصحون الأثرية لمشاهدة أثر ذلك على وجه أقرب عالم آثار .

ووجد الغطاسون عند حفرهم فى الطرف الغربى لحطام السفينة صحوناً من الرخام مسودة من الدخان ، وقد تكون أدوات طهى البحارة . ووجدوا أيضاً ماسورة من الرصاص طولها عشرات من الأقدام وقطرها ٣ بوصات بها ثقوب للوصلات ، وقد تكون على حد قول علماء الآثار جزءاً من جهاز لتوصيل المياه فى جناح قائد السفينة .

واكتشف خلال الربيع خطاف السفينة الذى انفصل عنها عند الغرق فى صخرة على عمق ٦٥ قدماً ، وقد تآكلت أجزاء الخطاف الخشبية ولكن بقى عمود الرصاص وقاعدته وتمكن علماء الآثار من إعادة بناء هيكله الأصلى ، فوجدوا أنه بينما يثقل الخطاف الحديث عند القاع ، فان هذا الخطاف القديم يثقل عند الرأس . وكما يشرح الكابتن كوستو « إن هذا ضرورى نظراً لأن القدماء لم يكونوا يستخدمون سلاسل حديدية بل يثبتون الخطاف بالحبال فمن الممكن أن تفك الريح العقد التى تربطه بالخطاف ، إذ لم يثبت عند رأسه . وتعقد السلاسل الحديثة عقدة مزدوجة حتى فى حالة الضغط الثقيل ليكون الضغط على الخطاف عموديا ، وبذلك فليس هناك ضرورة للثقل عند الرأس . »

وقد سبب إنقاذ أجزاء السفينة الخشبية مشاكل عدة للغطاسين . فقد كانت ألواح الخشب المصنوعة بمهارة من أشجار الصنوبر والأرز والبلوط تبدو فى حالة جيدة عند الكشف عليها فى القاع ، ولكنها سرعان ما تتفتت عند اللمس ، فقد أكلت منها ديدان البحر عبر ألفين من السنين وشقت لها سراديب ، وأصبح رفع قطعة كبيرة من هذا الخشب عملية معقدة لأن الخشب عندما يصل إلى السطح ويجف ، ينكمش إلى حوالى ثلث حجمه الأصلى .

وكثيراً ما ضاعت فى الأيام الأولى لعلم الآثار أشياء هامة بهذه الطريقة ، نظراً لعدم معرفة علماء الآثار بكيفية المحافظة عليها . وتجد إشارة إلى ذلك فى سجل لعمليات الكشف الأثرى خلال القرن التاسع عشر فى مصر وآسيا الوسطى جاء فيه : « وجدنا قدرة جميلة من النحاس (أو قطعة من الخشب أو البرونز) ولكنها تفتتت عند تعرضها للهواء » . ويستخدم علماء الآثار حالياً الوسائل الكيميائية للمحافظة على الأشياء الضعيفة فتستخدم البلاستيك وغيره فى المحافظة على الأشياء

التى قد تتفتت بعد فترة قصيرة من اكتشافها ويمكن أحياناً استخدام هذه المواد الحافظة برشها بسرعة ولكن كثيراً ما يستدعى ذلك استخدام اليد والفرشة . وبالإضافة إلى القدر والجرات الإغريقية كثيراً ما أخرج الغطاسون الألاف من المسامير النحاسية المغطاه بالرصاص — وأدوات حديدية — وقطع من غطاء ظهر السفينة المصنوع من الرصاص عرفت علماء الآثار طرق بناء السفن فى القرن الثالث قبل الميلاد . وأظهرت أيضاً حقيقة أخرى بخصوص أصناف الصحون والقدر والحلل المكتشفة والتى يزيد عددها عن ٤٠ صنفا لكل منها نموذجه الخاص وكانت مختومة بعلامات متشابهة عند جوانبها مما يعنى أن صناعة الخزف كانت على النطاق الواسع ولم تكن حرفة بدوية . وكانت طريقة تعبئة الصحون حديثة تدل على الخبرة — إذ أنه بينما تحللت صناديق التعبئة الخشبية ظلت بقية الصحون مرتبة فى شكلها الأصلى حيث كانت مرصوصة بالتبادل وبزاوية قائمة بينما رصت الصحون الصغيرة داخل الصحون الكبيرة .

وليس للخزف المكتشف فى سفينة ماركوس سيستيوس قيمة فنية كبيرة — إذ أنه خزف بسيط رخيص خال من الرسوم الرشيقة أو الدقيقة ، ولكن مجرد اكتشاف مخزن لهذا النوع من الخزف فى حالته الأصلية تقريباً له أهمية بالغة بالنسبة لعلماء الآثار الذين يعيدون رسم التفاصيل الدقيقة للحياة فى الماضى .

وقد صادفت حملة الكاليبسو نفس الصعوبة التى صادفت فى الماضى علماء الآثار فى عمليات الكشف تحت الماء . فقد كان عدد الغطاسين من علماء الآثار صغيراً ، كما كان عدد علماء الآثار من الغطاسين قليلاً أيضاً . وإذا ما كان كوستو ورفاقه قد تعلموا بالخبرة الكثير عن علم الآثار إلا أنهم لم يكونوا فى الواقع أكاديميين — ونتيجة للجهل أو الإهمال كانت هناك دائماً إمكانية تحطيم أثر

هام قد يبدو تافهاً بالنسبة لهم ولكنه بالغ الأهمية بالنسبة لعالم آخر . ولا يمكن لعلماء الآثار على بعد ١٤٠ قدم فوق حطام السفينة من ارتداء أجهزة التنفس لمراقبة عمليات التنقيب بأنفسهم كما يفعل دائما علماء الآثار على الأرض .

ولكن التكنيك الحديث تغلب على هذه المشكلة فاستخدم التلفزيون ليشاهد علماء الآثار على السطح مكان حطام السفينة الفعلى . وكان كوستو قد تدرب منذ خمس سنوات فى ١٩٤٨ على استخدام التلفزيون تحت الماء . ولكن أجهزة التلفزيون فى ذلك الوقت كانت قاصرة عن تأدية غرضها إلا أنه قد بذل مجهود كبير اليوم لتوفير الأجهزة اللازمة لمثل هذه الحملة الهامة .

وقد وافقت شركة طوسون هستون الإلكترونية على إعارة كاميرات تليفزيونية وكابلات وخبراء فنيين . وصمم المهندس الفرنسى الدكتور بيير دراتز عدسة خاصة ذات زوايا متسعة للعمل تحت الماء بينما بنى أندريه لابيان قمرة محكمة للكاميرا ، ركب فيها مكبراً للصوت يتصل بمكروفون فى غرفة المراقبة على ظهر الكاليبسو لتمكين علماء الآثار من الاتصال بالغطاسين .

ويبلغ وزن الكاميرا وقمرتها ٢٠٠ رطل فوق الأرض ، ولكن الهواء الموجود داخل القمرة يجعلها تطفو ، فتصبح عديمة الوزن تحت الماء ، كما تطفو أيضاً الكابلات التى تصل السفينة بالكاميرا فيخف وزنها . وقد أدار الكاميرا فى التجربة الأولى غطاس يدعى إيف جيرو وأنزلها لعمق ٦٥ قدماً ، فنقلت لزملائه على السطح صوراً للسمك ولقاع البحر ، وقد نجحت الكاميرا نجاحاً كبيراً .

ثم انتقلوا سريعاً إلى « كونجولا العظيم » وحمل غطاس آخر يدعى جان دلماس الكاميرا إلى نفس عمق السفينة الغارقة وهو ١٤٠ قدماً وأدار المصابيح الكهربائية القوية التى يتكلف الواحد منها ٩٠ دولاراً ولا تصلح إلا لمدة ساعة واحدة ونظراً لشدة حرارة هذه المصابيح فهى لا تستخدم إلا تحت الماء إذ أنها تنصهر وتنفجر على الأرض فى نصف دقيقة .

ونزل دلماس فى الماء ورأى المراقبون على السفينة الصخور والمراوح البحريه وعندما وصل إلى عمق ١٠٠ قدم صاح أحد المهندسين فى ميكروفون غرفة المراقبة « صحح عدستك يا دلماس « وصحح دلماس عدسته فاتضحت الصورة ورأى المشاهدون جسم الغطاس ريمون كنزى وهو يشغل أنبوبة المضخة فى مكان حطام السفينة .

ويسأل أحدهم « نريد أن نرى هذا الطبق الذى تقف بجواره » فيحمل كنزى الطبق ويعرضه للكاميرا ثم حمل دلماس الكاميرا إلى عمق ٦٥ قدم ليقدم لعلماء الآثار أول صورة للخطاف المعقد .

ويفيد التليفزيون كلاً من الغطاسين وعلماء الآثار إذ يشعر الغطاسون بالطمأنينة لأن هناك عيناً تسهر على مراقبتهم ، وتقدم لهم المساعدة السريعة عند حدوث أى صعوبات فى قاع البحر ومن الناحية الأخرى فهى تمكن علماء الآثار وهم يجلسون فى غرفتهم الدافئة من أن يروا بأعينهم مكان السفينة ، ويوجهون كافة مراحل التنقيب بكفاءة تفوق الكفاءة التى يقدمونها عند وجودهم مع الغطاس فى القاع .

واستمر المزاح بين الغطاسين وعلماء الآثار . فقال جوربان الغطاس مازحاً

لعالم الآثار لاليماند « نحن الغطاسين لا نفهم لماذا نعرض حياتنا للموت فى البحث عن هذه الجرات لتخفونها — فى متحف ما — ولذلك سنحتفظ بأحسنها ونبيعه بثمن مرتفع . وكم تدفع يا لاليماند ثمناً لزهرية أغريقية كبيرة مزينة بالرسومات الجميلة ؟ » .

فعندما نزل جوريا للقاع أرسل له لاليماند زجاجة تحوى فاتورة بدولار وسرعان ما يرد عليه جوربان عند تحريكه الكاميرا ليشاهد لاليماند الصورة . فظهرت على الشاشة مجموعة من الصحون ، وعلى كل صحن منها بطاقة تحمل السعر ثم ظهر جوربان مقلداً تعبيرات الدلالين ليزايد لاليماند على الصحون . فيضحك لاليماند قائلاً « إن الثمن مرتفع للغاية » وحينئذ أمسك جوربان بشاكوش كبير كما لو كان ينوى تكسير الصحون ، بينما ضاعف لاليماند السعر ضاحكاً .

وكثيراً ما أثارت أجهزة التلفزيون دهشة الغطاسين ، وقد حمل أحدهم مرة الكاميرا عند نزوله للقاع دون أن يعرف أنها مزودة بمكبر للصوت ، فكان فى كل مرة يسمع فيها كلام واحد ممن على ظهر السفينة كان يترك الكاميرا ويصعد مسرعاً للسطح معتقداً أن الضغط قد أصابه بالدوار ، ولكنه سرعان ما كان يكتشف مصدر الصوت ، فيعود لأخذ الكاميرا .

وقد استخرج من حطام السفينة آلاف من الجرات الإغريقية بالإضافة إلى أعداد وفيرة من الصحون الإيطالية . وبينما كان يعمل الغطاسون فى تفريغ حمولة السفينة ويحملونها إلى السطح ، كان علماء الآثار يحاولون الكشف عن تاريخ السفينة .

ولم تكن بالسفينة أية هيا كل بشرية أو وثائق عن الرحلة التى كانت تقوم

بها ، ولـكن علماء الآثار وجدوا أثراً واحداً : فقد كانت شفاه الجرات مختومة بحروف واحدة ، هى « م . س » يتبعها أحياناً علامة الخطاف وأحياناً أخرى علامة الصولجان ، ويعتقد علماء الآثار أنه ربمـا كانت هذه الحروف اختصاراً لاسم صاحب السفينة .

وتعرف عالم الآثار الفرنسى فرناند بنوا من شكل الخزف على أن تاريخ السفينة يرجع للفترة ٤٠٠ — ٢٠٠ ق . م ، فراجع سجلات التاريخ الرومانى حتى وجد تلك الحروف تشير إلى أسرة هامة من التجار الأغنياء ازدهرت خلال تلك القرون .

وقد ورد فى كتابات ليفى المؤرخ الرومانى بوجه خاص اسم أحد أعضاء هذه الأسرة ويدعى ماركوس سستيوس الذى ترك روما ليستقر فى جزيرة ديلوس الإغريقية . وذكر ليفى كيف حصل ماركوس سستيوس على لقب مواطن شرف فى ديلوس وكيف بنى هناك فيلاً ضخمة . وحيث أن الجرات الأثرية قد جاءت قطعاً من اليونان . وحيث أن ديلوس كانت مركزاً هاماً للسفن فى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد وحيث أن حروف (م . س) المسجلة تربط الجرات الأثرية باسم ماركوس سستيوس ، وعلى ذلك فان كل هذه الحقائق تشير إلى أن ماركوس هو صاحب السفينة سيئة الحظ التى أبحرت من ديلوس وتوقفت فى إيطاليا قبل أن تلاقى حتفها بالقرب من مارسيليا . وحيث أن ماركوس استقر فى ديلوس حوالى عام ٢٤٠ ق . م فان الأستاذ بنوا يعتقد أن الرحلة المشئومة حدثت بعد ١٠ سنوات أى حوالى عام ٢٣٠ ق.م .

وبالطبع فإن ذلك كله من قبيل التخمين ، ولـكن كل الدلائل تؤيد نظرية الأستاذ بنوا .

وخلال صيف ١٩٥٣ كان كوستو ورفاقه قد ملوا من عملية استخلاص

الجرات الأثرية من الأعماق بعد أن أصبحت عملاً مملاً . فقد عقدوا العزم على نقل المشروع إلى مجموعة أخرى من الغطاسين ليذهبوا بأنفسهم إلى ديلوس مقتفين طريق رحلة سفينة البنز فى الاتجاه العكسى ، وللبحث أيضاً عن معلومات أخرى عن ماركوس سستيوس . وسافروا فى الاحتفال الأول لبدء العمل عند « الكونجولا العظيم » .

وقد اتجهوا ناحية الجنوب وعبروا مضيق مسينا ووقفوا عنده وعند دوامة الشاربيدز لأخذ صور تحت الماء ، ثم تابعوا سيرهم وعبروا بحر أيونيا المخيف فى ليلة واحدة واتجهوا نحو جزيرة ديلوس فى بحر إيجا .

وكانت جزيرة ديلوس فى يوم من الأيام مدينة مقدسة لا ترفع فيها السيوف . يحج إليها الحجاج من كل أنحاء العالم القديم للتعبد عند مذبح أبولو . وقد كانت مدينة غنية للغاية اتخذ منها التجار من كل جنس مركزاً لمشاريعهم عبر البحار . أما اليوم فيسد الطمى ميناء ديلوس الذى كان مزدحماً فى الماضى وبلغت المياه الضحلة الحد الذى اضطر الكاليبسو أن تلقى بمرساها فى البوغاز . أما المدينة نفسها فقد أصبحت حطاماً إذ نهب الملك ميثريادیتس مدينة ديلوس فى عام ٨٠ ق . م وذبح ٢٠ ألفاً من سكانها وحمل معه كل كنوزها .

وأنهت غارة من القرصان ما تبقى من رخاء المدينة ، حتى أصبحت مدينة ديلوس اليوم عبارة عن أعمدة محطمة وفيللات مهجورة .

وقد عمل علماء الآثار الفرنسيين فى جزيرة ديلوس منذ عام ١٨٧٣ . وينتمى الخمس وثلاثون شخصاً المقيمون حالياً فى ديلوس إلى جماعات التنقيب عن الآثار وقد توجه كوستو إلى رئيس علماء الآثار هناك ويدعى جان مركديه لطلب معلومات عن ماركوس سستيوس وسمح ماركديه لكوستو بمشاهدة مجموعة المتحف التى

تحوى آلاف القطع من الجرات الأثرية التى وجدت فى المدينة . ولكنه لم يجد على إحداها ختم أو علامة (م . س) المسجلة ولا تحمل الجرات القليلة السليمة المشابهة للجرات التى عثر عليها عند كونجولا العظيم علامة ماركوس سستيوس .

ثم صحب عالم الآثار الغواص فى جولة بالمدينة المحطمة وسارا عبر أعمدة محطمة ومعابد مهشمة حتى وصلا إلى المكان الذى كان يسكنه صاحب السفينة الإغريقى الغنى ودخلا فناء واحدة من أفخم الفيللات .

وكانت رسوم الموزايكو على الأرض بالإضافة إلى زهرية على هيئة جرة تنتشر نحو البحر . وعثر أحد الغواصين على قطعة من الموزايكو تظهر حوت يونس مربوطاً بخطاف مشابه إلى حد كبير للخطاف المحفور على بعض جرات السيس الأثرية . وبعد دقيقة أخرى أشار غواص آخر إلى قطعة أخرى من الموزايكو تمثل صولجاناً مشابهاً للصولجان المسجل على الجرة الأثرية . ثم أشار عضو آخر فى الجماعة يدعى جيمس ديجان بأن الصولجان على هيئة حرف م بالحروف الرومانية، وحرفى (م،س) على هيئة أقواس بين طرفيه .

ولكن ذلك مازال تخميناً . إلا أنه كلما زادت الأدلة بدا التخمين أكثر إقناعاً ، وقد لا تحصل إطلاقاً على ما يؤكد أن صاحب السفينة التى غرقت عند الكونجولا العظيمة هو ماركوس سيستيوس من ديلوس ، ولكنه يبدو كذلك ولم تستكمل أبداً تلك الفيللا الفخمة فى ديلوس . وربما يرجع ذلك إلى إفلاس ماركوس سيستيوس بعد غرق سفينته الكبيرة واضطراره إلى عدم تكملة الفيللا .

وبرغم توجيه اهتمام كوستو ورفاقه نحو مشروعات أخرى ، فإن العمل عند الكونجولا العظيم استمر عدة سنوات . وقد استعيدت حوالى ١٠٠٠ جرة أثرية

وما زالت آلاف أخرى ترقد فى القاع . فقد استعيد عدد من الجرات والصحون الخزفية يكفى لتكديس كل متاحف العالم عدة مرات .

وترجع أهميــة سفينة النبيذ الغارقة عند الـكونجولا العظيم إلى أنها أعطت علماء الآثار فكرة عن بناء السفن عند الإغريق . ولهذا من القيمة الأثرية أكثر مما لقيمة الجرات التى عثر عليها . فقــد عرفنا أن الإغريق كانوا تجاراً وبحارة نشطين وإن كانوا لم يكتبوا كثيراً فى هذا الموضوع . وتشهد المستعمرات الإغريقية حول البحر المتوسط والتى تمثل اليوم فرنسا وإيطاليا وأسبانيا على تقــدم السفن عند الإغريق .

ولــكن نظراً لأن الإغريق لم يتركوا أى معلومات عن صناعتهم البحرية ، فلم يكن لدينا أى فكرة حقيقية عن أنواع السفن التى استخدموها أو خطوطهم البحرية الرئيسية . وقد أثبتت سفينة الـكونجولا العظيم أنه كانت لدى الإغريق سفن كبيرة الحجم فى حجم بوارج القرن التاسع عشر . وتعلمنا أيضــاً شيئاً عن خطوطهم التجارية وكيف أن السفن المتجهة ناحية المستعمرات اليونانية فى غرب أوروبا تقف فى إيطاليا لشحن النبيذ الرخيص والخزف المنتج على نطاق واسع لبيعه فى الغرب .

وقد أيد علماء الآثار الذين يحفرون على الشاطىء ما توصل إليه الغواصون . فمثلاً وجدت قطع من الخزف تحمل علامة ماركوس سيستيوس المسجلة بعيداً عن الشاطىء عند بورجانديا والألزاس .

ونتعلم من هذا أن مارسيليا كانت مركزاً لتوزيع البضائع الآتية من اليونان ، كما أن مارسيليا بديلها الحالى هو الميناء الذى كانت تدخل منه تجارة فرنسا .

إن كشف المـاضى مهمة صعبة . فـكثيراً ما يضطر علمـاء الآثار إلى تلمس طريقهم فى الظلام . ولـكنهم بدأوا يجمعون بـكل بطء وثقة أجزاء المعلومات المتناثرة : عن جرة هنا وعملة مدفونة هناك وجزء من آنية فخارية فى مكان آخر ، وبدأت ستائر التاريخ تنزاح بانتظام : بدأت أولاً على الأرض ، وهاهى أيضاً فى البحار ، والعمال المتحفزون يجوبون بحثاً عن خبايا المـاضى . إنهم يلقون أضواء على الظلام الذى اكتنف عالم ما قبل الأمس .

الفصل الخامس

بئر المايا المقدس

قامت حضارة هندية وازدهرت فى أمريكا الجنوبية والوسطى قبل الغزو الإسبانى . وكانت « بيرو » تحت حكم « الإنكا » . وكان شمال المكسيك تحت حكم « الأزتك » شاربى الدماء . أما « يوكاتان » (وهى ما نعرفه الآن باسم جواتيمالا وهوندوراس) فقد كانت تحت نفوذ جنس يسمى « المايا » . وفيما عدا هذا فى أمريكا الوسطى والجنوبيـة فقد أقامت قبائل صغيرة مثل « الأولبيك » و « الميكستيك » و « التولتنيك » حضاراتها .

ولقد كان ما أنجزته هذه الشعوب على درجة كبيرة من الروعة ، فلقد بنوا معابد عظيمة وطرقاً رائعة وأهراماً تلفت الأنظار . وكان فن النحت عندهم غريباً ولكنه كان جميلاً فى خطوطه القوية . ونحتوا الأحجار الثمينة مثل حجر اليشم ، وعملوا منه أدوات دقيقة للزينة وكذلك مصوغات من الذهب الخالص .

وقد أفنى الأسبانيون حضارات هذا العالم الجديد . فداروا يسلبون وينهبون ويقتلون ويخربون باسم المسيحية . والواقع أنهم كانوا وراء ثروات البلاد . ووقع « مونتزوما » ملك الأزتك و « أناهولابا » حاكم الإنكا وكذا الكهنة والعلماء من جميع الحضارات ضحايا لجشع الإسبان . وانهزم أيضاً شعب المايا . ولكننا لا نعلم حتى أسماء قوادهم .

ولكن لم يختف الأزتك ولا الإنكا ولا المايا من على وجه الأرض . فما زالت دماؤهم تسرى فى عروق آلاف الهنود فى وسط أمريكا وبيرو ، وما زالت

اللغة القديمة مستعملة فى بعض الأماكن النائية ، وقد دالت وانتهت أزمان حضارات بناء المدن العظيمة ، وأصبح شعب الأزتك والمايا من الفلاحين الجهلة بشكل يرثى له ، حتى أنهم لا يعلمون شيئاً عن منجزات أجدادهم العظيمة .

فقد ابتلعت الغابات المعابد والأهرام ، وضاع كل ما قامت به الأجناس الهندية العظيمة فى نصف الكرة الغربى فى طى النسيان وانتهى حتى كأساطير . وعمل الإسبان على طمس أية آثار تدل على ذكاء ومقدرة الأزتك والإنكا والمايا أو ما يشير إلى عظمتهم . وتسللت الكروم والنباتات المتسلقة وأحاطت بأبنيتهم الملهمة .

و بدأ المسافرون فى القرن التاسع عشر ، يتوقفون عند هذه الآثار التى ابتلعتها الغابات ، وبعد ذهولهم واستغرابهم لأول مرة فانهم سرعان ما كانوا يزيحون أوراق الأشجار جانباً ليروا أسفلها روائع الأشياء . وقد ذكرت فى كتابى « المدن المفقودة والحضارات التى امحت » كيف وجد سائح أمريكى متجول ويدعى « جون لويد ستيفنز » — مدينة كوبان الماياوية منذ حوالى ١٢٠ عاماً مضت . وكيف أن تقريره عن الأطلال التى وجدها دفع حملة للبحث عن الآثار لاكتشاف المدن الماياوية التى لا زالت مطمورة .

ويعتبر « إدوارد هربرت طومسون » الأمريكى من أعظم المستكشفين الذين استكشفوا منطقة المايا ، وقد ولد فى نيو إنجلند فى أواخر القرن التاسع عشر . وطومسون هو الذى اكتشف البئر المقدس بأرض المايا ، وقام بنجاح باكتشاف طليى بقى لسنين طويلة هو الإنجاز الوحيد العظيم فى تاريخ علم الآثار تحت المائية .

كان « إ . هـ . طومسون » فى طفولته كثير التساؤل والانتباه ، كما كان مبهوراً بالتاريخ . وكان كثيراً ما تصادفه رؤوس سهام هندية ملقاة على الأرض

أثناء تجواله فى الغابات القريبة من منزله ، فكان يضمها فى مجموعاته وغالباً ما كان يتملكه العجب والتساؤل عما كانت عليه قارتى نصف الكرة الغربى قبل حكم الرجل الأبيض .

وفى سن المراهقة ، صادف طومسون الكتاب المدهش الذى كتبه « جون لويد ستيفنز » وعنوانه « حوادث رحلة فى أمريكا الوسطى وتشياباس ويولاتان » وفيه وصف ستيفنز مغامراته فى غابات أمريكا الوسطى واكتشافه مدن المايا التى غطتها الكروم وعفى عليها النسيان . وحتى ذلك الوقت لم يكن طومسون يعرف عن الهنود سوى أولئك الذين يسكنون أمريكا الشمالية ، وهم صيادون بسطاء وصيادوا أسماك لا يبنون بيوتهم إلا من الخشب وجلود الحيوانات . فى هذا الكتاب يشير « ستيفنز » إلى مدن حجرية شاسعة فى الغابات ! .

وتساءل طومسون متعجباً « هل من الممكن أن ينتسب هؤلاء الهنود من بناة المدن إلى هنود أمريكا الشمالية ؟ ؟ » وقرر استحالة ذلك . إن أولئك الذين بنوا المدن العظيمة فى أمريكا الوسطى لا بد أن يكونوا جنساً عظيماً يختلف كلية عن الرجل الأحمر بأمريكا الشمالية .

ثم تساءل من هم إذن بناة المدن ؟ ؟

ووجد طومسون إجابة على ذلك السؤال . وكانت له نظرية — لا يمكن أن ننظر إليها الآن بعين الجد وقد يكون فيها شىء من الحقيقة ، ولو أنها خيالية بعيدة عن الحقيقة : فقد اعتقد طومسون أن المايا فرع بقى من شعب الأطلانتيس — وهى القارة الخرافية المفقودة كان يظن أن البحر قد غمرها .

ووضع طومسون أفكاره فى مقالة بمجلة سنة ١٨٧٩ عنوانها « أطلانتيس

ليست خرافة » ومضمونها أنه عندما واجهت أطلانتيس مصيرها فان شعبها أو جزء منه على أية حال هرب إلى العالم الجديد ، وبنى مدنه حيث نشأت الآن نيو مكسيكو وهوندوراس .

ولقد كانت هذه فكرة جريئة جذبت أنظار الكثيرين فى الولايات المتحدة . وحمى وطيس المناقشة بين مؤيديها ومعارضيها . أما الرجل الذى بدأ المناقشة فلم يرغب إلا فى أن تتاح له فرصة الذهاب إلى وسط أمريكا ، وأن يرى هذه الأطلال الشاسعة بنفسه وأن يكتشفها بأمل العثور على بعض الأدلة التى تعزز أو تنقض نظريته عن أطلانتيس .

وقام أصدقاء طومسون بمساعدته لبلوغ هدفه . وقد أمدته الجمعية الأمريكية للآثار ومتحف بيبودى بجامعة هارفارد بالمساعدة . وتمكن طومسون تحت رعاية هاتين المؤسستين من الحصول على وظيفة بقنصلية الولايات المتحدة فى يوكاتان . وكان سفر طومسون إلى أمريكا الوسطى كمسافر دبلوماسى شبيه بقصة جون لويد ستيفنز الذى مول بنفسه بعثته إلى أراضى المايا منذ حوالى أربعين عاماً عن طريق الحصول على وظيفة دبلوماسية من الرئيس مارتن فان بارن .

وفى خلال كتابة طومسون لمقالته عن أطلانتيس وقع فى يده كتاب قديم كان له تأثير خاص فى نفسه بعنوان « تقييم الأشياء فى يوكاتان » كتبه دييجو دى لاندا (١٥٣٧ — ١٥٧٩) وهو أسقف يوكاتان .

« ودى لاندا » هو أحد رجال الدين الذين أتوا إلى العالم الجديد فى القرن السادس عشر لنشر المسيحية بين الهمجيين حتى لو اقتضى الأمر قتل أى من السكان المحليين إذا رفض تعاليم المسيح الطيبة . ولم يجد دييجو أى تعارض بين كلمة المسيح وطرقه هو القاسية الخاصة فى تحويل الناس إلى المسيحية .

أحس دى لاندا أن أحسن طريق لاعتناق المايا المسيحية يكون بالقضاء على مدنيتهم الوثنية . وكانت إحدى طرقه الذى نفذها هى أنه فى يولية سنة ١٥٦٢ جمع الكثير من كتب المايا عن الطب والتاريخ والفرائض الدينية والاحتفالات والفلك وغير ذلك وحرقها . وكتب دى لاندا بارتياح لما فعل « لقد جمعنا كل كتب الوطنيين التى وجدناها وأحرقناها مما سبب أسفهم وحزنهم » . وكنتيجة لهذا العمل الهدام ، لم يفلت سوى ثلاث كتب لا زالت باقية حتى اليوم .. أما كل تاريخ وثقافة هذا الشعب العظيم فقد طمست تماماً بحرق تلك الكتب .

ولكن دى لاندا لم يكن عدواً « تماماً » للمعرفة . فمع أنه قضى — فى غمرة تحمسه الدينى — على ثقافة قيمة لشعب بأكمله — إلا أنه عمل على تسجيل بعض تفاصيل حياة المايا (طريقة كتابتهم الهيروغليفية ، وحسابهم للزمن ، وعاداتهم وطرق معيشتهم) فى مخطوط يدوى .

وذكر دى لاندا فى أحد فصول كتابه « تقييم الأشياء فى يوكاتان » مدينة « تشيتشان إتزا » التى تحتوى على بئر كان كهنة المايا يدفعون فيه قرابينهم للآلهة . وكتب دى لاندا « يمتد طريق أنيق حتى يصل إلى البئر . وكان من عاداتهم — ولا زالوا — أن يقذفوا برجال أحياء إلى البئر كقرابين للآلهة فى وقت الجفاف . وكانوا يعتقدون أنهم لن يموتوا — ولو أنهم لم يروهم أبداً بعد ذلك . وكذلك كانوا يقذفون بأشياء أخرى ، كالأحجار الكريمة والأشياء التى يقيمونها . وعلى ذلك فلو كان فى تلك البلاد ذهب لكان فى ذلك البئر الجزء الأكبر منه » .

ولا بد أن يكون « إدوارد هربرت طومسون » قد شعر برعدة عند ما قرأ

ما كتبه « دييجو دى لاندا » عن البئر المقدس فى تشيتشان إتزا . وقد فقد ذلك الكتاب القديم منذ ثلاثمائة عام ولم يتم اكتشافه ثانية إلا حديثاً فى ركن من الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد . وقد تنبأ طومسون بعد قراءة ذلك الكتاب بالاكتشاف العظيم الذى ربط اسمه نهائياً بمدينة « تشيتشان إتزا » .

تقع « تشيتشان إتزا » بالقرب من مدينة ميريدا . وقد بناها الإسبان بعد غزوهم للمكسيك . واليوم تعتبر الرحلة من المدينة الإسبانية إلى أطلال المايا رحلة بسيطة يقطعها آلاف السياح كل عام . ولكن عند ما قام إدوارد طومسون بأول رحلة له إلى المكسيك سنة ١٨٨٥ ، كانت مهمته شاقة وصعبة لكى يصل إلى تشيتشان إتزا .

فقد استأجر طومسون دليلاً « هندياً » ليصاحبه من ميريدا إلى تشيتشان إتزا . وكان يأمل أن تكون رحلة قصيرة . فقد استمرت رحلته عدة أيام ، أولاً بالقطار ثم عربة « القولان » التى وصفها بقوله « هذا الاختراع الشيطانى الذى لا يترك الإنسان إلا وقد امتلأ بالرضوض والأورام من رأسه حتى قدمه » وعند ما تعذر سير العربة ركب صهوة جواد . وغادر مع دليله الهندى ميريدا التى اعتقد أنها قريبة بحيث يمكن زيارتها دائماً أثناء عمله .

وخيم الظلام وهما يتحركان ببطء فى الغابة ، وسطع القمر كاملاً فى المساء ، واستمرت الجياد سائرة ساعة فى أثر ساعة . وكتب طومسون « وانتصف الليل ولا أدرى كم من الساعات مرت بعد ذلك ، ثم سمعت صوت دليلى يتعجب باللغة الوطنية ، فانتصبت فى جلستى على ظهر الجواد بعد أن كدت أغفو .

« كان دليلى أعلى الهندى يشير باهتمام إلى الأمام وإلى . ورفعت عينى كأنما وخزنى تيار كهربائى فانتبهت . هناك فى مكان مرتفع وعلى ضوء القمر الشاحب

بدا شيء غير واضح كأنه معبد إغريقي ضخم الحجم على قمة جبل منحدر . بدا ضخماً جداً فى ضوء الفجر الخافت وخيل لى كأنه حصن حصين فى أعلى البحر تتلاطمه الأمواج . وازدادت ضخامته كلما زاد وضوحه مع كل خطوة من خطوات الجياد المتعبة . وأحسست بألم حقيقى كما لو أن قلبى قفز من صدرى ، ثم أسرعت الخطى لتعويض ما فقدته من وقوف » .

كان طومسون يملأ عينيه بمنظر الهرم العظيم فى تشيتشان إتزا لأول مرة . ومع أن دليله الهندى ترجل سريعاً ليرتاح ، إلا أن طومسون أراد أن يكتشف الهرم فى التو واللحظة ، فتسلق بأنفاس متقطعة حافة صخرة على ارتفاع ثمانين قدماً ، وحملق فى بوابة معبد الهرم والتى تبلغ أربعين قدماً . وتساءل « هل من العجيب أن ترتعش مفاصلى قليلاً إذا نظرت بإمعان خلفى فى انتظار شبح بشع هائل لآلهة دنست معبده عينى ملحد ؟ » .

ونظر طومسون حوله ورأى ما يزيد على عشرة أهرام وأبنية كثيرة بيضاء كالأشباح فى ضوء القمر . ثم تسلل إلى طريق مرتفع واسع يمتد من المعبد إلى « غدير اسود واسع ممتلىء بالأشجار . ولم أتمكن — وأنا جامد فى مكانى مبهور الأنفاس إلا أن أرى وأرى ، لأنى فى لحظة خاطفة أدركت أننى أحملق فى الطريق المقدس . وفى نهايته يوجد البئر المقدس حيث ترقد فى أعماقه المظلمة حتى الآن عظام العذارى الجميلة البائسة، اللاتى ضحين بأنفسهن لتهدئة آلهة بشع. وما أكثر الكنوز التى تفوق الوصف التى يخبئها ذلك البئر المريع ! وما أكثر المآسى التى تمت على حافته ! » .

وبدأ طومسون يتخيل ويعيد تصور تلك المآسى : فقد تصور وهو يحملق فى مياه البئر القاتمة ، الكهنة وهم فى أبهى حللهم المعدة للطقوس الدينية يقتربون حتى

حافة البئر يرتلون صلواتهم ، بينما العذارى الخائفات الوجلات يقتربن من لحظات قضائهن . وتخيل طومسون كيف كانت اللحظات التي توقفت فيها الطبول والصلوات ووقفت الضحية المقدمة قرباناً لآلهة المطر بمفردها والكاهن يشعل مواقد البخور . ثم تبدأ الطبول تدق دقات صامتة مرة أخرى ويقبض كاهنان قويان على الفتاة المذعورة متقدمين بها حتى آخر حافة البئر ويحملانها بينهما ويؤرجحانها أماماً وخلفاً على دقات الطبول ثم يتركانها لتصل إلى القاع .

وكتب طومسون « هكذا تصورت عملية تقديم القرابين عند البئر المقدس ، وهى عملية لم تتم مرة واحدة فقط ، ولكن مئات المرات خلال قرون عديدة ، وهكذا انتقلت إلى أساطير ماياوية ، ثم تعجبت وتساءلت عما إذا كان ذلك البئر العتيق البشع ما زال محتوياً فى قاعه المظلم على بقايا الطقوس القديمة ، وعلى كل فالقرابين كانت مجرد خرافات مبنية على بعض قصص الحكايات التى نمت ونمت فى كل مرة تكرر فيها نقلها »

ولقد كان عليه أن يكتشف : ولكن كيف يصل إلى قاع ذلك البئر الذى يبدو كأنه لا قاع له ، وليس لديه إلا أموال قليلة ، وليس لديه أية إمكانيات آلية ؟ .

ولقد كان يعرف أنها عملية عظيمة ، فالبئر واسع وعميق وهو راكد حالياً ، ومياهه موحلة مكدسة بأنقاض قرون من الإهمال ، ولذلك كان من الواجب إزاحة أطنان من الوحل والصخور وأوراق الأشجار قبل نزول أى غواص إلى البئر .

ولم يكن أمامه أى شىء يفعله وقتئذ فى سنة ١٨٨٥ ، فعاد إلى الولايات المتحدة وحاول الحصول على مساعدات تمكنه من استكشاف البئر المقدس ، واشترك فى مؤتمر علمى ، وأخبر كل من وجد منه أذناً صاغية بالكنوز الأثرية

التى لا شك فى وجودها فى قاع البئر ، فكان الجميع يهزون أكتافهم بلا مبالاة . فذهب إلى أصدقائه وحاول أن يقترض نقوداً لتمويل بعثة للاستكشاف ، ولكنهم أيضاً هزوا رؤوسهم ضاحكين . وردو عليه « لا يمكن أن ينزل أى إنسان إلى الأعماق المجهولة لتلك الحفرة المائية المهولة ويتوقع أن يعود حياً ، فإذا أردت الانتحار فلم لا تلجأ إلى وسيلة أقل إزعاجاً من تلك الطريقة ؟ » .

وتحمس طومسون نتيجة لرفضهم مشاركته أحلامه ، فإذا لم يؤيده أحد ، فسيقوم هو بنفسه بعمل كل خطوة فى المشروع .

وأدرك طومسون أن هناك ثلاثة أنواع من العمليات فى البئر . ألا وهى : النزح وتطهير المياه ثم الغطس .

ومن دراسته الأولية للموضوع أدرك أن نزح هذا البئر الكبير شىء غير عملى بالنسبة لإمكانياته المالية المحدودة . أما تطهير المياه فهى عملية ممكنة — إذا حصل على الأدوات اللازمة .

وذهب طومسون إلى بوسطن ودرس الموضوع مع مهندس تطهير المياه ، واقترض بعض النقود واشترى ونشاً له قائمة صلبة بذراع ملوى وقضيب متأرجح يبلغ طوله ثلاثين قدماً وقادوس من الصلب . ولم يكن نقل هذه المعدات من الولايات المتحدة إلى تشيتشان إتزا بالعمل الهين ، فقد تم تفريغها على بعد أميال من موقع العمل ، حيث كان من الضرورى نقلها قطعة قطعة . « بمساعدة محلية فقط وبدون عربة نقل أو أى شىء مماثل يتحرك على عجل ، وعلى طريق من أسوأ ما يكون » .

وما أن تم نقل الونش إلى الموقع ، حتى بدأ طومسون يركب أجزاءه مما

استلزم أياماً مليئة بالعمل المضنى الشاق كان يبدو له أثناءها أن هذه الكتلة الضخمة ستنقلب عليه قبل أن يبدأ العملية .

وبدا له من المستحيل أن يطهر مياه البئر الذى يبلغ قطره ١٩٠ قدماً . وبدأ طومسون يبحث أكثر الأمكنة ملاءمة وذلك بعمل تماثيل خشبية بحجم وشكل الإنسان ويدفعها فى الماء ، وبذلك وجد المكان الذى يحتمل أن تكون الضحايا قد استقرت فيه ، وبدأ عملية التطهير .

فأجر طومسون فريقاً من ثلاثين هندياً لمساعدته ، وأعطى إشارة البدء ، وبدأ رجاله الموثوق فيهم يؤرجحون قضيب الونش إلى ما فوق البئر ثم يخفضون القادوس المصنوع من الصلب ، وسقط تحت سطح المياه الخضراء وهبط حتى وصل إلى القاع .

وبدأ الذراع يتأرجح ببطء عائداً إلى حافة البئر . وأعاد الهنود المتوترون الذراع الملوى وهم يلقون أمتاراً من الكابلات المبتلة قبل أن يشق القادوس سطح الماء . وكتب طومسون « وبدأت تتصاعد رويداً رويداً حتى وصلت إلى مستوى رؤوسنا ثم تأرجحت إلى الداخل وهبطت إلى المكان الذى اخترته حيث تختبر كل المحتويات القيمة بالغرفة على المائدة المليئة بالمتنوعات المختارة ، بحيث لا يفلت من بين أصابعنا أى شىء ذو قيمة ولا يجب أن يتلف أى شىء نتيجة إهمالنا ، مع ضرورة معالجة أى شىء قابل للتلف بالمواد التى تحافظ عليه وهى دائماً فى متناول اليد .

« إن يدىّ ترتعشان رغم المجهود الذى أبذله للسيطرة عليهما ، أثناء تفريغى لمحتويات المغرفة على المائدة ، لأننى إما أن أكون ذلك الفتى الذكى الذى

تمكن من استعادة الكنوز من البئر المقدس فى يوكاتان ، أو أكون أكبر مغفل فى نصف الكرة الغربى » .

وفحص طومسون الأنقاض وقد نشر كل جزء منها ولم يجد شيئاً ، لم يجد شيئاً ذا قيمة . فعاق ذلك بقوله « هذه الأشياء ممكن أن تأتى من أى بركة عادية » .

ومرة بعد أخرى دارت الكراكة وفكاها يتحركان ويقبضان ثم تتأرجح فوق المياه وتتوقف لحظة وتنزلق تحت سطح الماء . وجذب العمال الكابلات عند خروجها من الماء وقد أغلقت الكراكة فكيها على الطمى والحصى . وكتب طومسون يقول «ومرت الأيام ولم أجد شيئاً سوى بعض أوراق الأشجار المتعفنة ذات الرائحة الكريهة وبعض الأحجار ، وأحياناً تخرج أشجار بأكملها من الثقل بحيث تصر الكابلات المعدنية مخرجة إحداها وذلك عند تأرجح الكراكة بثقلها تحت سطح الماء لتتخلص من أكبر جزء منها ولتقليل الوزن قبل أن ترفعها فوق الماء وتسقطها مرة ثانية فى مكان آخر من البركة حيث تقع ويتناثر رذاذ الماء » .

ومن وقت لآخر كانت تتصاعد هياكل عظمية للغزلان والخنازير البرية ، وفى مرة كانت ضمنها هياكل جنبور أمريكى وبقرة (أى هياكل المفترس والضحية) ويبدو أنهما سقطا معاً فى البئر . واستمر هبوط وصعود قادوس الكراكة لأيام طويلة وهى لا تخرج سوى الوحل والصخور ومزيد من الوحل.

ووصف طومسون الحالة بقوله « انهارت أحلامى الكبيرة إلى لا شىء بل وأقل من لا شىء ... وأصررت بعناد على استمرار العمل وألا نتوقف حتى نصل إلى القاع الصخرى للبئر ، وحاولت أن أخفى يأسى على الهنود الذين كانوا معى .

ولكنهم لا حظوا ذلك وأعتقد أنهم تعجبوا وتساءلوا إلى أى مدى سيستمر هذا الغريب المأفون يصر على غبائه ويدفع لهم أجوراً مرتفعة فى نظير رفع الطين — حتى ولو استعمل كمخصب — من بئر مليء بالطين » .

وحزن طومسون وسأل نفسه « هل من الممكن أن أضيع ثقة أصدقائى وبكل هذه التكاليف الباهظة وأعرض نفسي لسخرية العالم من أجل إثبات ما أعلنه الجميع من أن هذه الأقاصيص ما هى إلا حكايات قديمة ، حكايات لا أساس لها من الواقع ؟ » .

وفى يوم بارد ممطر وغير مشجع ، ارتفعت الكراكة بما يبدو كزوج من بيض النعام سمنى اللون وسط الطين الداكن ، وكانا من مادة صمغية . فبدأ طومسون يشمهما ويقضم إحداها ، وجالت بخاطره فكرة محظوظة بأن يرفع إحداها فوق اللهب . وانتشرت فى الجو رائحة زكية لقد وجد « الكوبال » — بخور ماياوى .

وكتب يقول « لأول مرة منذ أسابيع نمت نوماً عميقاً وهادئاً » .

لقد حفرت الكراكة أخيراً الوحل المتراكم عبر الأربعمائة عام الماضية ووصلت أخيراً إلى طبقة الرواسب الماياوية . وبعد هذا الوقت لم تحفر الكراكة أى مرة إلا وأخرجت شيئاً هاماً .

فأخرجت الكثير من حبات البخور المستديرة والسلال المتآكلة التى كانت تحتويها فى يوم ما . كذلك استخرج سكين خشبي ورؤوس حراب وأجزاء من الفخار ورؤوس رماح وصحاف نحاسية وأجراس وأجزاء من حجر اليشم وكرات من المطاط وتماثيل صغيرة وسكاكين من السبج أو الحجر الزجاجى الأسود.

وضحك طومسون عندما اكتشف أن بعض المايا قد غشوا قليلاً عند تقديمهم القرابين للآلهة . فحبات البخور المستديرة لم تكن مصمتة تماماً ولكن كانت مجوفة ومملوءة بأوراق الأشجار والعصى وأشياء تافهة أخرى كبديل رخيص للبخور الصلب ، وربما كانوا يعتقدون أن الآلهة لن تلحظ ذلك .

وحدث أن استخرجت فى يوم ما جمجمة أزيل لونها وصقلت حتى أصبح لونها أبيض ناصعاً ، وبفحصها اتضح أنها لفتاة صغيرة وهو ما يتفق مع قصة الأسقف دى لاندا عن القرابين البشرية ثم استخرج من الأعماق الموحلة صنادل أنيقة ثم عديد من الهيا كل البشرية معظمها لفتيات وأحياناً هيكل عظمى لرجل عريض المنكبين له جمجمة ثقيلة . ربما كانوا يضحون بالمحاربين كما يضحون بالعذارى . ولكن بالفحص الدقيق اتضح أن هذه الهيا كل الذكرية كانت لرجال مسنين ، فلربما جذبت إحدى الفتيات المذعورات كاهناً معها إلى الماء ؟ ربما .

واستمر استخراج الكنوز الأثرية لعدة شهور . كانت هناك أشياء من الذهب وبالذات أجراس صغيرة من الذهب قد سويت بمطرقة خشبية قبل قذفها فى الماء . وشطرت كثير من حلى الزينة المصنوعة من حجر اليشم إلى نصفين كما لو أنها « ذبحت » قبل أن تقبلها آلهة المطر .

وقال طومسون « لم تكن كنوز تشيتشان إتزا قيمة بلغة النقود ، ولكن قيمتها الأثرية بالغة » .

بدأ طومسون يدرك أنه يقترب من نهاية حدود إمكانيات عمل الكراكة . فقادوس الكراكة بدأ يرفع أجزاء من الحجر الجيرى مما يدل على الوصول إلى القاع . ومع ذلك فجزء كبير من البئر كان بعيداً عن متناول قبضة الكراكة .

وجدت فعلاً أشياء كثيرة — تسعون هيكلاً عظمياً ومجموعة كبيرة من الكنوز الأثرية . وكتب طومسون يقول «لا يمكن أن أتشاجر مع حظي السعيد حتى الآن . إنني أحس أنني كوفئت بسخاء نظير مجهوداتي والمصاريف التي دفعت، حتى ولو لم يكتشف شيء بعد ذلك وقد تحققت مغامراتي المبنية على فكر سليم بشكل كبير . لقد أثبت نهائياً قصة البئر المقدسة التاريخية » .

وكتب يقول « لقد أثبتت عمليات الحفر بالإضافة إلى الأجهزة السمعية التي استعملناها بين الحين والحين أن قاع البئر لم يكن مستويا — بل سلسلة من التجويفات أي سلسلة مصغرة من الجبال تقريباً . وعلى ذلك ألا يحتمل وجود كنوز أخرى في الجيوب الموجودة بين المرتفعات والتي لا تصلها عمليات الحفر ؟ أشياء أخرى أصغر وأثقل مما سبق اكتشافه . أشياء رسبت بين طيات الوحل حتى وصلت قاع البئر نتيجة لثقلها ؟ » .

واستمر طومسون في الحفر حتى استنفد كل إمكانيات الطرق الآلية المستخدمة في الحفر . ورأى أنه قد آن الأوان لكي تدخل العملية في المرحلة الثانية — الانتقال إلى الغطس بأنفسهم والنزول إلى البئر بأردية الغطس لاستعادة الكنوز الصغيرة جداً التي انسابت من بين فكي الحفارة . وسأل طومسون نفسه « ليس أجمل ولا أكثر رومانسية من الهبوط إلى عمق ستين قدماً في الماء إلى أقصى مكان في تلك الحفرة المخيفة والتجول بين مرات مساكن آلهة المطر المقدسة ؟» .

كانت فكرة جريئة . ولم يكن قد مضى من القرن العشرين سوى عدة سنوات والرئات المائية وقتئذ لم تزل في طي المستقبل . وتقتضي الفكرة التي امتلكت طومسون الهبوط إلى أعماق البئر العظيم والعمل في الظلام الدامس في درجة حرارة تزيد قليلاً عن الصفر .

وقد كان على أتم استعداد لتنفيـذ هذه المحاولة الجريئة فقد أصبح غواصاً ماهراً لأعماق البحار خلال السنين الطويلة الماضية ، ومع ذلك فقد كانت خبرته قليلة فى الميـاه الرائقة المفتوحة . وها هو يقبل على عملية هبوط فى أعماق معتمة تحاصرها جدران صخرية شديدة الارتفاع ويزيد من صعوبتها التواءاتها ومنحنياتها التى تجعلها كالحيات الضخمة .

واستأجر طومسون لمعاونته اثنين من اليونانيين من محترفى الغطس الذين يجمعون الاسفنج على بعد من ساحل فلوريدا . وكانت أردية الغطس التى استعملوها مصنوعة من القماش السميك المبطن بالمطاط وقناع للرأس نحاسى مبطن بالقماش وبه عوينات زجاجية وحول الرقبة صفائح من الرصاص وأحذية معدنية تساعد على الهبوط . وتتصل الغواصين بأعلى خراطيم وأجهزة إمدادهم بالهواء على سطح البحر .

وأتم طومسون وأحد مساعديه اليونانيين ارتداء ملابسهما بينما انتظر الآخر على الشاطىء لتشغيـل الآلات . ونزل طومسون أولاً . ويصف نفسه بقوله « هبطت على السلم المصنوع من الحبال بنفس العظمة التى تسقط بها السلحفاة من على كتلة من الخشب » .

ونزل طومسون إلى أسفل وأجرى تفتيشاً عاماً على الأجهزة ليتأكد من أن خط الهواء وخط الحياة منتظمين وخاليين من العوائق . وعلى عمق ١٠ أقدام وجد نفسه فى ظلام دامس . وأحس بألم فى أذنيه نتيجة لضغط الهواء . ففتح صمامات القناع ليعادل الضغط . وبدأ يهبط إلى أسفل ، إلى أسفل ، إلى أسفل وكتب يقول « لقد شعرت . . . برعدة غريبة عند ما أدركت أننى الإنسان الوحيد الذى يصل إلى هذا المكان حياً ، وأتوقع أن أخرج منه حياً أيضاً . ثم هبط بجانبى الغواص اليونانى وتصافحنا » .

كان طومسون قد اشترى أحدث وأحسن ما يمكن الحصول عليه من المصابيح الكهربائية (بطارية) ولكن المياه كانت من القتامة والتعكير بالوحل لدرجة أن المصباح لم يكن ذا فائدة . وكان عليهما أن يعتمدا على حاسة اللمس فقط مستعملين أصابعهم المغطاة بالقفازات للبحث فى الوحل . ومع أنهما أحضرا معهما فى القاع تليفوناً يستعمل تحت الماء إلا أنهما نادراً ما استعملاه ، وإنما اكتفيا بهز الحبل للاتصال بأعلى . وإذا أراد طومسون والغواص اليونانى أن يتحادثا فإنهما كانا يلمسان جبهتى القناعين الحديدين ببعضهما لتوصيل الصوت .

واصطكت أسنانهما بشكل مستمر . وعندما كانا يرتفعان بعد كل ساعتين من الغطس ، كانت شفاههما زرقاء وجسديهما يشبه لحم الأوز من شدة البرد — وكان أول ما يتناولانه هو القهوة الساخنة التى يتصاعد البخار منها .

إن العمل على عمق ٦٠ قدماً يجعل الإنسان تحت ضغط كبير . ولكن ضغط الهواء فى داخل أردية الغطس كان يبطل مفعوله بحيث يشعران وهما فى القاع ألا وزن لهما إطلاقاً ، رغم الصفائح الرصاصية حول أعناقهم وأحذيتهم التى يبلغ سمك نعالها الرصاص بوصتين .

وكنتيجة لهذا الوضع ، فإن أى دفعة صغيرة على القاع بأقدامهم كانت تكفى لأن تجعلهما يحلقان إلى أعلى .

وكان طومسون حريصاً معظم الوقت . ولكن حدث أن أعجب بأحد مكتشفاته لدرجة أنه نسى إخراج الهواء الزائد فى ردائه فدق على القاع بقدمه ، وفجأة انقلب رأساً على عقب نتيجة لخفة وزنه وأسرع إلى السطح بهذا الوضع فاصطدم حذاؤه الرصاص بجسم قارب الغطس بفرقعة شديدة مما أزعج وأرعب

الجنود الذين كانوا على ظهره ، وروعوا عندما أدركوا السبب ، ولكن سرعان ما استقام طومسون وفتح صمامات القناع .

وصرخ جوان ميس ، رئيس العمال الهندى «ياإله السموات!! إنه يضحك». وانتهى الحادث بدون إصابات تذكر .

ولقد كان من بين الأهداف الرئيسية لهذه العملية اكتشاف طبيعة بعض الأشياء الحجرية الملساء كبيرة الحجم التى كان يتصادف العثور عليها بواسطة الكراكة والتى سرعان ما كانت تنساب من بين فكى الدلو .وقد وجد طومسون أثناء تحسسه للقاع ، هذه الأحجار وحولها سلاسل مغلقة.وعندما كان دلو الونش يرفعهما إلى السطح ، كانت على بعضها رسوم هيروغليفية والبعض الآخر عبارة عن تماثيل أحدها كامل النحت لآلهة أو كاهن جالس ذكر طومسون برودين « المفكر » .

وفى مرة أخرى بحث طومسون عن أشياء صغيرة مدفونة فى الطين على طول الأجزاء المرتفعة أو الفجوات فى قاع البئر وعثر على أشياء صغيرة بدت كما لو أنها عملات نقدية وبعد أن جمع حوالى ثلاثين منها غلبه حب الاستطلاع فأسرع إلى سطح الماء . وحتى قبل أن يخلع الرداء فتح جيبة فوجد فى الكنز العجيب كثيراً من الأشياء الصغيرة مثل « خواتم مزينة بنقوش ، وأجراس صغيرة نحاسية ، وعدد من الأجراس من الذهب الخالص ، وخواتم وأدوات زينة ومداليات مطلية بالذهب على درجة فائقة من المهارة والتصميم ، كذلك وجد حبيبات جميلة منحوتة من حجر اليشم ، وأشياء أخرى من حجر اليشم ، وكما يحدث عند التنقيب فى المناجم عثر على ذهب ولكنه أقيم بكثير من الذهب الخام ، فمهما كانت قيمته الحقيقية كذهب فإن كل قطعة منه كانت فعلاً لا تقدر بثمن .

وكان ذلك مجرد البداية : فقد تلا ذلك ظهور مجموعات كبيرة من كنوز المايا ، تبلغ قيمتها الذهبية مئات الآلاف من الدولارات لو صهرت الخواتم والأجراس فقط . فمثلاً ظهر فى يوم واحد مائتى جرس ذهبى صغير . وقد عرضها طومسون على الهنود الذين بهتوا متعجبين ومتحسرين على أجراس الناس القدامى .

وكلما استمر الغطس استمر ظهور المكتشفات . فلمئات السنين قذف المايا بأشيائهم فى البئر . وقد استخرج طومسون كميات غير معقولة من الأشياء النادرة .

وفى يوم من الأيام استكشفت حفنة من الأقنعة النحاسية الصغيرة يبلغ طول الواحدة منها بوصة وعرضها نصف بوصة — ومن الغريب اكتشاف هذه الأشياء فى نفس اليوم الذى أقيم فيه كرنفال للوطنيين وكانوا جميعاً يلبسون أقنعة . وقد تكهن أتباع طومسون من الهنود أن « يوم تشال » آلهة المطر أرسل هذه الأقنعة تذكرة بيوم الكرنفال . ولاحظ طومسون واقعة غريبة وهى أنه لم يجد فى البئر مثل هذه الأقنعة لا قبل هذا اليوم ولا بعده .

ثم استخرج بعد ذلك أزاميل وسكاكين من حجر الصوان ذات مقابض ذهبية وتماثيل صغيرة ومزيداً من الأجراس وحجر اليشم . وفى يوم حضر ثلاثة من الأمريكيين — أحدهم عالم آثار من هارفارد — لزيارة طومسون ، ووقفوا يشاهدون العملية . وقد استخدم طومسون الونش فى ذلك اليوم وعند ما ارتفع فى مرة ما بحمولته ظهر شىء رمادى كثيب يتأرجح على الونش . وعلق على ذلك أحد الأمريكان من أصدقاء طومسون بقوله :

« لا بد أنه أحد أحذية آلهة المطر القديمة » .

ولكن بعد أن دار الونش فى اتجاههم تمكنوا من مشاهدته جيداً . وكان قرصاً

كبيراً من النحاس منقوشاً عليه آلهة الشمس . وراقب طومسون وأصدقاؤه دلو الونش وهو يقترب من الشاطىء — فاتضح أن ما ظنوه « حذاء قديماً » كان على درجة رائعة من الفن ، وكان يتأرجح ويهدد بالسقوط ثانية فى البئر .. وأخيراً أسرعت يدا طومسون لتطبق على اكتشاف يفوق فى جماله أجمل المكتشفات التى وجدها فى كنوز المايا .

وتلا ذلك اكتشاف أقراص مشابهة، بعضها من النحاس والآخر من الذهب وكتب طومسون يقول« كل يوم هو يوم ذهبى »وبلغ قطر إحدى الصحاف الذهبية تسع بوصات والأخرى أقل من ذلك قليلاً ، كما كان هناك اثنا عشر قرصاً ذهبياً بدون زركشة ، صنعت من ألواح كان المقصود منها فى الأصل أن تزركش ويرسم عليها كالأخريات ، ولكن لسبب ما قذف بها إلى البئر وهى مجردة من أى رسم .

وهكذا كان المحصول الكلى من البئر المقدس عظيماً جداً . وإليك مقتبسات من القائمة التى صنفها ت . أ . ويلارد صديق طومسون :

— « صحن من الذهب الجيد ، منقوش أو مطروق ، قطره حوالى عشر بوصات ، وقاعة محل مستدير ، يزن حوالى رطل .

— « أربعة صحون أخرى أو سلاطين أو فناجيل أصغر حجماً غير منقوشة ولكن من مادة ثقيلة واستدارتها غاية فى الجمال .

— « سبعة أقراص ذهبية منقوشة أو مطروقة قطرها حوالى عشر بوصات .

— « ثمانية أقراص ذهبية منقوشة أو مطروقة قطرها حوالى ٨ بوصات .

— « عشرة تماثيل ذهبية لإنسان أو شبيهة بالقرود .

— « عشرون خاتماً ذهبياً معظمها من ذهب نقى .

— « أحد عشر تمثالاً لزواحف وحيوانات فى الغالب ، بروشات أو أدوات أخرى للزينة كلها من الذهب الصب ومصنوعة بشكل دقيق ، منها ضفادع وتماثيل شبيهة بالوطاويط وأشياء شبيهة بالقرود معظمها صب ثقيل ومن ذهب نقى .

— « أربع عشرة كرة من حجر اليشم قطرها بوصة ونصف ، كلها رائعة الصقل والعديد منها منحوت بأشكال ورسوم جميلة .

— « عدد من رؤوس الرماح الجميلة المصنوعة من حجر الصوان والتى تبلغ قيمتها أضعاف أضعاف وزنها من الذهب ، وقد نحتت بحيث وصل سمكها إلى سمك رؤوس الحراب المصنوعة من الصلب ، أما حوافها فحادة كالشفرة وهى من أروع ما وجد فى أى مكان فى العالم .

— « قناع ذهبى صلب قطره سبع بوصات ، أما العينان فمغلقتان كما لو أنهما فى سبات عميق ، أو فى حالة موت ، ورسم فوق الجفن الأيمن نفس الصليب المائل الذى نراه دائماً منحوتاً على ما يسمى سن الفيل .

— « وآلاف من الأشياء الأخرى التى لها قيمة كبرى لعلم الآثار » .

وقد سلمت الكنوز الأثرية التى وجدها طومسون إلى متحف بيبودى بجامعة هارفارد . وقد استاءت حكومة المكسيك — فيما بعد — من الطريقة التى نقل بها أجنبى هذه الآثار التاريخية الهامة إلى بلاد أجنبية . ويعتبر هذا نوعاً من المتاعب التى تواجه علماء الآثار . فمعظم الحفريات الأثرية مدفونة فى بلاد متأخرة يسكنها أناس غير قادرين أو غير راغبين فى القيام بالحفر بأنفسهم . ولكنهم يستاءون

من قيام الأجانب بهذا العمل . وقد اضطر علماء الآثار فى أوائل القرن التاسع عشر للعمل سراً فى أغلب الأوقات خوفاً من أن تكتشف حكومات البلاد التى يحفرون فيها الأعمال التى يقومون بها فتصادر .

أما اليوم فقد أمكن التغلب مقدماً على هذه المصادمات . فعند حضور بعثة من بلد لتحفر فى بلد آخر ، يتم الاتفاق مقدماً عن وضع الكنوز التى توجد : فيتفق علماء الآثار على أن يعطوا نصف ما يجدوه إلى البلد صاحبة الشأن ، وأحياناً أخرى يتفقون على أن يقوموا بكل التنقيب نظير السماح لهم بدراستها فى متحف البلد .

أما طومسون فقد حمل معه كل ما وجده فى السنوات الأولى من هذا القرن . وكانت المكسيك فى ذلك الوقت فى حالة من الفوضى السياسية بحيث يصعب الاتفاق فيها مع أى انسان . ورغم سخط الرأى العام على عمل طومسون فقد حكمت محكمة المكسيك العليا بأنه لم يقم بشىء مخالف للقوانين المكسيكية وقتئذ . وبالرغم من هذا ، فقد أهدى متحف بيبودى اختيارياً ٩٤ من مكتشفات طومسون إلى معهد المكسيك القومى للحفريات والتاريخ فى سنة ١٩٦٠ .

الفصل السادس

كنوز أخرى من أرض المايا

اكتشف « إدوارد هربرت طومسون » البئر المقدسة فى « تشيتشان إتزا » فيما بين عامى ١٩٠٤ — ١٩٠٧ ، وقد رأينا فى الفصل السابق أن الكنز الذى استخلصه من البئر كان عظيماً وأن أعماله ستظل دائماً إحدى علامات الطريق فى علم الآثار .

وقد أدرك طومسون أنه لم يستنفد بعد محتويات البئر — وأنه لم يفتح الطريق أمام كنوز تشيتشان إتزا ، ولكنه قام بعمله الرائد فى وقت كانت معه الأجهزة المستعملة بدائية والغطس عملية شاقة . كما أن عملية التحسس الأعمى فى الظلام الموحل — ولو أنها أنتجت الكثير — لم تكن كافية لاستخراج كل شىء ألقى فى البئر فى الوقت الذى استعمل فيه كمخزن للقرابين لفترة تمتد من خمسمائة إلى ألف عام .

وكتب طومسون يقول « إننى متأكد رغم كل الأشياء القيمة التى انتزعتها بالقوة من آلهة المطر — أننى لم أنتزع منه سوى عشر كنوزه التى يطبق عليها بقوة . وهناك الكثير من أدوات الزينة الذهبية فى تجاويف أرض الحفرة غير المستوية — ومعها أشياء أخرى تفوق قيمتها الذهب لدى تجار العاديات » .

وبقى طومسون فى المكسيك حتى أواخر عمره وقام بعديد من المآثر التى يذكرها له علم الآثار حتى موته سنة ١٩٣٥ . وكتب قبل موته بسنوات قليلة متنبئاً بمستقبل الحفريات الماياوية :

«إنى أترك مستقبل الاكتشافات الجديدة فى البئر المقدسة فى يد مهندس الغد وإنى أقولها نصيحة — لا بد من مهندس ، لأن عملية انتزاع مقتنيات البئر القديمة مهمة هندسية . فيجب أولاً تطهير كل منطقة قاع البئر ، لا بواسطة الأجهزة اليدوية البدائية التى استعملتها ، ولكن بأجهزة حديثة قوية تعمل آلياً . وسيحتاج الأمر لعمل ناقوس غطس كبير جداً . مصمم بطريقة خاصة تسمح بالعمل تحته ويحمى العمال من الماء ويمدهم بضوء كاف » .

وقد أصاب طومسون بقوله إن علماء الآثار سيعودون يوماً ما إلى البئر المقدسة . ولكن بعد أن انتفت الحاجة إلى « ناقوس غطس كبير مصمم بطريقة خاصة » فقد أدى ظهور الرئات المائية بعد موت عالم الآثار الجليل بعدة سنوات إلى تسهيل عمليات البحث فى البئر المقدس « بتشيتشان إتزا » بشكل لم يكن طومسون ليتصوره .

وقد تكونت بعثة جديدة ، دفعتها الروح الوطنية الصاعدة بين علماء الآثار فى المكسيك ، فقد فكروا أنه وإن كان قد تم الحصول على كنوز تفوق الوصف فى البئر المقدسة ، ولكن أين هى ؟ ؟

هل هى فى المكسيك ؟ ؟ كلا .

إنها فى متحف بيبودى بجامعة هارفارد على بعد آلاف الأميال من المكسيك وحتى التسعة والأربعون قطعة التى منحها متحف بيبودى للمكسيك سنة ١٩٥٠ لم تشف غليل أحد .

وقد تصوروا الاحتجاجات التى يمكن أن تصدر من الولايات المتحدة لو أن جماعة من علماء الآثار البلجيكيين مثلاً ذهبوا إلى نيو إنجلند وبدأوا فى التنقيب عن

آثار مجهولة «للآباء الحجاج» ، ثم حملوا كل ما وجدوه إلى متحف ما فى بروكسل. لو حدث هذا ، لحمل كل الشعب السلاح وطالب الكونجرس بعمل تحقيق ، وسيحتج المؤرخون على سلب قطعة حية من تاريخ أمريكا .

ولكن الواقع أنه لن يحدث شىء من هذا فى وقتنا الحالى لا فى أمريكا ولا أى مكان آخر . فلم يعد علماء الآثار الأجانب يهبطون ببساطة على أى بلد ثم يبدأون الحفر . فكل شىء أصبح من الواجب تنظيمه سلفاً .

ومع هذا فإنما تلك الصيحات لم تفد المكسيكيين فى شىء ، لأن أعمال طومسون كانت قد تمت منذ أمد بعيد ولم يعد فى الإمكان وقفها — بينما لازالت هناك مجموعة هامة من الأشياء الموجودة فى البئر المقدسة أو « السينوت » ، فقررت جماعة من المكسيك الكشف مرة ثانية فى السينوت بتشيتشان إتزا وقد أشاروا إلى أن طومسون قد استعمل أدوات بدائية ولا بد أنه ترك وراءه الكثير فى البئر ، وأن فى استطاعة الأدوات الحديثة تحديد مكان الأشياء المتبقية واكتشافها مع ضمان بقاء المكتشفات فى هذه المرة فى المكسيك . وقد صرح « بابلو بوش روميرو » رئيس الجماعة المسماة « نادى الاستكشاف والرياضة المائية بالمكسيك» « بأننا سنعطى بلادنا المجموعة التى نحصل عليها وتصبح ملكاً لها » وقد عرفت هذه الجماعة باسم « سيدام » Cedam وهو اختصار للحروف الأولى من كلماتها الإسبانية .

وتكونت السيدام من عدد من الأعضاء برزوا فى الغطس بالجلد ووجدوا متعة فى هذه الهواية . ولم تضم هذه الجماعة أى من علماء الآثار بين أعضائها ولو أنها مثل باقى مجموعات الغواصين بالجلد تهتم كمجموعة من الهواة بأى شىء قد تجده تحت سطح الماء فى مخابىء الكنوز الأثرية ، مثل سينوت تشيتشان إتزا .

وقد اشترك بعضهم فى بعثات أثرية فى أماكن أخرى من المنطقة واكتشفوا سفنا غارقة فى البحر الكاريبى .

ومع ذلك كانت هناك مصاعب فى تشيتشان إتزا تواجه من يعمل فيها : فمياه البئر مظلمة موحلة ، وستواجه الغواصين بالجلد مصاعب جمة فى رؤية الأشياء ذات الحجم الصغير فى المياه العكرة . ويمكن للغواصين أن يكتشفوا البئر بأنفسهم ، ولكنهم فى حاجة إلى وسائل كافية لرفع الأشياء الفنية القيمة إلى السطح .

وحملت جماعة السيدام مشكلتها إلى جورج م . كلارك رئيس جمعية يوكاتان للاستكشاف . واقترح مستر كلارك عليهم أن يستعملوا « مصعد لينك الهوائى » الذى أثبت فى وقت قصير أنه من أقيم الأدوات التى استعملها علماء آثار ما تحت الماء .

وقد اخترع « إدوين لينك » المصعد الهوائى وهو مشهور باسم مخترع « جهاز اللينك » الذى يستخدم فى تدريب الطلبة على الطيران . ولما كان لينك نفسه من بحاث تحت الماء ، فقد صمم مصعده الهوائى لاستعماله فى البحث عن المدينة الغارقة « بورت رويال » بجمايكا . ويتكون مصعد لينك الهوائى من أنبوبة يبلغ قطرها حوالى عشر بوصات تدفع تياراً « مضغوطاً » من الهواء وتمتص الأشياء الصغيرة الموجودة فى قاع المحيط وترفع إلى الشاطىء أو إلى ظهر السفينة .

ثم نظمت حملة إلى تشيتشان إتزا بأموال الجمعية الجغرافية القومية التى تشجع الكثير من مثل هذه الأعمال ، وزودت بمصعد هوائى لاستكمال عمل الغواصين .

من سيد ام والبحرية المكسيكية ، ولتمكين علماء الآثار المدربين من الإشراف على استخراج الأشياء من السينوت .

وكانت الخطوة الأولى هى إقامة ونش على حافة الصخرة لإنزال المعدات إلى البئر ، ثم أنزل بعناية صندل الغواصين وهو عبارة عن مصطبة طولها ١٢ قدماً وعرضها ثمانية حتى سطح الماء وهى مسافة تقرب من الثمانين قدما . وكان لابد من إنزال الغواصين أيضاً بالإضافة إلى المعدات بالونش ، إذ أن جدران السينوت الرأسية لا يمكن عمل سلالم بها .

ثم وقف الغواصون على الصندل الصغير يحملقون فى أعماق البئر المظلمة التى كان كهنة المايا يلقون فيها بضحاياهم من القرابين حتى خمسمائة عام خلت . ولم يكن أحد قد غامر بالنزول إلى مياه البئر المظلمة منذ سنة ١٩٠٧ بعد إ . هـ . طومسون — وقفز الغواصون إلى الماء وهم مرتدين رئات التنفس . وكان أحدهم ، وهو منتج سينمائى مكسيكى يدعى « جنارو هورتادو » يرتدى زياً غريباً للغوص ذا خوذة وحراشيف ملونة ، وكان هذا الزى متخلفاً من فيلمه الأخير « وحش الأعماق » أما باقى الغواصين فكانوا يرتدون ملابس غطس عادية مريحة وملائمة .

ولقد وصف أحدهم — وهو مصور مجلة « ناشيونال جيوجرافيك » واسمه « بيتس ليتليهلز » وصف التجربة قائلاً « لقد كان الوضع كله مرعباً . كان يبدو كما لو أن الماء قد تحول إلى حبر . ولم يكن باستطاعتى أن أرى أبعد من راحة يدى مع استخدام الكشاف الضوئى تحت الماء . وبدأت أتحرك ذراعاً بعد ذراع ولا أسمع سوى أنفاسى ، ثم سرت فى خط على عمق ٤٠ قدماً نحو صخرة المرسى ، وتمكنت من تحديد شكل الصخر المستدير الأملس وكذلك الأشجار الملتوية والممتلئة بالماء ،

وذلك بلمسها بيدى . وعندما تحرك الماء ، تصاعد الطمى وعكر الماء بحيث أصبح لافائدة من ضوء الكشافات .

كانت محاولات الغطس الأولى لمجرد أن تتعرف البعثة على أبعاد قاع البئر وليس للبحث عن كنوز أثرية . وتساءل الغواصون بعضهم بعضاً عما يتمنون أن يجدوه فى البئر . وأجاب لافرن بدرسون — وكان يصور البعثة لحساب شركة الإذاعة الأمريكية ، وكان يتمنى أن يرى شيئاً جذابا ليصوره :

« أتمنى أن أجد هيكلاً عظمياً محلى بالجواهر » .

وأجاب ثلاثة آخرون من الغواصين « نتمنى أن نجد سكيناً للتضحية » لأنهم يعرفون أن كهنة المايا يقطعون قلوب الضحايا من أجسادهم قبل أن يرموا بهم إلى البئر .

وكانت أمنيات أعضاء آخرين من البعثة أكثر غرابة . تمنى « بيتس ليتلهيلز» أن يجد طقماً كاملاً من الأسلحة الاسبانية وهذا يعنى أن يكون قد ألقى بأحد الاسبان فى البئر إبان غزو المايا . أما عالم الآثار وليم فولان فكان يحلم باكتشاف تسجيلات هيروغليفية للمايا فى البئر . وأما قائد البعثة « بونشيانو سالازار» فكانت أمنيته معقولة أكثر من غيرها فقال « أتمنى أن أجد مالم يجده طومسون » .

وحان الوقت لتشغيل المصعد الهوائى بعد أن تمت محاولات الغطس الأولى لاكتشاف طبوغرافية قاع البئر — فكان لابد من إنزال سقالات خشبية كبيرة فى البئر تحملها براميل من الصلب تساعدها على الطفو وفى وسطها ثقب تنفذ منه أنبوبة مصعد الهواء ، وقام أعضاء البعثة بعمل مصفاة من الأسلاك حول الانبوبة ، لتحجز أى آثار قد ترفع مع الماء ، بينما يتساقط الماء والطمى من خلال الثقوب .

وبينما هم يقيمون المصعد الهوائى، جاء رجل ليزور الموقع، كانت تبدو من تقاطيع وجهه ذات الأنف المقوس وعظام الوجنتين البارزتين أنه تجرى فى عروقه دماء المايا النقية — كما كان يتكلم لغة المايا . وقال « لقد كنت أعمل هنا عندما جاء السنيور طومبسون لينزح البئر » ، وأخبر المجموعة أنه كان يعمل فى جانب آخر من البئر .

وقد زادت هذه الأخبار السارة من حماسهم ، فلربما رفع المصعد الهوائى كنوزاً لم يمسسها طومسون .

وبدأ المصعد الهوائى يعمل ، وفوهته بارزة من العوارض الخشبية بينما طرفه الآخر على عمق ثلاثين قدماً فى المياه المظلمة حيث يراقبها الغواصون . ودبت الحياة فى المضخة وارتفعت المياه كالنافورة لتسقط فى المصفاة ، فرسب عليها حصى صغير وأجزاء خشبية . وكتم المشاهدون أنفاسهم .

وصرخ أحدهم قائلاً « هذا كوبال » . وكان هذا هو الاكتشاف الأول . والكوبال هو نوع من الأصماغ مثل المستكة كان المايا يستخدمونها كبخور فى حفلاتهم الدينية . وقد سبق أن وجد طومبسون مئات من هذه الكرات الصغيرة المستخدمة فى البخور .

وتتابعت الآن الكثير من هذه الحصوات ثم بدأت أجزاء من الفخار تترسب على المصفاة ثم أطباق السيراميك . وبعد ذلك بدقائق تصاعد تمثال صغير من المطاط يبلغ طوله اثنى عشر بوصة يبدو أنه أحد آلهة المايا . والآن بدأ المصعد يخرج أشياء هامة .

قطعاً لقد استهلك طومبسون محتويات بئر التضحيات إبان أربع سنوات من العمل فى البئر .

وكان من المحال أخذ صور فوتوغرافية تحت الماء لأن تعكير المياه حجب كل تفاصيل أرض البئر .

ولكن الكنوز التى أخرجها المصعد الهوائى عوضت هذا النقص ، عندما بدأت الأنبوبة تغوص أكثر فأكثر فى القاع محركة طبقات من الطمى لم يمسسها إنسان منذ كرستوفر كولمبوس وربما قبل ذلك . وظهر المزيد من حبيبات الكوبال ، أحياناً مضغوطة داخل مواقد البخور الفخارية ، بأعداد لا تحصى من الحبيبات كما ظهرت أجزاء من حجر اليشم (الجاخ) المصقول ، والفخار السليم أو أجزاء منه . وانشغل علماء الآثار الواقفين على الصندل وهم ينتزعون كنوزهم من الحجارة والطمى التى ارتفعت مع الماء .

وبعد شهر من العمل الدؤوب خرج أول تشكيل خشبى إلى الضوء ، وهو تمثال بدائى الآلهة ولكن خطوط نحته تدل على القوة ، وربما يعبر عن آلهة المطر تشاك . ولقد كان هذا اكتشافاً هاماً حقاً . ولكن فى نفس اليوم قدم أحد الغواصين قرباناً لآلهة البئر عند ما فقد ساعته القيمة من طراز رولكس فى أعماق البئر الموحلة .

وأعادوا تجربة طومسون باكتشافهم مئات من الأجراس الصغيرة بعضها من النحاس ، والقليل منها فيه آثار ذهبية ، والنادر منها يحتوى على لسان الجرس . وقد « قتل » كهنة المايا كل ما رموه فى البئر وأسكتوا الأجراس بنزع مدقاتها وأتلفوا التماثيل الصغيرة المصنوعة من حجر اليشم وتماثيل الآلهة المصنوعة من الفخار .

وأمكن كذلك استخراج الكثير من الأشياء الأقل قدماً . ونحن نعلم أن

تشتشان إتزا كانت أحد المراكز السياحية المكسيكية الرئيسية لما يزيد عن أربعين عاماً وواضح أن قليلاً فقط من السياح هم الذين تغلبوا على رغباتهم فى قذف أى شىء فى البئر وهم يتمتعون بأمنياتهم ولهذا استخرجت من البئر عملات كثيرة مكسيكية وأمريكية ومن جمهوريات أمريكا الوسطى .

وأخيراً أخرج المصعد الهوائى جمجمة بشرية . وقد فحصها دكتور دافالوس هورتادو ، واستنتج منها أنها لفتاة فى الثامنة عشر من عمرها وتقاطيع وجهها تدل على الرقة والجمال ، ولكنها مثل باقى أطفال المايا تلبس شريطاً معدنياً لتفلطح مقدمة ومؤخرة الرأس ، لتزيد من جمالها حسب مقاييس جمال المايا .

وخرجت كثير من البقايا البشرية من المصعد الهوائى بالإضافة إلى هياكل حيوانات الباما والغزلان والنمر الأمريكى والتماسيح الأمريكية وغيرها .

وأحياناً لم يكن المصعد الهوائى موفقاً فى الاختيار . ففى السنين الغابرة تهدم جزء من المعبد الواقع على حافة الهاوية وسقط فى البئر . ولذا نجد أن المصعد الهوائى ينسد أحياناً وهو يرفع كتلاً حجرية من آثار المعبد ويتوقف ، فيسبب الوقت اللازم لإصلاحه تعطيل العمل لمدة طويلة .

واستمر العمل لمدة أربعة شهور تقريباً . وكانت النتائج مذهلة .. ولم يكن طومبسون قد بدأ بعد فى استهلاك محتويات البئر المقدس : فمن بين ما يزيد على أربعة آلاف من المقتنيات التى حصلت عليها البعثة الجديدة لحكومة المكسيك ، وجدت حبيبات من الذهب الصلب وحجر اليشم أو الصوان ، وسكين من العظام منقوش عليها كتابة هيروغليفية . وعقود رائعة الجمال من حجر اليشم ، وعديد من العرائس والآلهة النادرة ، وميداليات نحاسية منقوش عليها صور الآلهة وخواتم نحاسية مفتوحة وغيرها كثير .

ومع ذلك فلا زال البئر بعيداً عن أن يسلم كل كنوزه . ففى السنين القادمة ستعود بعثات أخرى إلى هـذا المكان الـكئيب حيث ألقى كهنة المـايا الصارمين — منذ مئات السنين — بضحاياهم المخيفة إلى الهلاك بينما الجماهير المتحمسة تلقى فى البئر بسيل منهمر من الهدايا المقدمة إلى الآلهة . ومن المشروعات المستقبلة إعادة بناء المعبد ، ولـكنها عملية ستتكلف الـكثير نظراً لأنه يجب وضع أطنان من الحجارة الساقطة فى البئر . ويأمل علماء الآثار أن يتمكنوا فى يوم قريب من استعمال مضخات مائية لتجفيف البئر تماماً حتى يمكنهم التجول بحرية فى القاع الموحل جامعين نفائس المواد المؤكد وجودها .

ومع ذلك فهناك كنز معين لن يمكن لعلماء الآثار أن يجدوه مستقبلاً . فقد حدث أن أحد أفراد المايا المعاصرين ويسمى « إفيلينو كانول » ويعمل كرئيس عمال عمليات النزح — وكان مهتماً جداً بالمشروع حتى إن الغواصين علموه كيفية استخدام الرئة المـائية — حدث أنه فى آخر يوم للعمل فى البئر المقدسة قام بالغوص للمرة الأولى والأخيرة وعند ما ارتفع إلى السطح بعد عدة دقائق ونزع الجزء الفمى من الجهاز أن سرت همهمة بين الجميع . . لقد كان يحمل بكل كبرياء ما وجده . . . الساعة الرولـكس القيمة التى فقدها الغواص فرناندوا إيوان منذ ثلاثة شهور .

هذا ولم تـكن بعثة تشيشتان إتزا سنة ١٩٠٦ أول بعثة استخدم فيهـا علماء آثار ما تحت الماء لاستعادة كنوز المايا . فقد سبقتها بسنوات قليلة بعثة أخرى فى شمال يوكاتان . واكتشف الغواصون بالجلد بئراً مقدسة لإحدى مدن المـايا الهامة واسمها دزيبيلتشالتون .

وينطق اسم المدينة متقطعاً هكذا « دريب — يل تشال — تون » . وقد

اشتق هذا الإسم من كلمة للمايا تعنى « حيث يوجد كتابة على الحجر المستوى . »
وهى من أكبر مدن المايا المعروفة وتبلغ مساحتها عشرون ميلاً مربعاً - أكبر من مساحة واشنطن ، وثلث مساحة مدينة مكسيكو .

وقد ركز علماء الآثار عملهم فى أراضى المايا لسنوات عديدة حول المواقع المعروفة مثل تشيتشان إتزا وإكسمال فى يوكاتان ، وكوبان فى هوندوراس . وحتى سنة ١٩٤١ لم يكن معروفاً وجود مدينة هامة فى دزيبيلتشالتون . ففى هذا العام زار كل من أ . ويلليز أندروز والمرحوم دكتور جورج و . برينرد — وهما من علماء الآثار — هذا الموقع ليدرسا بعض المواد الفخارية التى وجدت قريبة من المكان ، واندهشا عندما أدركا أنه توجد تحت أقدامهما واحدة من أكبر مدن المايا مدفونة تحت الأحراش .

فلم تكن دزيبيلتشالتون كبيرة فحسب بل وقديمة وقد سكنها الناس منذ مدة طويلة قبل ميلاد المسيح .

وقد بنيت معظم مدن المايا ما بين ٤٠٠ — ١٠٠٠ سنة بعد الميلاد ، ولكن مدينة دزيبيلتشالتون ترجع إلى أبعد من هذا بكثير . ولم تهجر كما حدث لكثير من مدن الأدغال . وتدل الحقائق الأثرية على أن المايا عاشوا بشكل مستمر فى دزيبيلتشالتون آلاف السنين وربما ابتداءاً من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد حتى الغزو الإسبانى فى القرن السادش عشر .

ويبدو أن دزيبيلتشالتون تكاد تغير النظريات الراسخة عن المايا . ففى مبدأ الأمر كان من المعتقد أن جماعات المايا القديمة كانت تسكن فى أراضى الأدغال الواطئة فى الجنوب فى جواتيمالا وهوندوراس ثم زحفوا شمالاً إلى يوكاتان فى أواخر عصرهم فقط . ولكن هاهى مدينة هامة للمايا وهى بلا شك قديمة —

وتقع فى أقصى الشمال بما لا تبعد عن مدينة تشيتشيان إتزا الحديثة نسبياً إلا بخمسة وسبعين ميلاً .

ولم يكن عام ١٩٤١ مناسباً لقيام بعثات كبيرة للبحث عن الآثار : فقد احتاجت الحرب جهود كل إنسان . ولم يتمكن دكتور أندروز من العودة إلى دزيبيلتشالتون إلا بعد ذلك بخمسة عشر عاماً . ففى عام ١٩٥٦ أعطت الحكومة المكسيكية الحق لجامعة تولين بنيو أورليانز فى الحفر فى دزيبيلتشالتون لمدة أربعة مواسم ، ورأس البعثة الدكتور أندروز .

وبعد أن ألقى علماء الآثار نظرة عاجلة على الأطلال صعقوا من حجمها ، إذ لم يكن يبدو للعين فى أول وهلة إلا جزءاً يسيراً منها ، لأن الأدغال قد غطت الكثير من الأبنية — كما سرق المعاصرون الذين رصفوا الشوارع كثيراً من الحجارة والأبنية . وما أن بدأ العلماء بحثهم حتى رأوا الكثير مما هو مدفون تحت الأرض ، وكانت المساحة الوسطى وتبلغ ١٠ أميال مربعة مملوءة بالقصور والمعابد والأهرام ، والقواعد الحجرية للأكواخ التى تلاشت . ووجد علماء الآثار بعد هذه البقعة الرئيسية « ضواحى » منتشرة فى جميع الاتجاهات ، وبها معابد ومنازل بأعداد كبيرة . وكشف البحث الأولى عن الأطلال ما يزيد عن أربعمائة مبنى — وكان هذا مجرد قطاع صغير من عاصمة المايا .

كانت مدينة هائلة . يشقها طريق عريض من الحجر الجيرى ارتفاعه ثمانى أقدام . وكان من الاتساع بحيث يسمح بمرور أربع سيارات وطوله ميل ونصف الميل — وكان يربط ما بين الأهرام والمعابد ذات الطراز المجهول . ويوجد بالقرب من هذا الطريق قصر كبير يشغل مساحة مقدارها اثنى عشر فداناً ، وهو أكبر من أى مبنى من مبانى المايا التى اكتشفت حتى ذلك الوقت .

وكتب الدكتور أندروز يقول « لم يكن في مقدورنا أبداً أن نحفر كل القصر فهذا يستلزم من ١٠ — ١٥ سنة من العمل المتواصل لمئات العمال . ولكننا لا نملك إلا أن ننقر هذا المارد المدفون ، وكلفنا مجموعة من العمال بالقيام بحفر شق واحد كبير استطلاعي فيما بدا لنا وكأنه كومة كبيرة من الفضلات خلف أحد أجنحة القصر . كنا نبحث عن شيء نادر جداً — هو تمثال حجري لآلهة الرعي عند يوكاتان ، لأن الرواسب العميقة من الأشياء الفنية التي لم تمس من قبل قادرة على أن تكون شاهداً على القرون الطويلة » .

« وهذا هو بالضبط ما وجدناه » .

« فخلال سلسلة من الحفر لمسافة ١٦ قدماً عرضاً و ١٤ قدماً في العمق استخرجنا ما ينيف عن ٢٥٠٫٠٠٠ قطعة من الفخار ، وهي غنيمة كبيرة تحتاج لشهور وسنين حتى يمكن تقييمها تماماً » .

ولم تكن كل كنوز دزيبيلتشالتون الأثرية مدفونة في الأرض . فيوجد في المدينة ما يزيد عن عشر آبار أكبرها وهو في وسط المدينة يبلغ عمق الماء فيه أربع أمثال بئر التضحيات الكبير في تشتشان إتزا . وقد اشتم الدكتور اندروز أن هذا البئر الكبير لابد وأن يحتوي على كنوز أثرية عديدة .

ففي الموسم الأول من العمل في دزيبيلتشالتون أقنع الدكتور أندروز اثنين من الطلبة المتفرغين من جامعة فلوريدا وهما دافيد كونكل وثني روبينت أن يرتديا رئات مائية وأن يكتشفا البئر الكبير . ولم يمض وقت طويل حتى وجدا مخزناً من آثار المايا الهامة ، وأخرجا في أيام قليلة أجزاءاً من حجر الصوان المنحوت ، وأقراطاً منحوتة من العظم ، وأواني أثرية قديمة وحوالي ثلاثة آلاف قطعة فخارية .

كان لابد من القيام بعملية استكشاف كبيرة للبئر .

فبينما قامت مجموعة الباحثين فى علم الآثار بعملهم الضخم فى رفع الأتربة عن المدينة المدفونه ، رسم آخرون خطتهم فى غزو البئر . وكان هذا البئر معروفا باسم بئر زلا كاش وتنطق شالا كاش وهى تعنى عند المايا « بئر المدينة القديمة » — كان هذا البئر على شكل جورب عظيم يمتد قدمه وأطرافه تحت حافة صخره . ويبلغ قطر أكبر اتساع للبئر ١٠٠ قدم أما عمقه فلا يقل عن ١٤٠ قدماً ثم ينثنى البئر على عمق ١٤٤ قدماً داخل الصخر ليمتد إلى مسافة غير معروفة وفى ظلام تام .

ويوجد فى ياكاتان مئات من هذه الآبار . ويغطى كل شبه جزيرة ياكتان بالحجر الجيرى الناعم، ولا يوجد بها أى أنهار أو ترع ولكن هذه الفتحات الكبيرة الموجودة هنا وهناك فى الحجر الجلدى تكونت وامتلأت بالمياه الجارية على مر القرون . ولما كانت هذه هى المصادر الوحيدة للمياه العذبة فى شبه الجزيرة فقد بنى شعب المايا مدنهم بالقرب من الآبار الهامة .

وهذا ما كتبه أحد كتاب المجلة الجغرافية الأهلية ويدعى « لويس ماردن »، وكان قد دخل بئر دزيبيلتشالتون مرتدياً رئة مائيةفقال « أخذت نفساً من الهواء المضغوط وانسللت إلى الماء ثم هبطت إلى أسفل إلى الأغوار المظلمة الكئيبة . . . واندفعت نحوى أسراب من الأسماك الفضية المفرطحة يدور حول رأسى بينما أحملق فى الظلام ، فوجدت تحتى بساطا أخضر من خصل الأعشاب المائية حيث تتوقف بشكل مفاجىء حدود الأشعة الضوئية . وأسفل هذه الطبقة المعلقة يبدو لأول وهلة وكأنه ظلام كامل . وتوقفت لأرهف أذنى ولأشعل المصباح الكهربائى الذى يتدلى من رسغى . وعندما أخذت عيناى على الظلام رأيت انحناءة السقف الواسعة والجدار الخلفى على شكل نصف دائرة مظلم وكأنه مسرح يبدو فى ضوء القمر .

وتنحدر الحجارة الصغيرة المنثورة إلى أسفل بزاوية مقدارها ٥٠ درجة » .

واستمر ماردن فى الهبوط فى البئر — وماردن مصور وكاتب قام بأعمال مشهورة تحت الماء — حتى وجد أحجاراً منحوتة مبعثرة فى كل مكان وهى من أعمال المايا الفنية التى يبدو أنها سقطت فى البئر منذ ألف عام . وتبعه مصور آخر فى المجلة الجغرافية الأهلية هو « بيتس ليتلهيلز » حتى وصلا إلى طرف البئر الشبيه بالسرداب ودخلا سرداباً معتماً منخفضاً وكان على عمق ١٢٠ قدماً « وبدأت تخرج فقاقيع الزفير من منظمات الأجهزة بصوت مرتفع » وعندما أمسكت أنفاسى تمكنت من سماع حفيف نباتات عش الغراب الفضية وهى تصطدم بالصخور على مسافة بعيدة فوق رأسى .

« ونظرت إلى أعلى فرأيت تحت منحنى الصخور فتحة السطح تلمع بلون أخضر باهت وقد حجبت كتل من الصخر المائل الضوء الخافت كما لو كانت قوائم مخيفة لبوابة الجحيم البارد الساكن » .

وكان الاكتشاف الأول من نصيب ليتلهيلز ، فقد هبط ليسحب عنق إناء مكسور من قاع البئر ، وعندما خلصها من القاع تصاعدت سحب سوداء من الطمى حتى استحالت الرؤية رغم وجود الكشافين الضوئيين . فأشارا لبعضهما ليعودا للسطح حيث أنهما قضيا عشرين دقيقة فى الماء وهو الحد الأعلى للأمان .

بعد هذا الاستكشاف الأول أخذ ماردن وليتلهيلز واثنان آخران من الغواصين المكسيكيين — وهما فرناندوإيوان وإيرل بتشت — خطافاً إلى قاع البئر حتى يعملوا اتصالاً مع سطح الماء (وكان إيوان هو الذى فقد ساعة يده فى تشتشان إتزا بعد ذلك بسنوات قليلة) . فيصل خط ما بين منصة الغطس على سطح البئر وبين الخطاف الذى يزن ستة عشر رطلاً . وبذا يمكن للغواصين أن يتبعوا

هذا الخط الأبيض فى هبوطهم وصعودهم أثناء العمل .

وبدا على عمق ستين قدماً تل من الأنقاض يتألف من أحجار منحوتة من كل الأحجام والأشكال ، وكأنه مبنى بأكمله انهار فى البئر فيما مضى . وقد حكى أحد الوطنيين المحليين لماردن أسطورة عن البناية المنهارة : كانت لأحد ملوك المايا وفى أحد الأيام جاءته والدته تطلب بعض الماء ، ولكن الملك أجابها أنه ليس لديه مايزيد عن حاجته، وطردها. واستطرد المتكلم قائلاً «وفى ثورة غضب الآلهة زلزلت الأرض تحت الملك وتحت منزله الجميل وغاص الجميع فى البئر — وعندئذ أصبح لدى الملك فائض من الماء »

ووجد الغواصون على عمق ستين قدماً سلالاً ملأى بالأوانى المكسورة، وقد تبدو عديمة الأهمية ، ولكنها ذات قيمة أثرية كبرى . فصناعة الفخار هى دائماً من أهم وسائل المعرفة فى علم الآثار على نطاق عالمى . ويميل طراز صناعة الفخار فى العالم القديم إلى أن يدوم كما هو بعشرات بل مئات من السنين . وبمقارنة الأطرزة المختلفة لصناعة الفخار فى أى موقع يمكن لعلماء الآثار أن يحددوا بشكل عام تاريخها . ومع أنه لايمكنهم سوى تخمين عمر أى قطعة بالدقة إلا أنه يمكنهم تمييز أى قطعة أقدم من الأخرى بدقة متناهية. وهكذا يرسمون خطة لتاريخ صناعة الفخار يستعملونها فى مواقع أخرى فى نفس المنطقة .

وقد التقط الغواصون آلافاً من القطع الفخارية أو الشقفات من تل الأنقاض. وحتى يتمكنوا من المحافظة على رصيدهم من هواء التنفس لأطول مدة فقد كانوا يتمددون على المنحدر ورؤوسهم إلى أعلى ويتحركون فى أضيق الحدود ، وبهذه الطريقة يبقى الهواء المضغوط لأطول مدة — قد تصل إلى خمسين دقيقة، وفى أثنائها يملأون سلالهم — المصنوعة من الأسلاك — بقطع الفخار . وكان الطمى عند

إخراجه من الماء ناعماً ومفتتاً ولـكنه سرعان ما يتحمص تحت أشعة الشمس الإستوائية ويتحول إلى مادة صلبة .

وكان الغواصون حريصين على ألا يزحزحوا أى حجر من الأحجار الـكبيرة فى تل الأنقاض ، لأنهم إذا حركوا واحداً منها فانها تبدأ فى الانهيار — وهذا يرغم الغواصين على إخلاء المـكان كما أن هذا الانهيار يثير سحباً من الطمى توقف العمل مؤقتاً .

ولعدة أيام لم تظهر سوى أجزاء من الفخار . وفى يوم من الأيام وجد ليتلهيلز مخرازاً طويلاً من العظام مغطى بكتابة المايا الهيروغليفية . وتعتبر هذه قطعة ثمينة حتى وإن لم يتمكن علماء الآثار حتى الآن من قراءة ما عليها من المخطوطات . ثم ظهرت بعد ذلك أعداد أخرى من هذه المخاريز . وقد ظن الدكتور أندورز أنها ربما سقطت مصادفة من فتيات المايا أثناء رفعهم الماء من البئر . ولـكن اكتشفت أشياء أخرى بعد ذلك مباشرة مما دل على استعمالات شريرة لهذا البئر — ومن الأمثلة على ذلك ناى من الطين ، وتمثال صغير لرأس ، وحلقات للأنف ، وحلى أخرى للجسم ، ثم عظام بشرية ، مما دل على أنه قد قدمت تضحيات إلى بئر دزيبيلتشالتون كما حدث فى تشيتشان إتزا .

واستغرق استهلاك كل ما فى تل الأنقاض على عمق ستين قدماً أسبوعين . ووصل الغواصون إلى مستوى ثمانين قدماً فى العمق . وهبط الغواصون ورؤوسهم إلى أسفل إلى الأعماق الموحلة الرطبة للبحث عن كنوز المايا . وبدأوا ينزعون الأوانى من الطين بكل حرص ، وكان بعضها مـكسور وقليل سليم ، وهى أمثلة رائعة على فن وطراز المايا . ثم وجد ماردن بعض أجزاء من الشعب المرجانية . . ولما كانت الشعب المرجانية لا تنمو فى الأماكن التى لا تصلها الشمس ، فلابد وأن

هذه الأجزاء قد ألقيت طواعية فى البئر ، ربما كجزء من بعض الشعائر الدينية التى عفى عليها الزمن .

ولم يهتم الغواصون كثيراً بالعلل الناجمة عن الضغط ، طالما كانوا يعملون على عمق ٦٠ قدماً ، بل وكانوا يبقون تحت الماء بما يقرب من الساعة ، ويكررون الهبوط عدة مرات فى اليوم دون أن يخشوا أى نتائج سيئة . ولكن عندما تحركوا لعمق أكبر ، أصبح للضغط قوة يجب وضعها فى الاعتبار ، إذ يذوب النيتروجين ببطء داخل الجسم ، وإذا صعد الغواص إلى السطح بسرعة كبيرة أو مكث تحت الماء مدة طويلة أو كرر عمليات الغطس عدة مرات فى نفس اليوم لتحول النيتروجين إلى فقاقيع غازية تسرى فى الدم مسببة شللاً أو موتاً مؤلماً .

وفى يوم ما غاص كل من ماردن وليتلهياز وغاصا إلى أقصى نقطة عميقة فى البئر — على مستوى ١٤٤ قدما — وبقيا هنالك خمسة عشر دقيقة فقط ، وحرصا على أن يعودا إلى السطح بسرعة خمسة وعشرين قدما فى الدقيقة . ولكنها كانت المرة الثالثة التى يغوصون فيها فى نفس اليوم ، ويبدو أن جهاز ماردن قد امتص من النيتروجين أكثر من الواجب بالرغم من أنه لم يبق فى الماء أكثر من اللازم . وبعد أن صعد إلى السطح بخمس دقائق بدأ يحس وخز آلام فى ذراعه الأيمن .

وأدرك ماردن — وهو المحنك على الغوص لمدة سبعة عشر عاماً — أنه لا بد قد امتص من النيتروجين أكثر من اللازم ، فلم يضع وقتاً طويلاً ، وربط خزاناً جديداً مملوءاً بالهواء المضغوط إلى ظهره وهبط إلى عمق ستين قدماً وبقى هنالك لمدة عشرة دقائق آملاً أن يتخلص من معظم النيتروجين الزائد ، ثم بدأ يصعد بحذر وببطء . ولكن الآلام عاودته . فهبط ثانياً وبقى عشرين دقيقة على عمق ثمانين قدماً ، ومع ذلك اختلج ذراعه بالألم عند ما وصل إلى السطح ، وكان

يرتعد من البرد وقد ازرق لونه فلم يكن هناك مجال للغوص مرة أخرى وأدرك أنه فى حالة خطرة وأنه أصيب بالمرض الناتج من زيادة الضغط.

وأعد أحد المهندسين غرفة ضغط للاسعاف السريع على اليابسة ودخلها ماردن، وكذا ليتلهيلز رغم أنه لم يكن يشعر بأى ألم ولكن زيادة فى الاحتياط . ولكن هذه الحجرة لم تمدهم بالضغط المطلوب ودبرت حجرة أخرى على وجه السرعة وأدخل فيها ماردن بمفرده . ودلت الجداول الإحصائية للضغوط على أنه يجب إبقاء ماردن لمدة إحدى عشر ساعة لضغط يعادل عمق ١٦٥ قدماً لتخليص جسمه من النيتروجين الزائد . ولذا أدخل فى خزان مملوء بالزيت الساخن ثم زيد ضغط الهواء الداخلى بما يلائم الضغط المطلوب . وكان أصدقاؤه يطرقون جدار الخزان بين حين وآخر ويرد عليهم ماردن بطرقات ضعيفة ليخبرهم أنه لا زال على قيد الحياة أو أنه غير مستريح تماماً . ثم أطلق سراحه بعد ست ساعات وإثنى عشر دقيقة وخرج شديد الذبول والبلل . فالخزان حتى بعد التعديلات التى أضيفت إليه لم يصل إلا إلى ضغط يعادل عمق مائة قدم . وشعر ماردن بتحسن ولكنه كان لا زال يعانى من الألم . وهنا بدأ ليلتهيلز يشكو من تصلب فى رقبته وأنه لا يمكنه النهوض .

وعندما سمعت قنصلية الولايات المتحدة القريبة من ميريدا عن المشكلة اتصلت بمدينة مكسيكو سيتى ، حيث قام السفير هناك بعمل الترتيبات اللازمة لنقل كل من الرجلين بالطائرة إلى فلوريدا ، حيث يوجد لدى البحرية حجرة لتنظيم الضغط المطلوب ، وكان على الطائرة أن تطير على ارتفاع تسعة آلاف قدم فقط لأنها لو ارتفعت عن هذا فستتمدد فقاقيع النيتروجين فى الأوعية الدموية للمريضين مما يزيد الحالة سوءاً .

وقد أمضيا أربعاً وأربعين ساعة وستاً وعشرين دقيقة فى خزانات البحرية .

وكانت جلسة فكهة ، ولكنهما خرجا منها وقد شفيا من الألم . وبعد عدة أيام من الراحة تمكنا من العودة إلى دزيبيلتشالتون . ولقد كانت هذه التجربة القاسية مثلاً حياً عما يلاقيه علماء آثار ما تحت الماء من مخاطر .

ولقد كانت أسابيع البعثة الأخيرة فى ذلك العام مثمرة . فقد هبط الغواصون مع انحدار البئر حتى وصلوا إلى مستوى لا فائدة فيه . ثم عادوا إلى تل الأنقاض على عمق ستين قدماً حيث حصلوا على سلسلة من المقتنيات منها تمثال من الطين للجغبور أو النمر الأمريكى طوله خمس بوصات ، وطبق ذو لون برتقالى لم يمس تقريباً ، وسبحة من حجر الصوان ، وعظام منقوش عليها بالهيروغليفية ، وقناع خشبى غريب قال عنه ماردن « يبدو من هذا الوجه ذى الوجنات البارزة ورداء الرأس الغريب ذى المفرقين المرتفعين والفم الواسع المفتوح أنه أقرب إلى الإفريقى منه إلى المايا » . وكذا ظهرت أشياء كثيرة تصلح للعرض فى المتاحف .

ولم ينته العمل بعد فى دزيبيلتشالتون ، فبعض المواقع الأثرية لم تستهلك تماماً ، وكثيراً ما تعود البعثات لتفتح عروقاً جديدة من الكنوز . وربما يكون قد تم استخراج كل المحتويات الهامة من بئر دزيبيلتشالتون ، ولكن لا يزال باقياً الكثير من الآبار الصغيرة فى نفس المدينة . وسيشغل حفر الأجزاء المدفونة من المدينة علماء الآثار لعدة سنين قادمة .

وهناك موقع آخر ساعد فيه الغواصون بالجلد علماء الآثار على إلقاء الضوء على مدنية المايا . وهذا الموقع هو بحيرة أماتيتلان بجواتيمالا . فمنذ سنة ١٩٥٤ بدأ الغواصون بالجلد فى اكتشاف آثار المايا الفنية فى هذه البحيرة ، أولاً على أساس هواية ، ثم تحت الإشراف الدقيق لعلماء الآثار المحترفين .

وقد كانت بحيرة أماتيتلان هى مركز مدنية « مايا الأراضى المرتفعة » وهى

أقل شهرة من ثقافة « مايا الأراضى المنخفضة » الموجودة فى يوكاتان وجنوب المكسيك — فلم يبن شعب مايا الذى يقطن الأراضى المرتفعة معابد حجرية مهيبة وأهرامات من النوع الذى يسلب لب وخيال الزائر فى يوكاتان ومدن الأدغال فى الأراضى المنخفضة بهندوراس وأجزاء من جواتيمالا . وقد انهارت منازلهم وتحولت إلى تراب على مدى التاريخ وكانت مصنوعة من الطين التى — اللبن — المحمص بحرارة الشمس والمليس بالطين . وقد نمت الحشائش على الروابى التى كانت فى يوم ما تصور مايا الأراضى المرتفعة .

كذلك كان شعب الأراضى المرتفعة أقل تقدماً من الناحية الثقافية عن المايا فى الشمال ، فلم يستعملوا تقويم المايا الدقيق لدرجة خيالية ولا كتابتهم الهيروغليفية المشهورة أو فنونهم المعمارية الجذابة . ولكل هذه الأسباب ظل علماء الآثار يجهلونهم حتى عهد قريب ، كما كرست كل مجهودات الحفر الأثرى لوسط أمريكا للكشف عن ثقافة الأراضى المنخفضة التى تستحق الاهتمام .

ولقد تم بالفعل القيام بقدر كبير من الحفر فى العشر السنوات الأخيرة . ولكن أكثر آثار مايا الأراضى المرتفعة أهمية هى التى وجدت فى قاع بحيرات جواتيمالا . فقد اكتشف أحد الباحثين غير المحترفين عن الآثار أثناء غطسه فى ابريل سنة ١٩٥٥ فى بحيرة أماتيتلان وهى على ارتفاع أربعة آلاف قدم فوق سطح الماء وسبعة عشر ميلاً جنوب عاصمة جواتيمالا وتسمى مدينة جواتيمالا — عثر على إناء فخارى سليم . وفى خلال سنوات عديدة تالية وجد بعض الغواصين بالجلد ما يزيد على ستمائة إناء ومباخر ونحت على الحجر .

ووصل إلى الدكتور « ستيفان ف . بورهيجى » سنه ١٩٥٧ خبر هذه الاكتشافات ، وكان عالم الآثار هذا (وهو مجرى الأصل ويعيش الآن فى

الولايات المتحدة) على رأس بعثة فى ذلك العام فى منطقة الأراضى المرتفعة لحساب جامعة سان كارلوا بجواتيمالا ، وقد أثار اكتشاف العالم الهاوى اهتمامه وقرر فى الحال أن يقوم باكتشاف منظم للبحيرة على امتداد خط سير جاك إيفز كاستو الذى قام بأعمال مشهورة فى جراند كونجلويه قبل ذلك بسنوات قليلة .

وقد أدرك علماء الآثار أن بحيرة أماتيتان تحتوى على آثار المايا حتى قبل أن يجد أول غواص بالجلد اكتشافه : فقد لاحظ المسافرون منذ أكثر من مائة عام ، أن بعض الأوانى الفخارية القديمة تظهر على شواطىء البحيرة وفى مياهها . ورأى أحد علماء الآثار الألمان فى سنة ١٨٩٦ وهو يزور البحيرة أوانى غريبة «مبرشمة» وجدت فى البحيرة .

ثم درس علماء آخرون بما فيهم الدكتور بورهيجي الأوانى الفخارية التى وجدها الصيادون فى البحيرة ، ولكن أحداً لم يكن يتوقع أبداً أن البحيرة مخزونة بالعاديات الماياوية .

وبدأ الدكتور بورهيجي برسم دقيق لكل مواقع الاكتشافات التى تمت فى البحيرة منذ سنة ١٩٥٥ ، وقسمت البحيرة إلى الحوض الأعلى والأسفل اللذين تصلهما قناة « عنق الزجاجة » ، وهى ضيقة وعمقها ست أقدام فقط . ولم يوجد شىء ذو أهمية فى الحوض الأعلى ، ولذلك ركز علماء الآثار علمهم على الحوض الأسفل حيث يختلف العمق من ١٠ — ١٣٠ قدماً .

وفحص العلماء الأشياء التى وجدها الهواة والتى تزيد على الستمائة ، وعرفوا أن هناك تسعة مخابىء مطمورة منفصلة : سبعة منها فى الشاطىء الجنوبى بجانب الينابيع الحارة الفوارة ، والاثنان على الشاطىء الشمالى .

ولحسن حظ الدكتور بورهيجي وجماعته أن الهواة سجلوا بدقة كل ما لقوه بالنسبة لكل قطعة وفى أى موقع وجدوها والعمق الذى وجدت عنده. وقد كتب الدكتور بورهيجي يقول « تتكون العينات من أطباق عميقة للقربان ، وأوان مبرشمة ، ومواقد للبخور يتفاوت ارتفاعها ما بين بضع بوصات وأربع أقدام ونصف • وكانت مواقد البخور ذات قسمين أو ثلاث شعب، والكثير منها عليه علامات ورسوم غيرعادية مثل أشجارالكاكاو والقرون وفواكه البابايا وأزهارها وطيور الكوتزال ، ورؤوس الجغبور ، وقرود العنكبوت وغير ذلك من ثعابين وسحالى وخفافيش وحتى جماجم بشرية، وهى رموز نادرة أوغير معروفة فى الأراضى المرتفعة من مناطق المايا ومن بين الآلهة العديدة عند المايا يوجد آلهة المطر ، وتشاك أو تلالوك وهو آلهة الجغبور ، وآلهة الشمس ، وايكاتل آلهة الريح (نوع من الكوتزالكوتل أى الحية المجنحة) وزيب توتك آلهة الاخصاب ، وآلهة الموت، وكذلك وجدت تصميمات جميلة لرؤوس بشرية تطل من بين فكى الحيوانات والوحوش ومناقير الطيور » .

وبعد أن تم توصيف الأوانى وتقسيمها، لاحظ الدكتور بورهيجي أن بعض أنواع الفخار جاءت من مواقع معينة مميزة فى البحيرة. وهذا قد يعنى أن كل موقع منفصل كان يمثل فترة زمنية مختلفة، وكان كل موقع بالقرب من الشاطىء مما يوحى بأن الأوعية كانت يقذف بها فى البحيرة كقرابين للآلهة .

وحتى يمكن تحديد الأعمار النسبية للفخار فى البحيرة ، كان على جماعة الدكتور بورهيجي أن تعيد فحص المواقع الأثرية المعروفة على الأرض المحيطة بالبحيرة ، وكان مجموعها خمسة . أقدمها هو الموقع (ب) وكان مسكوناً من ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد إلى سنة ٢٠٠ ميلادية — ويليه موقع (جـ) حيث دلت القطع الفخارية على أن المايا سكنوا هذا المكان من سنة ٢٠٠ ميلادية إلى ٦٠٠ ميلادية —

وكان الموقع (أ) هو أكبرها ويقع على أرض مرتفعة ويطل على الطرف الغربى من البحيرة ، ويبدو أن المايا احتلوه من سنة ٢٠٠ ميلادية إلى حوالى ١٠٠٠ ميلادية . ويتكون الموقع (أ) من خمس وعشرين أكمة — اثنتان منها ملاعب للكرة حيث أن المايا كانت تلعب لعبة لا تختلف كثيراً عن كرة السلة .

أما الموقعان الآخران (د١) و(د٢) فقد كانا على سفح الجبل على ارتفاع خمسمائة قدم فوق الموقع (ب) . ويرجع كل فخار هذين الموقعين إلى أكثر من ١٢٠٠ سنة ، ولكن كان بعضها تصميمه يشبه ما ظهر عند غزو الأسبان لهذه المنطقة سنة ١٥٢٤ .

ويمكن مقارنة الصناعات الفخارية التى وجدت فى البحيرة بأشكال الفخار التى وجدت فى كل من الخمسة المواقع القائمة على الشاطىء . وقد دل هذا على أن منطقة البحيرة كانت دائماً وأبداً آهلة بالسكان على مدى ثلاثة آلاف سنة .

وبدأ الدكتور بورهيجي بدراسته للأوانى ومواقد البخور — واستطاع أن يحدد معالم تاريخ هذه المنطقة بدرجة يبدو أنها صحيحة على الأقل بشكل عام .

فقد استنتج أن قبائل المايا المتجولة قد استقرت حول بحيرة أماتيتلان من حوالى ١٠٠٠ قبل الميلاد . وفى ذلك الوقت تقدموا فى بناء المنازل وصناعة الفخار التى تدوم آلاف السنين . وكانوا يعيشون أساساً على الصيد وصيد السمك والزراعة . وكانوا يقدمون القرابين من أوان فخارية للآلهة التى اعتقدوا أنها تعيش فى البحيرة ليحوزوا رضاها .

ولابد أن عيون الماء والنافورات الساخنة على الشاطىء الجنوبى من البحيرة قد دعمت هذه الاعتقادات . فالفقاقيع الكبريتية والاندفاع المفاجىء للمياه الساخنة كان يعزز اعتقادهم بوجود كائنات خارقة فوق الطبيعة تسكن تحت السطح .

أما البركان باكايا ذو الأربع فوهات الذى يشرف على البحيرة فكان يزلزل وينفخ بالحمم مما جعل الهنود يعتقدون أن هناك آلهة تسكن فى الجبال .

وفى حوالى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد انتهت الإقامة وتحرك المايا إلى جزء آخر مختلف من البحيرة بجانب الينابيع الساخنة . وبنوا قريتين يبدو أن إحداها كانت مزاراً مقدساً لأن معظم القرابين التى وجدت فى البحيرة كانت من طراز أعمال هذه القرية .

ومن المحتمل أن البركان ثار عدة مرات خلال هذه الفترة . كتب الدكتور بورهيجى يقول « لقد وجد غواصونا أوان فى مجموعات من أربع أو خمس قائمة منتصبة ، والقليل منها مغروز فى الحمم فى قاع البحيرة . وهذا يعنى أن هذه الأشياء وضعت فى مجارى من الحمم بالقرب من الشاطىء لتهدئة غضب الآلهة التى تسكن فى البركان. وهكذا انتقلت إلى البحيرة. وفى الغالب أتت الزلازل المصاحبة لفوران البركان على كل القرابين بما فيها القرابين البشرية » .

وتشير الجماجم والعظام إلى أن المايا كانوا يقدمون بين الفينة والفينة قرابين بشرية إلى الآلهة كما فعلوا دائماً فى مدن الشمال . وحوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية ظهرت إقامتين فى مكان أعلى من الجبل. وظهر من كتاب كتب فى القرن السادس عشر واسمه « تقرير عن مدينة سان جوان أماتيتان » أن المواقع الموجودة فى أعلى الجبل كانت لاتزال آهلة بالسكان عند الغزو الأسبانى وحتى بعد ذلك .

ولا تزال بحيرة أماتيتلان تتردد فيها بعض الشعائر الدينية التى يبدو أنها ترجع إلى أيام المايا . فتقول إحدى الأساطير المحلية أنه فى الأيام السابقة لحضور الأسبان كان صنم منحوت من الحجارة واقفاً على صخرة فى الشاطىء الشمالى من البحيرة . وهبت عاصفة عاتية أثناء القرن السابع عشر على البحيرة وعلى الصنم الحجرى الذى

غاب عن الأنظار : وفى صبيحة اليوم التالى عندما جاء الوثنيون إلى مزار الصنم وجدوا مكانه تمثالاً خشبياً لابن المسيح .

ولا يزال التمثال الخشبي موجوداً ومحفوظاً فى الكنيسة التى بناها الأسبان فى أماتيتلان . ويأتى الحجاج من كل أنحاء جواتيمالا فى اليوم الثالث من مايو ، ويؤخذ تمثال ابن المسيح من مكانه بالكنيسة ويحمل عبر مياه بحيرة أماتيتلان إلى المكان الذى وجد فيه، ويتبعه الحجاج مبتهجين فى قواربهم وزوارقهم الصغيرة ويلقون الأزهار والفاكهة فى البحيرة .

فمنذ آلاف السنين كانت القرابين من الفخار أو المسابح، أما اليوم فأصبحت زهوراً وفاكهة. وبتعبير الدكتور بورهيجيى «لقد بقى الاعتقاد فى سكنى الأرواح القوية لبحيرة أماتيتلان والرغبة فى اتقائها وكسب رضاها — بقى دون تغيير لفترة ثلاثة آلاف عام . وقد صمدت أو ألفت ما بين كل التأثيرات الدينية الأجنبية بما فى ذلك المسيحية » .

وكثيراً ما يشبه عمل عالم الآثار دائماً عمل المخبر! فكلاهما يجد فى جمع البراهين — التى تبدو غير مرتبطة — حتى يمكنها فى آخر الأمر أن يخرجا باستنتاج عن مشكلة معينة كانا يدرسانها . وقد ساعدت الأوانى الفخارية التى وجدت فى بحيرة أماتيتلان الدكتور ستيفان بورهيجيى على أن يستعيد ثلاثة آلاف عام من حياة المايا فى منطقة الأراضى المرتفعة . وقد تمكن آخرون باستخدام نفس الأسلوب الدقيق من تفسير القصة التى تحكيها بقايا الفخار والسبح ليكشفوا لنا عن الثقافات القديمة المختلفة .

ومن المؤكد أن الرئات المائية والمصاعد الهوائيـة ستلعب دوراً هاماً فى الاكتشافات الأثرية المقبلة فى وسط أمريكا .

وقد تحولت عادة المايا فى قذف الأشياء القيمة فى الآبار والبحيرات إلى أشياء هامة عندما يستعيدها الغواصون بالآلاف .

وستكشف السنين المقبلة عن كنوز قيمة من المعلومات الأثرية الموجودة فى مئات من السينوت والآبار فى المكسيك وهوندوراس وجواتيمالا . . .

الفصل السابع

مدينة القرصان في البحر

منذ أكثر من ٢٥٠ عاماً كانت مدينة «بورت رويال» الواقعة على إحدى جزر الكاريبي الجميلة ، جامايكا ، «تعتبر أخبث مدن العالم» فقد أقام فيها القرصان « هنرى مورجان » مقر قيادته ، ومن بورت رويال واصل ضرباته لنهب وسلب المدن الأسبانية فى منطقة الكاريبى . وأحب كثير من القراصنة الدمويين التردد على حانات وأماكن القمار المزدحمة فى بورت رويال ، وأغرقت المدينة بذهب القراصنة المسروق من الأسبان والذى سرقوه بدورهم من الأزتك والمايا .

ودبت الحياة فى مدينة بورت رويال واختال القباطنة القراصنة فى شوارع المدينة الضيقة تتدلى الخناجر على أردافهم وهم يترنمون بصوت أجش أغانى النصر . وأثرى كذلك التجار وأصحاب الحانات وانسابت النقود من بين أيديهم بدون حساب . ونشر تقرير عن المدينة صدر سنة ١٦٨٣ يصفها قائلاً « إنها مخزن أو مخبأ لكنوز الهنود الغربيين ... وسوق مستمرة تجد فيها كل البضائع المختارة المستوردة على الدوام ... » .

ومات قاطع الرقاب « هنرى مورجان » سنة ١٦٨٨ . وبعد ذلك أصبحت المدينة محترمة إلى حد ما ولو أنها ظلت غير متمسكة بالفضيلة . وقد تكلم رئيس كنيستها عن سكان المدينة ووصفهم بأنهم « أكثر الشعوب دعارة وفجوراً وبعداً عن الله » .

وقد أقيمت بورت رويال على شريط ضيق من الرمال أو لسان طويل من الأرض الرملية ممتد فى الكاريبى — وتغطى هذا اللسان مئات من المنازل من طابقين إلى أربعة طوابق حتى تصل لحافة البحر . وكثيراً ما يأتى بالحصى لردم المياه لإضافة مساحات من الأرض لتوسيع المدينة .

ولا يأتى الشتاء أبداً إلى جزر الكاريبى ، فطيلة الإثنى عشر شهراً كل عام تغمرها أشعة الشمس المتوهجة — ولذلك كان السابع من يونية سنة ١٦٩٢ يوماً مثالياً من أيام جامايكا ، فقد كان حاراً مشمساً رطباً ، تمتزج فيه رائحة أزهار الجزيرة برائحة البحر المالحة ، وتلمع الجبال الداخلية المرتفعة فى ضباب الظهيرة ، وكانت المراكب تفرغ حمولتها على موانى بورت رويال ، والفرطاقة « سوان » تميل بجانبها على الساحل بينما يلتهم بحارتها الكسالى المحار الذى نشر رائحته العفنة فى أنحاء المركب . أما البحارة الخالون من العمل فقدجلسوا جانباً بعيداً عن الشمس الاستوائية ، وسار بعض سكان المدينة فى الشوارع المظللة ، وكان الوقت موعد الغذاء ومعظم سكان بورت رويال داخل بيوتهم .

ومع ذلك فقد وقف سيد يبدو عليه اليسر على رصيف الميناء ، ثم نظر إلى ساعته الثمينة النحاسية المغطاة بالجلد ، وكانت تشير إلى الثانية عشرة ظهراً إلا عشرين دقيقة .

وقد قدر لبورت رويال أن تكون هذه ساعة هلاكها .

فقد بدت الأرض وكأنها كلها تميد وتلتوى ، وارتفعت أصوات تأوهات بشعة من أعماق الأرض ، كما لو أن مارداً أطلقها وهو يحتضر ، واندفعت أصوات مخيفة كالرعد من الجبال البعيدة ، ولم تكن هناك أية عاصفة فى عرض البحر .

واهتزت بورت رويال وهى فى قبضة الزلزال وابتلع البحر الحى المواجه للماء ،

كما لو أن يداً خفية قد سحبته — وفى لحظة واحدة اختفت القلعتان القويتان : قلعة كارليس وقلعة جيمس . وتهاوت مجاميع من المنازل الواحدة تلو الأخرى ، كما تحطم اللسان الرملى وأصبح هشاً ، وسقطت شوارع بأكملها فى الماء ، وانقلب برج الأجراس بكنيسة سانت بول وأحدث سقوطه على الأرض ضوضاء عالية . وارتفعت المياه .

وانقسمت المدينة بالأخاديد المخيفة . وكلما انفتحت الفجوات المتتالية ، ابتلعت المنازل وأهل المدينة المذعورين ، وبينما الأرض تضطرب وترتج ، اكتسحت موجة عاتية ما تبقى من المدينة .

فكأنما قضى حكم إلهى بالأذى الذى كان يعم المدينة : ففى أقل من دقيقتين محا الزلزال ثلثى بورت رويال ، وفقد ما يزيد على ألفين من سكانها حياتهم .

وكتب السيد المبجل « إيمانويل هيث » قسيس كنيسة سانت بول (وكان شاهد عيان للكارثة بعدحدوثها بقليل) أنه فى اليوم المشئوم كان هو وجون هويت — نائب حاكم جامايكا — على وشك الانفجار من احتساء خمر الظهيرة عندما انفجرت الاهتزازات .

وصرخ السيد هيث مذعوراً « يا إلهى .. ماهذا ياسيدى ؟ » . فأجابه الحاكم هويت بهدوء « إنه زلزال ، لا تخف وسينتهى سريعاً » .

وعاش الإثنان — وكما كتب هيث « وفى خلال ثلاث دقائق . . اهتزت بورت رويال — أجمل مدينة فى المستعمرات الإنجليزية ، وأحسن مركز تجارى وسوق فى هذا الجزء من العالم ، والمدينة التى تفوق كل المدن فى غناها وما فيها من الأشياء الجيدة — اهتزت وتمزقت إرباً ، وغاص معظمها ، وغطاها البحر . .

ونشر تقرير آخر عن هذه الحوادث يقول « لقد بدأت الأرض تهتز وتلهث وتتلاطم كالموج الهائج ، وبحركة سريعة جلجلت الأرض وانفتحت ثم قفلت ، وبلعت فى ثناياها الأهالى ، وفى بعضها كانت تطبق على منتصف أجسامهم وتضغطها حتى الموت . . . وكان يصاحب هذا ... دوى سقوط الجبال على بعد . بينما تحولت السماء إلى اللون الأحمر الكئيب كما لو كانت فرناً مشتعلاً » .

ولذلك تعتبر هذه الكارثة من الكوارث المفاجئة التى تهلك فيها مدينة فى لحظات : إنها حقاً حوادث بشعة ، ولكن — إذا أردنا الصراحة وبدون اعتبار لأى مشاعر — فإن معظم علماء الآثار يتمنون من أعماق قلوبهم تعدد مثل هذه الكوارث فى تاريخ البشرية — لأننا بذلك نستكمل معلوماتنا عن الماضى .

وينبع هذا الشعور القاسى من أنه عندما تترك مدينة تاريخية فى متناول اليد فهى تعانى على مدى العصور . فقد حدث أن أتلف الرومان الآثار الرومانية المرمرية ، عندما تركت لفترة تصل إلى ألف عام ، وذلك عندما فتتوها لاستخدامها فى منازلهم — وهذا يفسر ما تبقى من هيكل الكولايسيم المتهدم المشهور فى روما . كما أن المواقع المكشوفة عرضة لهجمات لصوص الكنوز وتسللهم للبحث عن الذهب محطمين كل ما لا يهمهم . كذا ترعى الماشية والماعز فى تلك الأماكن وتمحو الكتابة التى لا تقدر بثمن ، ويلعب فيها الأطفال ويعبثون بالأوانى القيمة ويستغل تجار العاديات كل ما يمكنهم حمله من أجل الثراء .

ولذلك ، فلكم يسر علماء الآثار عندما ينهار كل شىء فى لحظة واحدة ، ويختفى عن الأنظار بدون أن تترك أية فرصة لمزيد من التحطيم أو النهب . وتعتبر مدينة بومبى مثلاً كلاسيكياً على ذلك : فقد دفنت تحت هشيم البراكين الخفيفة التى لم تؤثر على الأبنية ومحتوياتها ، بل وأبعدت اللصوص عنها لمدة سبعة عشر قرناً . وقد كتب عالم الآثار ليونارد وولى يقول « إذا كانت الأمور تسير بيد عالم

الآثار الميدانى لتمنى أن تدفن كل عاصمة تحت هشيم بركان مناسب مجاور . إن عمال المواقع الأخرى لينظرون بعين الحسد عندما يزورون بومبى ، ويرون المقتنيات الرائعة من مبانى ومنازل لا تزال قائمة حتى الطابق الثانى ، وجدرانها مرسومة ، وكل أدوات وفراش المنازل ما زالت قائمة فى مكانها ، كما تركها أصحابها عندما هربوا من الكارثة » ..

وتعتبر بورت رويال حلماً آخر من أحلام علماء الآثار : لقد اكتسحت المدينة بأكملها فى لحظة ، ثم دفنت تحت الأمواج ، حيث لن يمسها سوء عدا تحللها بالماء — مدينة كاملة من القرن السابع عشر تقع تحت المياه التى تبعد قليلاً عن جاميكا . وقد سدت عليها المياه ، ولم يمكن استعادة كنوز بورت رويال الغارقة إلا منذ سنوات قليلة .

أما الرجل الذى أنقذ بورت رويال من قبضة التاريخ فهو مكتشف أمريكى وغواص ومخترع اسمه « إدوين أ . لينك » سنة ١٩٥٦ . وقد زار لينك جاميكا فى زورقه المسمى « غواص البحر » وقام باستكشاف أولى لمدينة القرصان المفقودة ، وخيل إليه أنه سيرى سقوف أبنية بورت رويال خلال الماء . ولكنه عندما نظر إلى أسفل لم ير شيئاً سوى القاع الموحل الذى يتراوح عمقه من ٢٠ — ٤٠ قدماً . ومع أن مياه الكاريبى رائعة كالبللور ، إلا أن تيارات الجداول الجبلية فى موقع بورت رويال قد حملت أطناناً من الطمى إلى الميناء عبر القرون فتراكمت هذه الرواسب الطينية على بعضها .

وحاول لينك أن يطهر قاع بعض المساحات ، وحفر لعمق ياردتين من الطمى المتراكم ووصل إلى الجدران الحجرية لحصن جيمس ، ولكنه أدرك أن أدواته غير كافية لهذه المهمة . فمن الصعب العثور على مبانى بورت رويال فى الرواسب

الطينية والوحل ؛ بل إن من المحال رفع أى شىء من الأنقاض . ولكنه عمل على الحصول على أحد مدافع حصن جيمس . ثم ترك جاميكا لتنظيم بعثة كاملة لائقة .

وصمم لينك زورقاً جديداً أسماه أيضاً « غواص البحر » بحيث جعله أول مركب صمم خصيصاً للبحث عن آثار ما تحت الماء . وأعد القارب المعدنى الذى يبلغ طوله ٩١ قدماً بسوارى قوية وأوناش كهربائية لرفع الأشياء الثقيلة من البحر . وجعل فى باطن الزورق ألواحاً زجاجية لتمكنه من رؤية قاع البحر مباشرة ، وزوده بالرادار وآلات الاستماع للصدى ، وهى آخر ما وصل إليه العلم فى أدوات الاستكشاف . وخصص حجرة خاصة للغوص ، بحيث يمكن الدخول إليها من كل من ظهر الزورق ومن الماء . وأعد بالقارب مخزناً كاملاً من الرئات المائية وأقنعة الوجه والزعانف . وكذلك أعد « غواص الشعب الصخرية » — وهو اسم قارب طوله ١٨ قدماً يدور بواسطة محرك لنفاثات مائية يستخدم فى المياه الضحلة والمياه ذات الشعب الصخرية .

وأراد لينك أن يعرف ما كانت عليه المدينة قبل أن يبدأ عملية التحديد ، ولكن ثبت أن ذلك من الصعوبة بمكان ، فلم يجد خرائط لبورت رويال فى الأيام التى سبقت الزلزال . وكان أحسن ما وجده هو خريطة وضعت سنة ١٨٢٧ وصفت فيها حدود المدينة الأصلية بطريقة غير دقيقة . ووجدت خريطة أخرى فى المتحف البريطانى كانت أحسن نوعاً ما من حيث تحديد مكان الجزء الغارق من المدينة التى مضى عليها الزمن ، ولكنها ليست كما يحب تماماً . ولذا قرر لينك أن يقوم بنفسه بعمل مسح للمكان .

استخدم لذلك اللنش « غواص الشعب الصخرية » وزوده بأجهزة يدوية

لتحديد المكان بالصدى . وقد صاحب لينك بحار مشهور يدعى الكابتن « ب . ف . ويمز » ليساعده على مسح المكان . وبدأ العمل فى يونية سنة ١٩٥٩ ، وجالا باللنش فوق موقع المدينة المختفية مسجلين أصوات الأعماق : فالمناطق الضحلة تعنى المبانى ، والعميقة تعنى مسافات بينها .

وباستخدام نتائج تسجيل أصوات الأعماق فى القرن العشرين مع حجج ملكية القرن السابع عشر أمكن لآل لينك أن يعملوا خريطة دقيقة نوعاً ما للمدينة الغارقة . وأدرك لينك أن الخريطة ليست كاملة : فالمدينة لم تغرق إلى أسفل مباشرة ، ولذلك فلا بد وأن كثيراً من المبانى انزاحت عن مواقعها الأصلية وهى تصارع الزلزال . ومع ذلك أحس لينك أن الخريطة كافية لاستعمالها كنقطة بداية .

وبدأ الغطس .

كانت المحاولة الأولى على موقع مخازن الملك . حيث كانت تخزن البضائع الثمينة فى مجموعة من المخازن المنبسطة غير البعيدة عن حصن جيمس . وكما كتبت مسز ماريون كلايتون لينك :

« وقد ازدادت روح الاهتمام فى ذلك اليوم الأول عند ما بدأت الكراكة تعمل . فلأمر ما توقع كل منا أن يرى تواً نتائج مباشرة . وكانت هناك أصوات فى أسفل عنق المصعد الهوائى . ثم اندفعت مع الماء بعض الأنقاض بقوة وصلصلة عالية . واصطدمت بسطح الصندل وقد خرجت إلى الحافة تاركة وراءها آثاراً موحلة للطمى والحصى .

وفى عصر ذلك اليوم انتشر على الصندل كوم من المخلفات ؛ وقد ظهرت

فيه هنا وهناك أجزاء من الصينى والفخار والزجاجات المكسورة وكلها أحدث من الزلزال . وأنتج العمل فى عديد من الأيام التالية نفس النتائج غير المشجعة ، ولم يخرج من فوهة المصعد الهوائى سوى الوحل . وقررت جماعة لينك أنه من المحتمل أنهم ينقبون فى منطقة غير مستعملة من المخزن الذى يبلغ طوله ٢٣٤ قدماً . أو فى جزء كانت تخزن فيه المواد التى تتلاشى مثل القطن والطباق والسكر . وقد أشارت ماريون لينك أنه « من الممكن أن نحفر إلى الأبد فى هذا المكان دون أن نصيب القسم الذى تحفظ فيه الأشياء القيمة » .

ورجعوا إلى الخريطة . وبعد مناقشة طويلة تحركوا « بغواص البحر » إلى نقطة أخرى بالقرب من الجدران الغربية من حصن جيمس وأنزلوا المصعد الهوائى إلى كوم الأنقاض مرة ثانية .

فواتاهم حظ أسعد فى هذه المرة : فبمجرد أن بدأ المصعد الهوائى يحفر فى الطين ، بدأت تظهر أجزاء من زجاجات الخمور المعتقة ، وأجزاء من أنابيب فخارية ، وكتل من الفحم ، والطوب الأحمر ، وصحاف مكسورة ، وأشياء أخرى من بقايا القرن السابع عشر .

ولم يترك آل لينك المصعد الهوائى ليقوم بكل الحفر ، فكثير من الأشياء القابلة للكسر قد تتلف أثناء رحلتها خلال الأنبوبة المعدنية . ولذلك فبينما كان الغواصون يسندون قاع السكراكة ويوجهونها فى قاع البحر ، كانوا أيضاً يتحسسون الوحل بأنفسهم ويحاولون تحديد مكان الأشياء القابلة للكسر قبل أن تمتصها السكراكة وترفعها .

ولقد كان « التحسس » هو التعبير السليم للعمل فى هذه المرحلة . ففى أثناء عمل المصعد الهوائى كانت تثور زوبعة من الطمى تمنع الرؤية أبعد من عدة

بوصات . وحتى عند إيقاف تشغيل الكراكة الكبيرة كانت المياه معتمة بحيث لا يمكن رؤية الأشياء على بعد أكثر من قدمين من قناع وجه الغواصين . وبعد عمل استمر عشرة أسابيع أصبحت المياه رائقة بشكل يسمح بالتصوير تحت الماء لمدة ثلاثة أيام فقط .

فالغواصون الذين كانوا يتحسسون عملهم بواسطة اللمس فقط نزعوا الكثير من الكنوز عن الطين أولاً عن طريق مغرفة نحاسية ذات ثقوب لها يد طويلة ، ثم بواسطة ملاعق من الزنك والصحاف وزجاجات الروم المنتفخة البطن . وأعلن الغواصون أنهم يعملون بالقرب من جدار بالطوب الأحمر ساقط القاع . لم يكن هناك شك فى أنهم يكشفون القناع عن مخلفات المدينة التى هدمها الزلزال .

وكلما تقدم العمل ازدادت متاعبه . ومع أن كل فرد فى الفريق بما فيهم مسز لينك كانوا من الغواصين الماهرين ، فإن أحداً منهم لم يتعرض من قبل للعمل فى مثل هذه الظروف الموحلة . وكان هناك خوف دائم من خطر توقف مفاجىء نتيجة تقويض المصعد الهوائى للجدران الطوبية غير الثابتة ، كما شكل المصعد الكهربائى بذاته مشكلة أقل خطورة للغواصين . وكتبت مسز لينك تقول « كثيراً ما كان المصعد الهوائى يخطف قفازات الغواصين فى كرشه الجشع ويرفعها إلى الونش بل كنا نتوقع أن نرى غواصاً بطوله فى يوم ما يبرز لنا من الطرف العلوى للأنبوبة » كذا بعض الأشياء الطبيعية تتجول عفواً فى المكان مثل البارا كودا وكلب البحر وعروق عفنة فى ظلال المدينة المفقودة المعتمة . ولكن أحداً لم يصب طيلة الصيف بإصابات ذات خطورة ، عدا جرح فى أصابع القدم أو زيادة الضغط على طبلة الأذن ، رغم كل المشاكل التى كانت تهدد بالخطر .

وقد أثبتت إحدى الآلات الحديثة التى تعتبر اليوم أساسية بالنسبة لعلماء

آثار ما تحت الماء أنها لاتقدر بثمن، وأنه لاغنى عنها لمكتشفى بورت رويال — عبارة عن الكشاف المعدنى الذى يشير إلى وجود المعادن تحت الوحل . وقد راقب فريق لينك الكشاف المعدنى وهو يعمل على قاع المحيط وتظهر منه نتائج مثيرة. ففى يوم ما ظهر إناء نحاسى للقلى يحوى عظاماً ناصعة البياض . وهذا دليل على أن بعضهم كان يطهو قطعة من اللحم فى نفس اللحظة التى حدث فيها الزلزال « وعلق إد لينك بقوله « يمكنك رؤية آثار السكين على العظام » .

وظهرت فى نفس المكان أدوات أخرى تستعمل فى المطبخ: قصعة من الزنك، وحجر المسن ، وشمعدانات نحاسية ، وهاون خشبى ، وشواية حديدية من مدفئة ، وخمس أوان التحمت ببعضها بفعل الماء . ولابد وأن ذلك كان مطبخاً معداً لخدمة عدد كبير من الناس . ورجع الغواصون إلى الخريطة واستنتجوا أنهم إما فى مطابخ حصن جيمس ، وإما فى حانة ملك من كان يدعى جيمس ليتلتون — وهذا الافتراض الأخير أقرب للصواب .

وعندما فحص أحد الخبراء من معهد واشنطن المواد التى رفعها المصعد الهوائى من موقع المطبخ ، أشار إلى كتلة من الملاط ، وعلق على أن جدران البناء كانت مجدولة ، أى إنها صنعت من أعمدة لفت على بعضها وربطت ثم غطيت بطبقات من المونة . وأكمل بناء الصورة اكتشاف بلاط أحمر وطوب أسود . فالبناء الأبيض المغطى بالملاط والسقف الأحمر لا بد وأنه كان أحد أماكن الأكل المفضلة فى بورت رويال . « وقال إد لينك » من الصعب أن نجد اليوم مطبخاً آخر فى العالم به كل محتوياته كما كان عليه منذ ثلاثمائة سنة ، ولو كان على اليابسة لتحطم أو على الأقل تأثر بالمدنية منذ زمن طويل . وهذه إحدى مميزات علم آثار ما تحت الماء .

وشاركت بحرية الولايات المتحدة ١٩٦٦ فى شهورها التالية بستة من

الغواصين . وطاف فريق البحرية بأنقاض بورت رويال بحثاً عن الأسلحة . واستخدمت فى «غواص الشعب الحجرية» آلة تشغيل قوية لإزاحة الطين، وذلك بتصويب مدافع مائية تحت ضغط عال، وبذلك تمكن البحارة من العثور على ذخيرة للمدافع من أحجام مختلفة . وكذلك رفع الغواصون بعض الجدران المتساقطة تحت الوحل شرق المخازن . وهنا على أنقاض مرفأ كان يملكه مواطن فى بورت رويال يدعى همفرى فريمان ، وجد الغواصون إحدى زجاجات الروم على شكل بصلة — والغريب أن غطاءها الفليني كان ما يزال فى مكانه . وبعد ذلك بلحظات ظهرت زجاجة أخرى بغطائها وقد ثبت بسلك نحاسى ملتو — وبهزها ظهر أن بها شيئاً ما .

ولم يتمالك إد لينك نفسه من أن يتذوق الخمر المعتق . وكانت تجربته مشابهة تماماً لتجربة كابتن كوستيو فى الباب السابق — فقد عمل ثقباً فى الغطاء لسحب جزء من محتويات الزجاجة . وكشر إد لينك بوجهه عند ما ذاق السائل الأصفر وتمتم « بشع إن طعمه يشبه الخل الشديد الملوحة — أعتقد أن خمر عام ١٦٩٢ كان سيئاً » . وقد ألقى كوستو نفس النكتة فى جران كونجلويه قبل ذلك بست سنوات . وكانت قيمة الزجاجات فى بورت رويال مثل جرار جران كونجلويه : فقد ظهرت بالمئات أولاً زجاجات صودا بتاريخ حديث ، ثم زجاجات القرن التاسع عشر التى سقطت من اللنشات العابرة أو رماها رجال كانوا على اليابسة ، ثم زجاجات روم من القرن الثامن عشر داكنة ومستديرة ، وأخيراً زجاجات ما قبل الزلزال وتتميز بشكلها الشبيه بالبصل، وغالباً ما كانت مغلقة بالشعب المرجانية . وقد علق أحد الخبراء على ذلك بقوله « لا بد وأن عدد زجاجات القرن السابع عشر فى بورت رويال كان أكبر من عددها فى أى مكان آخر من العالم » ، وأدى تعريض الزجاجات للهواء إلى تفتتها وتناثرها ، ولذا تعلمت جماعة لينك أن تضعها فى أوان محتوية على مياه لحمايتها .

ومن أعجب الأشياء التى أحضرها الغواصون ، بندقية ذات محور متحرك مغلفة بطبقة من المرجان ترجع بطرازها القديم إلى مائة عام قبل الزلزال ، وكانت من نوع البنادق التى كانت تستعمل فى إسبانيا فى القرن الخامس عشر ، فهل يا ترى كان هناك فى بورت رويال من هو مغرم بجمع البنادق الأثرية ؟ لقد أقام الأسبان بعض المستعمرات فى شاطىء جمايكا الشمالى فى القرن السادس عشر ، فربما كانت إحدى البنادق التى أحضروها معهم . ولكن إدلينك تقدم بافتراض آخر ، لا يمكن إثباته ولا يمكن نفيه ، ولكنه يثير الخيال فقال : « يحتمل أنها جاءت من إحدى سفن كولومبوس عند ما حاول أن يرسو بها فى خليج سانت أنا على الشاطىء الشمالى . وعند ما أنقذ الأدميرال ورجاله ، كان عليهم أن يتركوا كل شىء وراءهم ما عدا ممتلكاتهم الأساسية » .

والبندقية التى يحتمل أنها كانت ملكاً لكولومبوس هى من أكثر مكتشفات البعثة غموضاً ، ولكن أهمها جميعاً كان شيئا صغيراً جداً ، كان صغيراً لدرجة أن الغواصين الذين كانوا يتحسسون الطين لم يلحظوه ، ولكنه ارتفع مع الحصى فى المصعد الهوائى ، ولم يلحظه إلا أحد غواصى البحرية وكان شديد الملاحظة : كان ذلك ساعة نحاسية مصقولة مغلفة بالقرون التى عاشتها فى البحر ، وكانت تروسها النحاسية الدقيقة وبعض الأجزاء الأخرى نظيفة وغير متآكلة . وعند ما نزعت الشعب المرجانية التى نمت على وجه الساعة ، أصبح من الممكن تمييز أرقام الساعات التى كانت من الفضة . أما العقارب فقد تلاشت منذ زمن طويل . وبعمل أشعة إكس على المرجان الذى غطى مينا الساعة ظهرت آثار العقارب ، وكان أحدها يشير إلى الثامنة والآخر إلى الثانية عشرة .

ودرس « إدلينك » الساعة وصورة الأشعة للحظة ثم قال « لقد وقفت الساعة عند

الثانية عشرة إلا سبع عشرة دقيقة — وهو الوقت الكافى لوصول الماء إلى الآلة بعد انفجار الزلزال » .

ولكن ألا يمكن أن تكون الساعة قد فقدت بعد الزلزال بزمن طويل ! !

ولم تتمكن جماعة لينك من البت فى هذا الأمر . ووجد على السطح الداخلى لغطاء الساعة اسم صانع الساعات محفوراً عليها ويدعى بول بلونديل . وبالتحرى ظهر أن بول بلونديل كان ساعاتياً هولندياً توقف عن صنع الساعات سنة ١٦٨٦ . وفى أواخر هذا الموسم أخذ إدلينك الساعة إلى متحف العلوم فى لندن حيث توجد أعظم مجموعة ساعات أثرية فى العالم .

وبعد عرض الموضوع على خبراء المتحف أرسل لينك تلغرافاً بهذه المعلومات :

« بعد الرجوع إلى المختصين فى معهد العلوم ظهر أن الساعة صنعها بول بلونديل فى أمستردام سنة ١٦٨٦ ، وكان أحد اللاجئين الهاربين من الشالون . ويشير الوقت الذى وقفت فيه الساعة إلى أن الزلزال قد حدث فى الساعة الثانية عشرة إلا سبع عشرة دقيقة » .

وكانت الساعة النحاسية الأنيقة — بعد تغطيتها بكيس جلدى من أجمل ما وجدته « غواص البحر » . ولكن مجموعة الملاعق والأوانى والأنابيب هى الأخرى قد أعطت معلومات قيمة عن حياة المدينة الهالكة فى آخر أيامها .

واضطرت بعثة لينك للتوقف بعد عشرة أسابيع ، فقد حان وقت الأعاصير فى جاميكا — واستمرار العمل بعد ذلك كان يعرضهم للخطر . لقد أنجزوا الكثير فى وقت قصير . وصمموا خريطة دقيقة للمدينة الغارقة وحرروا مئات من الحفائر الأثرية الهامة . ورغم هذا كله ، فلم تكن تلك سوى البداية . وقد قال

إدلينك « يحتاج البحث الكامل لسنين من العمل الدءوب ... تمعن فى المنازل والحانات وكل أنواع الحوانيت ومخازن الملك . ومستودعات البضائع والمراكب التى غرقت فى المرفأ ولم ترفع ، ومن المحتمل أنها اليوم من أغنى المواقع الأثرية المعروفة عن تلك الفترة من التاريخ » .

وجذب إغراء الأماكن الأخرى آل لينك . ولكن كنوز بورت رويال الأثرية لا زالت باقية سليمة تحت دفء الكاريبى . وقبل أن يمضى زمن طويل سيغوص فريق آخر لإتمام الكشف . فلقد فتحت الأعمال الرائدة لإيدوماريون لينك ، ومعاونيهم الطريق ، وعاجلاً أو آجلاً كما كتب إدلينك « سيعود شخص ما إلى هناك ، وسيكافأ بسخاء سواء بالتحف الأثرية أو الكنوز التى تجعل مجهوداتنا تبدو بالنسبة لما سيصل إليه تافهة » .

فبلا شك ستغطى الأشياء التى ستظهر مستقبلاً فى موقع بورت رويال على مكتشفات آل لينك . ولكن مجهودات آل لينك لا يمكن أن توصف بأنها تافهة إلا من إنسان فاق تواضعه ، الحد مثل إدلينك نفسه . فقد أنار الطريق ، وسيدين له بالكثير مكتشفو بورت رويال الغارقة المقبلون .

الفصل الثامن

استعادة السفينة الحربية فاسا من البحر

كان اليوم العاشر من أغسطس سنة ١٦٢٨ يوم أحد مشرق فى السويد ، يصلح لإقامة مهرجان كإنزال غليون كبير لأول مرة فى الماء . وكانت السفينة الحربية الجديدة على وشك الالتحاق بالبحرية السويدية وكانت رائعة حقاً ، لها منظر يلقى الرعب فى قلوب الأعداء والفخر والاعتزاز فى قلب كل سويدى ، وكان اسمها « فاسا » نسبة إلى عائلة ملك السويد المحارب « جوستافوس أدولفوس » .

وكانت « الفاسا » بارجة أمير البحرية الجديد ، وكانت تحمل علم الفصيلة السويدية . وعندما قامت «حرب الثلاثين عاماً» فى أوروبا كانت المعركة الرهيبة المعقدة التى دمرت نصف القارة قد بدأت تخمد سنة ١٦٤٨ . ولم تكن السويد قد اشتركت بشكل جدى فى الحرب حتى سنة ١٦٢٨ ، ولكن ملكها البطل جوستاف قام بتحضير حملة متفوقة تجعل منه حامياً لأوروبا البروتستانتية ، واستمر حتى وافته المنية فى المعركة بعد ذلك بعدة سنوات . وكان الملك فى حاجة إلى سفن حربية لحماية بحر البلطيق ؛ فكانت «الفاسا» كالمارد حمولتها ١٤٠٠ طن ، وطول سطحها ١٦٥ قدماً وعرضها ٤٠ قدماً . وكان الملك يقول دائماً « إن بناء السفن الصغيرة هو مضيعة للأشجار الصغيرة » .

وتحمل الفاسا ٦٤ مدفعاً — ٤٨ من المدافع البرونزية الثقيلة القديمة ، و ١٦ مدفعاً صغيراً . وزينت كل كوة معدة لفوهة المدفع برأس أسد يزأر دهن

باللون الذهبي اللامع ، وفمه باللون الأحمر الناري . وكذلك دهنت المدافع الموجودة على سطح السفينة باللون الأحمر أيضا لتخفي آثار الدماء التي تتساقط عليها عند اشتباك السفينة في المعركة ، ويبلغ مرماها ثلاثين قدماً . ووضع بمقدمة السفينة أسد مطلي بالذهب مستعد للوثوب يلمع في المقدمة .

وقد أضافت شمس أغسطس الساطعة في سنة ١٦٢٨ على فاسا المزينة بالذهب، والحلاة باللون الأحمر رونقاً جذاباً . واحتشدت الجماهير على الرصيف لتشاهد السفينة الجبارة وهي ترتشف ماء البحر لأول مرة — وقد رست السفينة عدة شهور في المرفأ لتتزود لرحلة السنة . فحملت بألفين من براميل المواد الغذائية والبيرة والبارود ومؤن من كل الأصناف . ثم حان الوقت لرحلتها الأولى ، وبلغ عدد من على ظهرها ١٣٣ بحاراً . أما المسافرون فكانوا ثلاثمائة جندي وزوجاتهم وأطفالهم .

وشعر قبطان الفاسا ويدعى « سيفيرين هانسون » بقلق بالغ بالنسبة لتصميم السفينة . كانت طويلة ورفيعة — كان يعتقد أنها أطول وأرفع من أن تحتمل ذلك الثقل الرهيب للسارية التي يبلغ ارتفاعها ١٨٠ قدماً بالإضافة إلى تركيباتها الأخرى الثقيلة . وقبل تدشين السفينة بعدة أسابيع . قام الكابتن هانسون بعمل اختبار صغير من عندياته أثناء وجود الفاسا في مرفأها . أرسل بحارين إلى ظهر السفينة وأمرهما أن يجريا من الجانب الأيسر إلى الجانب الأيمن من السفينة . ولما فعلا ما أمرا به حدث أن وزنهما جعل السفينة تميل بمقدار يزيد عن القدم . وعند جريهما في الاتجاه المضاد مالت السفينة على الجانب الأيسر بمقدار قدمين . وبعبور سطح السفينة للمرة الثالثة تسبب البحاران في ميل السفينة بمقدار ٣ أقدام : فأوقف الكابتن هانسون التجربة في الحال خوفاً من أن يقلب البحاران السفينة بأكملها .

وقد راقب قائد الأدميرالية السويدية كلاس فلمنح التجربة . ولكنه لم يعلق بشىء . فالملك جوستاف متحمس لكى يرى سفينته الشامخة وهى تبحر بعد أن انتظر بفارغ الصبر إتمام بنائها الذى استغرق ثلاث سنوات . ولم يجرؤ أحد على إخباره بمدى خطورة إنزالها إلى البحر .

وبدأ المهرجان حسب البرنامج المعد له فى الساعة الثالثة ظهر اليوم العاشر من أغسطس . وأعطى الكابتن هانسون المغموم شارة البدء . وهبت نسمة رقيقة فى اتجاه الجنوب الغربى عبر ميناء ستوكهولم . واتجهت السفينة فاسا (بمن تحملهم من الرؤساء الدينيين وعلية القوم الذين سيهبطون منها فى اليوم التالى على جزيرة قريبة) إلى نقطة جنوب شاطىء الميناء . ولم يتحطم سوى بعض الأشرعة الثانوية .

وفى اللحظة التى صافحت النسمة فيها وجه القلاع دارت « فاسا » وترنحت ومالت إلى الرصيف . وأسرع ضابط المدفعية إريك جونسون — وكان قلقاً مثل قائده على السفينة — أسرع إلى داخلها ليتأكد من أن المدافع الثقيلة مربوطة جيداً بالحبال . لأنها لو فكت من مكانها وتحركت إلى أحد جوانب السفينة فإن فاسا ستنهار حتماً .

واستقامت الباخرة بسرعة عند ما تحرك الركاب ليعيدوا توازنها . وفردت بعض القلاع ، وعندما اصطدمت الرياح بأقمشة القلاع تحركت السفينة بهدوء خارجة من الميناء . وأمر الكابتن هانسون رجاله بإطلاق المدافع الصغيرة التى على السطح ، وردت بطاريات الساحل بتحية تهنئة وهتف المشاهدون الواقفون على أحد جانبى السفينة .

وبعد لحظة واحدة هبت ريح نفخت القلاع . ومرة ثانية مالت السفينة حتى فتحاتها الجانبية . وللمرة الثانية أسرع إريك جونسون إلى بطن السفينة .

وصرخ أحد البحارة « ستغرق السفينة » .

ونادى جونسون آمراً « فكوا المدافع بسرعة وحركوها فى اتجاه الريح » .

وأسرع البحارة وهم يتصببون عرقاً يفكون المدافع الثقيلة ، ويجاهدون لدفعها إلى الجهة المرتفعة من ظهر السفينة المائل ، محاولين إعادة التوازن للسفينة المترنحة . ولكن لقد سبق السيف العزل . فلتت المدافع من أيدى البحارة، وعادت تنحدر إلى مكانها مصطدمة بالبحارة، تدكهم فى جدران السفينة ، واستمرت السفينة تميل حتى الفتحات واختفى نصفها . وعندما استمر تدفق المياه إلى جوف السفينة اختفت فاسا فجأة . لم يستغرق الأمر كله سوى لحظة واحدة . وتحول هتاف المتفرجين على الشاطىء فجأة إلى صراخ من الرعب والفزع .

لم تبتعد فاسا فى رحلتها الأولى أكثر من ٤٥٠٠ قدم وهاهى قد أصبحت على عمق ١١٠ قدماً فى الماء . واستعادت توازنها تقريباً وهى تغرق . وبرزت صواريها العملاقة فوق الأمواج حاملة عالياً العلم الإمبراطورى السويدى بسخرية قاسية .

واندفعت من الشاطىء قوارب كثيرة لإنقاذ البحارة والمسافرين . وقد أنقذ معظم من كانوا على ظهر السفينة، ولكن غرق على الأقل خمسون منهم مع السفينة .

ولم يكد يوارى الضحايا التراب ، حتى بدأت المحاولة الأولى لإنقاذ السفينة . وعين مجلس الدولة « إيان بالمر » وهو مهندس انجليزى لرفع السفينة . وحاول سحب السفينة من الماء وذلك بإحكام ربط الحبال السميكة حول صوارى السفينة الغارقة، وجرها بواسطة الجياد ، ولكن بدون فائدة . فقد نجح فى دفع السفينة إلى

وضع أفقي . ولـكن فشل فى سحبها خارج الماء . ولم يكن حظ المنقذين الآخرين، من سويديين أو فرنسيين أو انجليز أو هولنديين أو ألمان بأسعد من السابقين . وانتهى معظمهم بفقد سلباتهم وخطاطيفهم الحديدية التى ربطوها فى السفينة الغارقة .

وفى نفس الوقت أقيمت محاكمة للتحقيق فى أسباب الـكارثة، ووضع الـكابتن هانسون فى السجن بعد غرق السفينة . ولـكنه ذكر أثناء التحقيق التجارب التى أجراها قبل ذلك بشهر ، والتى أمر فيها البحـارة أن يجروا جيئة وذهاباً على ظهر السفينة المترنحة . وأيد كلامه أحد ضباط السفينة قائلاً « لو كانوا قد جروا أكثر من ذلك لغاصت السفينة وهى على الرصيف » . أما إريك جونسون الذى كاد يموت من المـاء وتدحرج المدافع فأكد ذلك بقوله « إنها كانت ستغرق حتى ولو لم تبحر . لأن ثقل الجزء العلوى أكبر من الجزء السفلى » .

وأظهر التحقيق حقيقتين . أن قائد البحرية الأدميرال فلمنج شاهد تجارب احتمالها فى يولية — وأن الملك جوستاف قد وافق بنفسه على تصميم السفينة . فأصبح من المحرج استمرار التحقيق ؛ ولم يكن هناك فى المحـكمة العليا من يرغب فى مضايقة من هم فى الهيئات العليـا . وأطلق سراح الـكابتن هانسون وضباطه وحفظ الموضوع تماماً . ولازال بعض الخبراء حتى اليوم يدينون تصميم السفينة الخاطىء ، بينما يعتقد البعض الآخر أنه كان من الممـكن تلافى المأساة لو وضعت المدافع بشكل معقول .

ومهما يكن الأمر ، فلقد غرقت السفينة . وحاولت مجموعة سويدية فى ١٦٦٣ عمل محاولة جديدة للانقاذ ، وصمموا ناقوساً للغطس ، يمـكن للغواص أن يقف فيه ويتنفس الهواء من أعلى الحجرة أثناء تثبيته للخطاطيف فى السفينة . ويبقى الغواصون كل مرة فى الماء البارد لمدة خمس عشرة دقيقة على عمق يقرب من مائة قدم يسوون

ألواح ظهر السفينة ويثبتون الخطاطيف فى المدافع . وظهرت أول مجموعةمن المدافع على سطح الماء فى أبريل سنة ١٦٦٤ وقبل أن ينتهى المنقذون من عملهم كانوا قد استعادوا ٥٣من ٦٤ مدفعاً كانت عل ظهر فاسا ويعتبر ذلك نصراً قيماً بلاشك .

ونسى العالم بعد ذلك كل ماحدث بشأن فاسا. ويبدو من الصعوبة أن نتصور أن مثل هذه الفاجعة المثيرة تمحى من الأذهان تماماً . ولكن ذلك هو ماحدث فعلاً — فقد مر قرنان ونصف من الزمن انمحت ذكرى غرق السفينة الحربية من أذهان الناس . ورقد هيكل السفينة فى ميناء ستوكهولم مجهولاً ولا أثر له . وبين الحين والآخر تخطىء بعض السفن وترمى بمرساها على الأنقاض . وبمرور السنين تراكم عليها مايربو على الثلاثين من الخطاطيف المفقودة . ولكن أحداً لم يعلم ولم يهتم بأن يعرف ماهى العوائق الموجودة فى قاع الميناء التى تسببت فى هذه المشاكل .

وعرفت هذه القصة من جديد فى القرن العشرين . وكان أحد المؤرخين السويديين ويدعى « نلز أهنلاند » يطلع على الأرشيف القديم باحثاً عن معلومات لاعلاقة لها بهذا الموضوع . ووقعت فى يده تفاصيل المحاكمة لتحقيق غرق فاسا ، ثم وجد بياناً بعمليات الإنقاذ بواسطة الناقوس التى تمت سنة ١٦٦٣ — ١٦٦٤ . وكان اكتشافاً مافتاً للنظر ، فهناك سفينة هالكة من القرن السابع عشر ترقد مدفونة فى مكان ما من ميناء ستوكهولم !

ومن بين من انجذب خيالهم لاكتشاف الأستاذ اهنلاندصبى يدعى«أندرز فرانزن » كان قد أخبره والده — وهو طبيب من ستوكهولم — بالقصة . وقد تعود فرانزن الصغير أن يقضى أجازات الصيف فى كوخ العائلة بالقرب من ستوكهولم

باحثاً فى مياهها الضحلة عن أجزاء من السفينة الغارقة ، وكثيراً ما وجد قطعاً من السفن القديمة تآكلت من الماء ولكن يمكن تمييزها .

وقضى فرانزن وعائلته صيف ١٩٣٩ متجولين فى مياه ساحل السويد الغربى . وهناك وجد أخشاباً قدأكلتها ديدان السفن وتسمى تيردوس «Teredos» ، وهى ليست ديداناً فى الواقع ولكنهانوع من اللزيق أو السمك الصدفى . فهى تنقر وتحفر طريقها فىالأخشابالمغمورة تحتالماء وتأكل الخشب . وتسبب التيريدوس خسائر فى الولايات المتحدة وحدها بما يزيد عن ٥٠ مليون دولار فى المراكب والأحواض العائمة . ومن الطبيعى أنها آفة ومجلبة لدمار آثار ماتحت الماء ، حيث تأتى على أشياء لا تقدر بثمن .

وتعجب فرانزن الصغير عندما لم يجد على الخشب الذى وجده بالقرب من ستوكهولم آثار التلف الذى تحدثه التيريدوس بينما تزهر التيريدوس فى المياه الغربية وتأتى على كل ماتصل إليه ، وسأل عن السبب . وعرف أن التيريدوس تعيش فقط فى مياه تبلغ ملوحتها ٩ر٠ أو أكثر . أما ملوحة البلطيق فتصل إلى ٧ر٠ فى المتوسط وتقل عن ذلك فى بعض الأماكن .

وكان هذا اكتشافاً مشجعاً : فلو كانت المياه المحيطة بستوكهولم خالية من التيريدوس ، فلربما ظلت فاسا سليمة لم تمس ويمكن العثور عليها ورفعها من الماء! . وكان هذا فى عام ١٩٣٩ .

وبقيت هذه الفكرة فى ضمير الصبى لعدة سنين: فإن المهمة ستتكلف الكثير وهو لايملك الأموال اللازمة . ثم إنه لايعرف مكان فاسا بالتحديد .

وأصبح فرانزن بعد ذلك مهندس بترول ، ودرس تاريخ البحرية كنوع من الهواية . وعندما أصبحت السكيوبا فى متناول يد الجميع ، تعلم كيف يعوم بالجلد

وأعد قائمة بعدد السفن التى عرف أنها غرقت خارج شاطىء ستوكهولم الشرقى . وكانت تزيد على الخمسين . ثم اختصر الرقم إلى حوالى ٦ ، وبدأ فى البحث عنها . وكان مشروعه الأول هو إنقاذ « الريكسابلت » وهى سفينة حربية كبيرة غرقت سنة١٦٧٦فى ميناء دالارو بالقرب من ستوكهولم.وقد اكتشف فرانزن — بالتعاون مع متحف ستوكهولم البحرى القومى — ريكسابلت التى كانت ترقد على عمق خمسين قدماً فقط من الماء ، ولكن الجليد والأمواج حطمت السفينة إلى أجزاء ، كما أخذ الأهالى المحليون كثيراً من عروقها الخشبية .

وبعد ذلك استدار إلى فاسا وهى ترقد فى مياه أعمق وأهدأ . وقد قال له البروفيسور نيلزاهنلاند « اكتشف فاسا وستجد أثمن الكنوز » .

ولكن أين توجد السفينة ؟

كتب فرانزن « ما أن جاء عام ١٩٥٤ . حتى كنت قد قمت بجمع إحصائيات وأبحاث كثيرة وكنت على استعداد لهجوم شامل . وبدأت بمسح منتظم للقاع بالخطاطيف والشباك المعدنية، واستعنت بزوارق بخارية بالإيجار أو الاعارة،وتعودت الجموع البعيدة عن المهنة على رؤية شخص وحيد يشغل نفسه بنوع غريب من الصيد وقد ضحكوا عندما أخرجت بعض الأسرة والعجلات والمواقد وأشجار عيد الميلاد وما شابه ذلك .

وكانت قد رسمت خريطة تبين حدود القاع فى الميناء ، وذلك باستخدام جهاز اكتشاف المكان بواسطة الصدى، تلبية لرغبة المهندسين الذين أرادوا عمل تصميم لكوبرى يعبرالميناء . وقد لاحظ فرانزن من تلك الخريطة أن هناك ارتفاعاً كبيراً فى الأرض على بعد مائة قدم ، جنوب حوض البحرية الجاف ، على مرفأ جزيرة بكهولمن . وسأل فرانز المهندسين عن هذا الجزء المرتفع فى قاع البحر .

فأجابوه « لابد وأنها مخلفات من الحصى تركت عندما كانوا يرممون الحوض الجاف بالمونة » .

وعاد فرانزن الى الأرشيف التاريخى . فقد جال فى ذهنه أن الملك جوستاف كان خارج البلاد يحارب فى بولندا عندما غرقت فاسا . ومن المؤكد أن أحد الأشخاص قد أرسل إلى الملك يخبره بالكارثة ، ومما لاشك فيه أنه أرفق بالخطاب تقرير مجلس البلدية المؤرخ فى ١٢ أغسطس سنة ١٦٢٨ (أى بعد الغرق بيومين) يحمل إلى الملك أخبار الحادث المشئوم . وقد جاء فى التقرير « وعندما خرجت السفينة من الميناء بمحاذاة تجيلفيكين هبت الريح لتملأ أشرعها .. ووصلت فجأة إلى بكهولن حيث مالت على جنبها وغرقت على عمق ١٨ قامة »

فصاح « بكهولمن » :

« وهذا الارتفاع فى قاع البحر والقريب من الحوض الجاف — هل هو مجرد مخلفات من الحصى ؟ »

وصنع فرانزن جهازاً يساعده فى البحث اسمه «محور أخذ العينات» وهو عبارة عن اسطوانة معدنية تزن ستة أرطال مخروطية الشكل وتحتوى على خرامة حادة مجوفة فى أسفلها . فعندما يقذف الجهاز فى الماء تقطع الخرامة شريحة من أى جزء تقع عليه .

ولكن آخذ العينات لم يأت بشىء سوى الوحل ، وقد ارتفع أحياناً وبه قطعة من لب الخشب ، ولكنه ليس خشباً قديماً . كما أن جسم السفينة فاسا كان من خشب الأرو ، وعادة يتحول خشب الأرو إلى اللون الأسود بعد قرن أو أكثر من غمره فى الماء .

وأسرع فرانزن إلى موقع الجزء المرتفع من قاع البحر فى الميناء مستخدماً قارباً

بخارياً فى يوم جميل من أيام أغسطس سنة ١٩٥٦ ، أى ٨٣٨سنة منذ غرق فاسا . ثم ألقى بآخذ العينات . فهبط إلى مايربو على المائة قدم ، فالتقط شيئاً — فبدأ برفعه بقلب واجف مضطرب .

فوجد أن الخرامة قد التقطت شريحة من خشب الأرو الأسود ذى الحبيبات المتلاصقة — وهكذا لم يعد هناك أى شك : لقد وجد سفينة يرجع عمرها إلى عدة قرون مضت — لقد وجد فاسا .

وحتى يتأكد فرانزن من أنه لم يأخذ عينة من مجرد دعامة خشبية أعادالتجربة على مساحة واسعة . وكانت الخرامه تخرج كل مرة وبها شريحة من خشبالأرو . فتوجه مباشرة إلى البحرية الملكية السويدية . وتقع مدرسة الغواصين التابعة للبحرية عند الحوض الجاف على بعد ثلاثمائة قدم . ولم يجد أية صعوبة فى إقناع البحرية بنقل عمليات التمرين إلى موقع فاسا .

وكان أول من نزل من غواصى البحرية رئيس الغواصين ويدعى « بيرادفن فالتنج » ، وهو غواص محنك قضى أكثر من عشرة آلاف ساعة فى الغطس . وأرسل فالتنج بالتليفون تقريراً غير مباشر إلى فرانزن المترقب على قارب الغطس فوقه بمائة وعشر قدماً يقول له : « إننى واقف فى الثريد حتى صدرى،ولا يمكننى رؤية أى شىء » .

وكان على وشك الصعود عندما اهتز مصادفة حبل الحياة الذى يصله بأعلى ، مما جعله يهبط عشرين قدماً فى أعماق الوحل . وفى محاولته البحث عن أى شىء يستند إليه لمس شيئاً صلباً ، فصاح فى التليفون « إننى أحس بها وكأنها جدران خشبية ــ إنها سفينة كبيرة فعلاً . وها أنا أصعد الجدار . هنا فتحات مربعة . . . لابد وأنها فتحات المدافع » .

وعندما صعد فالتنج فى الماء بعد ذلك بجانب هيكل السفينة وجد كذلك الصف العلوى من فتحات المدافع • وبذا زالت كل الشكوك . فلم تعرف أى سفينة غارقة أخرى فى المنطقة لها صفان من فتحات المدافع . فلابد وأن هذه السفينة هى فاسا .

وكهربت الأخبار السويد كلها . ففى لحظة واحدة رجعت البلاد كلها ثلاثة قرون ونصف إلى الوراء — إلى العصر العظيم حيث كانت السويد قوة امبراطورية عظمى فى العالم — وكانت ترتعد أمام جيوش جوستاف أدولفوس أوروبا كلها .

وجد فالتنج أن حطام السفينة غير مائل ، بل منتصب وقد غرس فى الطين الصلب حتى خط العدم • وارتفعت صارياتها — رغم أنها مكسورة — إلى أعلا . وبين الوحل السائب الذى يغطى الجزء الأعلى من السفينة وجد سلاسل رجال الإنقاذ فى القرن السابع عشر . وأنزلت فى الماء المعكر بالطمى كاميرا تليفزيونية نقلت إلى أولئك المنتظرين أعلا الماء صوراً غير واضحة . ولكن لا يمكن تكذيبها للسفينة العظيمة •

واستولت على السويد فكرة جريئة: لم لا ترفع السفينة قطعة واحدة • لتعاد إلى عظمتها السابقة — لا كسفينة حربية بالطبع. ولكن كقطعة أثرية ضخمة للمتحف؟•

وقد بدت هذه المهمة باهظة التكاليف ، ولكن يبدو أن أحداً من أهالى السويد لم يستنكرها • وقد انتقلت عدوى الحماس من الملك جوستاف السادس إلى الجماهير . وكان الملك من سلالة ذلك الملك القديم جوستاف — وهو أيضاً من المدربين على التنقيب على الآثار .

وأبدت شركة نبتون لإنقاذ السفن باستوكهولم استعدادها للمشاركة فى رفع السفينة بالمجان ويعادل هذا التبرع ٥٠٠٫٠٠٠ دولار يلزم إنفاقها لإعادة هذا الجزء

من تاريخ السويد . أما البحرية السويدية فقد عينت غواصيها للعمل كنوع من التمرين . وانهالت من جميع أنحاء البلاد مساعدات للقيام بالعمل ، كما انهالت التبرعات ، حتى تم تغطية تكاليف المشروع والتى بلغت ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار .

ووضعت مرحلتان رئيسيتان لعملية إنقاذ السفينة : الأولى رفع حطام السفينة من عمق ١١٠ قدماً إلى عمق ٥٠ قدماً حيث المياه ملائمة . وهنا يمكن إصلاحها وتقويتها بحيث لا تنضح بالماء وترفع إلى السطح .

وكان الكابتن إكسل هدبرج من شركة نبتون لإنقاذ السفن هو المسئول عن إتمام المرحلة الأولى من المشروع . وتضمن مشروعه حفر ستة أنفاق فى القاع تحت هيكل المركب مباشرة وبعرض قاع السفينة من جانب إلى آخر ، ثم إمرار كابلات من الصلب وإدخالها فى الأنفاق ، ثم تثبيتها وربطها بعوامات الإنقاذ على السطح — حتى إذا تم تفريغ العوامات سترتفع ، وتجذب معها السفينة .

ووصف أندرز فرانزن هذه العملية قائلاً « إنها من أعقد وأخطر المهام فى تاريخ الغطس . فهيكل السفينة مملوءة بالصخور الصغيرة ولو تداعت عروق خشب السفينة لتساقطت أطنان من الصخر على الغواصين الذين يعملون أسفلها . وقد استغرق العمل أكثر من ألفين من الساعات . ومع ذلك لم تحدث إصابات مذكورة .

وحفر الغواصون وهم بأرديتهم وخوذاتهم بسبب شدة برودة الماء . ولم يستخدموا الرئات المائية — حفروا الأنفاق الستة بواسطة النفاثات المائية القوية التى كانت تحفر فى المرمات المتعفنة فى القاع . وسحبت خراطيم الشفط الأنقاض إلى السطح ، حيث فحصها علماء الآثار وصنفوها بحثاً عن أشياء قيمة . وسقطت على مر السنين فى الماء مئات من الأشكال المنحوتة المتقنة الصنع التى كانت تزين جسم السفينة .

وهاهى ترفع إلى السطح عن طريق خراطيم السحب التى يشغلها العمال . وظهرت كذلك أثناء هذه المرحلة متنوعات أصغر مثل أكواب من الزنك وأنابيب من الطين ومزولة أوساعة شمسية وعملات .

وكان بعض العمال مؤمنين بالخرافات ويعتقدون أن هناك أرواحاً تحوم حول الحطام وأن هناك شبح بحار لازال ساكناً فى الحطام وأطلقوا عليه « دن جامل » أى « القديم » . وإن كان « القديم » من المفروض أنه يتضايق من إقلاقه، وحتى يهدئوا من روعه ، كان الغواصون يلقون بعملات نحاسية إلى الماء كل يوم قبل بدء العمل . ومع ذلك كانوا يخافون ويخشون « القديم » . وحدث أن أحد الغواصين استعمل النفاثة المائية لحفر نفق تحت قاعدة السفينة وأحس أن رداء الغطس بدأ يزداد وزناً — علماً بأنه عادة لاوزن له تحت الماء . ولم يعرف سبباً لهذا الضغط الذى يضغط عليه بهذا الشكل .

وتمتم برعب فى تليفون الرداء « لقد مسنى (القديم) » وعندما سمعه رئيس الغواصين فالتنج الذى كان على صندل الغطس شخط فيه قائلاً : « كفى . لا تذعر . إذا كان « القديم » قد مسك فاهدأ وتصرف كالرجال » ثم مضى يهدىء من روع الغواص حتى يصف له ماذا حدث له وقال له : « لقد وقعت فريسة لخيالاتك » واستراح الغواص عند سماعه هذا التفسير البسيط لما حدث . وزحف خارجاً من النفق وعاد سالماً إلى السطح . وهو لازال معتقداً أن ما حدث له كان إحدى مداعبات « القديم » .

ولم يتدخل « القديم » بعد ذلك . ولم يأت شهر أغسطس سنة ١٩٥٩ . أى بعد سنتين حتى انتهى حفر الأنفاق ووضعت الكابلات فى مكانها وربطت بعوامتى الإنقاذ « أودين » و « فريج » . وكانت لحظة صعبة : فهل ستقاوم

السفينة البالية التى يثقل الطين حمولتها جذب الكابلات وترتفع إلى السطح أم ستنهار وتتناثر ألواحها الخشبية عند أول جذبة ؟ ؟

وأعطيت الاشارة . وبدأت المضخات تطرد المياه من العوامتين . وعند ما تم تفريغهما بدآ يرتفعان فوق الماء جاذبين الكابلات المرتخية . ونزل غواص ليراقب الموقف .

وبدأ يصف مايشاهد قائلاً : لقد ارتفعت فاسا ثمانى عشرة بوصة كلها قطعة واحدة الحال، على ما يرام .

وهكذا تم فصلها عن القاع . وبدأ عمال الإنقاذ يحركون السفينة بمنتهى العناية فى اتجاه قريب من كاسلهولمين (جزيرة كاسل) . وكانت قاعدة السفينة على ارتفاع أربعة أقدام من القاع عند ما تحركت إلى أعلا بسهولة . وسحبت تدريجياً إلى المياه الضحلة واحتاج الأمر إلى ثمانى عشرة رفعة على مدى سبعة وعشرين يوماً قبل أن تستقر السفينة على عمق خمسين قدماً حيث يمكن فحصها بسهولة لتصليحها .

وانتهت المرحلة الأولى والأخطر بنجاح . وجاءت المهمة الأقل خطورة ولكن الأصعب ، ألا وهى إعادة بناء فاسا . وأشرفت على العمل لجنة من علماء الآثار : فهبط الغواصون أولاً لإزالة الأنقاض والخطاطيف التى سقطت بطريق الخطأ على الحطام ، وهى أدوات الإنقاذ الكثيرة التى استخدمت فى القرون الماضية ، ثم أزالوا كذلك الوحل وهياكل البحارة . وقد أمكن استعادة اثنى عشر هيكلاً سليماً بالإضافة إلى البنادق والأوانى الفخارية والصحاف الخشبية والأحذية الجلدية وقبعة من اللباد ذات إشارة خاصة وحتى براميل من الزبد وعلى مدى فترة عامين دأب الغواصون على ترميم عوارض فتحات المدافع وإصلاح مؤخرة السفينة وسد

كل الشقوق الموجودة فى هيكل السفينة بالقلف — وقد جعلت هـذه الترميمات السفينة متماسكة تماماً بحيث لا ينفذ منها الماء .

وفى نفس الوقت قام علماء الآثار بتصنيف وتقسيم محتويات السفينة لدراستها واتخذوا إجراءات لحماية التماثيل الخشبية القابلة للتلف وذلك بغمرها فى مشمع من من الخارصين والفحم .

وتمت المرحلة الثانية من عمليات الإنقاذ فى ربيع سنة ١٩٦١ ، وحان الوقت لرفع فاسا إلى السطح .

فربط رجال الضفادع البشرية أربع عوامات من المطاط القابلة للنفخ إلى قاعدة السـفينة وذلك لتعويم السـفينة . ثم مدت الـكابلات الصاب التى يبلغ قطرها تسع بوصات أسـفل هيكل السفينة وثبتت فى روافع على العوامات ، ثم رفعت السفينة خارج المياه ، وارتفعت خمسين قدماً لتشق سطح الماء لأول مرة فى أبريل سنة ١٩٦١ — وهكذا ، بعد ٣٣٣ سنة ، انتقل فرانزن وفالتنج إلى قارب صغير وجدفا ليفحصا السـفينة بعد أن تركت المياه ، بينما هتفت الجماهير على الشاطىء ونفخ فريق البحرية فى البروجى . وصعد فرانزن بكل هيبة إلى الجزء الرئيسى من ظهر السفينة . وكان أول إنسان حى يقف على خشبها منذ ثلاثة قرون . وأخرج فرانزن العبوس — الذى لا يؤمن بالخرافات — قطعة من العملة النحاسـية من جيبه وألقاها فى عنبر السفينة الممتلىء بالمـاء . وعند ما سـئل عن ذلك أجاب بأنها « قربان للقديم » .

واستغرق سحب السفينة بكل حذر إلى الشاطىء شهراً . وربطوها بحبال وجروها إلى الحوض الجاف بيكهولمن ورفعوها على منصة معينة . وبدأت عملية رشها بالماء لتبقى مبللة ، لأنها لو جفت فى ذلك الوقت لتعفن الخشب سريعاً .

يعمل علماء الآثار السويديون حالياً على المحافظة على السفينة وذلك برش الخشب بمادة « يولى إيثلين جليكول » وهذه المادة الشمعية تبعد الرطوبة عن الأخشاب وتحفظها من التلف . وكذلك لا زال علماء الآثار يرفعون الوحل من السفينة بواسطة المضخات وينخلونه بواسطة مناخل من الأسلاك حتى لا يضيع أى شيء ذو قيمة . وفيما بعد سيكتشف الغواصون موقع حطام السفينة فى محاولة لاستعادة التماثيل الخشبية التى سقطت فى الطين عند ما غرقت السفينة وكذلك صندوق الكنز الذهبي الذى يعتقد أنه كان على ظهر السفينة . وفى خلال عدد من السنين ستستعيد فاسا مظهرها الكامل الذى كانت عليه سنة ١٦٢٨ . وستوضع السفينة الشامخة التى تلمع بالذهب الجديد والطلاء الأحمر فى تركيبة معينة زجاجية بالقرب من يكهولمن — سفينة ولكنها متحف يكشف بوضوح ما كانت عليه السفن الحربية فى القرن السابع عشر . وقد تحتاج عملية إعادتها إلى ما كانت عليه إلى عشر سنين أو أكثر .

ومن بين الأشياء التى أنقذت من داخل السفينة زجاجة روم من خمور القرن السابع عشر . وعند ما زار الرئيس أيزنهاور السويد فى صيف ١٩٦٢ وذهب لمشاهدة فاسا ، عرض عليه أندرز فرانزن أن يتذوق هذا الروم ، ولكن «أيك» رفض هذا العرض مبتسماً ، واكتفى بشمه معلقاً « إنه مدهش » .

ولاحظ أيزنهاور أثناء فحصه للسفينة ولوازمها أن الأسد الخشبى المعلق على رأس السفينة ليس له لسان وأثار الضحك بقوله : « قد يكون من المستحسن لو أن بعضنا ليس له لسان أيضاً » .

ويبدو أن جمهور السويد يهتم اهتماماً شديداً بكنوز السفينة وهيا كلها . وقد وجد عالم الآثار أندرز فرانزن أن هذا سلوك مضحك « فكل إنسان يريد أن

يرى الـكنوز — ولـكن أحداً لا يدرك أنه يراها فعلاً — هذا هو الـكنز . . السفينة ذاتها . يهتم الناس بالهيا كل العظمية والعملات الذهبية ، وهى الأشـياء التى لا يعيرها العلماء والمؤرخون إلا أهمية ضئيلة . فلدينا المقابر مملوءة بالهيا كل العظمية التى ترجع للقرن التاسع عشر . ولدينا الـكثير من مجموعات العملات التى بينها كثيراً من عملات القرن السابع عشر .

ولـكن لدينا الآن مجتمعاً كاملاً من القرن السابع عشر مجمداً فى مكانه بسبب كارثته ، وقد حفظه البحر ، وسيكشف لنا كثيراً من الأشياء . فنحن لا نعرف كيف كانوا يبنون السفن فى أوائل القرن السابع عشر . فلم نعرف شيئاً عن علم العمارة البحرية ، ولم نعثر على أى خرائط لتدلنا على ذلك . ولم نعرف كيف كان يعيش البحارة على ظهـر السفن فى ذلك الوقت ، ولم نعرف ما هى المعدات والآلات البحرية المستعملة وحتى العلم السويدى فى سـنة ١٦٢٨ كان مجهولاً لنا .

ولـكن بعد أن أزيح الطين عن حطام فاسا ، سدت ثغرات كثيرة فى معلوماتنا : فالسفينة الحربية العملاقة هى فى ذاتها نموذج مصغر للمدينة . والآن وقد وجدناها وكشفنا الغطاء عنها وسنراها قريباً — كما كانت يوم الـكارثة — وستصبح (مثلها فى ذلك مثل بومبى فى إيطاليا وبورت رويال فى جامايكا) أحد الآثار الخالدة .

الفصل التاسع

مدن تحت الأمواج

لا شك أن علم الآثار تحت المائية قد بلغ مدى واسعاً وفعالاً كما اتضح من الفصول السابقة . ولكن علماء الآثار تحت المائية مشغولون ومصممون على أن مهنتهم « ما زالت فى البداية » .

فلا زالت أمامهم أعمال كثيرة تفوق الخيال : مسالك بأكملها يجب استعادتها من البحر . أما العمل على اليابسة فما على علماء الآثار إلا أن يتبعوا الأعمال العظيمة التى قام بها من سبقوهم ، وأن يزيدوها ويوضحوها ويظهروا ويسلطوا الأضواء على كثير من التفاصيل ، ولكن العمل الرئيسى بالنسبة لهم قد تم . فلا يمكن البحث عن طروادة ونينوى وبابل إلا مرة واحدة . أما اللاحقون فهم يضيفون الكثير إلى أعمال السابقين ، ولكن لا يمكنهم تحقيق أشياء جديدة واكتشافات براقة.

أما فى علم الآثار تحت المائية فالأمر مختلف تماماً ، وهكذا يرى العالم كل عام بعثات جديدة تكشف عن ميادين خصبة جديدة ، كما أن هناك مناطق أخرى — نصف خرافية — فى انتظار زيارات رجال مزودين برئات مائية .

مثال على ذلك إس YS المدينة الغارقة على الشاطىء الشمالى من ساحل بريتانى بفرنسا . مدينة الأساطير والخرافات والغموض، حتى اسمها نفسه له نغمة سحرية ، يرتبط تاريخياً بالسحر والخرافة .

وتقول الأسطورة إنه منذ آلاف السنين كانت « إس » مدينة فتية وقوية ،

وكانت فى تلك الفترة الغابرة من التاريخ حاملة لواء المدنية فى العالم الغربى . وكانت المدينة بوضعها فى خليج يحميها من البحر حاجز يصد عنها المياه . أما السفن التى كانت سبباً فى غنى إس فكانت تدخل الميناء عن طريق فتحة الحاجز التى تغلق بقفل .

وتقول الأسطورة إن الملك «جرادلون» ملك إس كان حكيماً وحاكماً عادلاً ، أما ابنته الجميلة « داهوت» فكانت خبيثة وشريرة . وفى يوم من الأيام سرقت المفتاح الذهبى الذى يفتح قفل الحاجز وذهبت لمقابلة حبيبها . ومر الوقت سريعاً وهى بين ذراعى حبيبها ، وفى نفس الوقت بدأ المد ، واندفع البحر خلال البوابات المفتوحة ، وأغرق مدينة إس بكل ثرواتها وأغرق الملك جرادلون وداهوت الجميلة الشريرة .

فلماذا سرقت داهوت المفتاح ؟ لم يكن فى الأسطورة رد على هذا الاستفسار . وضاع هذا الجزء من القصة مع الزمن خلال تداولها آلاف المرات وعلى مدى مئات السنين . ولكن هل توجد حقيقة مدينة إس ؟ هل القصة مجرد أسطورة جميلة ؛ أم فيها جزء من الحقيقة ، كما كان الحال مع إلياذة هوميروس التى حكت قصة خيالية عن حرب حقيقية بين مدن حقيقية ؟

نعم . . كانت هناك مدينة اسمها « إس » ، ولكن ربما لم يكن هناك ملك يدعى جرادلون أو الأميرة داهوت . ولكن المدينة وجدت وأغرقها البحر مع ما أغرق من مدن أخرى على ساحل بريتانى . ولا زال صيادو قرية كانكال يعرضون على الزوار أنقاض جدر موجودة فى قاع البحر بالقرب من بلدهم ؛ ويبدأون بقولهم « هنا مدينة إس» ، ثم يقصون قصة الأميرة داهوت . ولكن الصيادين مخطئون ، فالجدر القريبة من كانكال هى بقايا قلعة جاردوان التى

قاومت جيوش شارلمان أثناء الحصار ، لتقع بعد ذلك فريسة للفيضان فى القرن التاسع عشر . أما إس فانتهت قبل ذلك بزمن طويل .

وقد سكن المستوطنون الرومان ساحل بريتانى فى القرون الأولى للعهد المسيحى — وفى خريطة رومانية ترجع إلى سنة ٤٠٠ ميلادية تظهر إس بارزة على حافة البحر فى خليج الدونارنيز . ومن الممكن أن تبحر فى الخليج خلال يوم صحو وترى الطريق الرومانى ممتداً باستقامة من اليابسة إلى الماء وهو مغمور بفيضان قديم . ومن المحتمل أن تكون إس قد أغرقها الفيضان الذى عرف أنه دمر بريتانى عام ٣٩٥ ، أو الفيضان الأكثر فظاعة الذى حدث فى عام ٤٤١ .

ولم يحظ الغواصون باستكشاف مدينة إس إذ أن مياه بريتانى عميقة وباردة وطقسها متقلب . وعقب الحرب العالمية الثانية استكشف رحالة فرنسى خليج الدونارنيز ولم يجد شيئاً، حتى ولامجموعات الأحجار المنحوتة التى لابد منوجودها هناك . ولازالت مدينة إس مجهولة ، شأنها شأن العديد من مدنبريتانى الرومانية الأقل روعة . وهنا ، يوجد الكثير من العمل لعلماء الآثار تحت المائية لفترة طويلة مقبلة . إن حوالى ستمن المدن المفقودة مغطاة بحشائش ضارة ، ومسكونة بحيوانات الأخطبوط الملتفة حول نفسها . تنتظر مستكشفيها الجدد فى المياه البـاردة .

وهناك مدينة أخرى غارقة ومختفية . هى مدينة هلايك Helike وهى تسمى أيضاً باسم بومبى تحت المائية . وكانت هلايك مدينة فى اليونان ، بلغ بها القدم إلى حد أنها ذكرت فى الإلياذة . . وشأنها شأن بومبى ، فقد دمرت هلايك فجأة ، لا بانفجار بركانى وإنما بزلزال وفيضان .

ووقعت الكارثة المزدوجة فى عام ٣٦٩ قبل الميلاد ، حين جاء الزلزال أولاً ثم بعد ذلك الفيضان .

وقد وصف بوسانياس المؤرخ اليونانى فى القرن الثانى الميلادى المأساة كالآتى :

« فى البداية ، اهتزت الأرض حتى الأعماق بواسطة الزلزال . وحينئذ انشقت فجأة ، وانهار كل شىء بنى عليها ساقطاً إلى الأعماق ، ولم يبق لها أثر بعد ذلك . وهكذا دمرت هلايك .

« ويقال إن هذا الزلزال أعقبته مصيبة أخرى أحدثها هذه المرة الفيضان الموسمى السنوى العالى للبحر الذى غمر المدينة والريف المحيط بها . إن غابة بوزيدون المقدسة غمرت لدرجة أن المرء لم يستطع أن يرى قمم الأشجار المغمورة إلا بصعوبة . إن غضب الرب قد أحاق بالمدينة المنكودة خلال عاملين : الأول أنها دكت — ثم بعد ذلك ابتلعت بكل سكانها » .

ولقد ظلت أطلال هلايك ومدينة بورا المجاورة لها ماثلة لمئات السنين بعد ذلك ، ترى فى البحر على بعد من خليج كورنيث .

ولقد ذكر كتاب كلاسيكيون عديدون أنهم رأوا معابد وأعمدة هلايك تحت المياه الصافية . ولكن هناك نهران يتدفقان من التلال القريبة محملين بالطمى وعلى مر القرون دفن هذا الطمى المترسب هلايك .

ولقد زارت بعثة للكشف عن آثار الموقع عام ١٩٥٠، ونزل أربعة غواصين فرنسيين للبحث عن أطلال هلايك . ولكن الوحل كان قد غطى كل شىء . وفى عام ١٩٤١ غرقت مدمرة ألمانية فى هذا الموقع ، وحتى هذه المدمرة دفنت

تقريباً بالطمى خلال تسع سنوات فقط . فكم هى كبيرة إذن كميات الطمى التى تغطى مدينة أغرقت منذ ثلاث وعشرين قرناً خلت !

وكان على بعثة ١٩٥٠ أن تتخلى عن فكرة الكشف عن هلايك بطريق الحفر ، إذ أن فوقها عشرين قدما من الطمى المتماسك جداً تغطى المدينة . وفى عام ١٩٥٠ لم تكن المعدات اللازمة لإزالة مثل هذه الطبقة الهائلة من الطمى الغروى متوفرة ، وخاصة أن العمق يصل إلى ١٢٥ قدماً . أما اليوم فإن جهاز المضخة الماصة مثل مصعد لينك الهوائى يمكنه اختراق كفن الطمى المحيط بهلايك بسهولة نسبية ، غير أن المهمة الرائعة لكشف المدينة سوف تستغرق عدة شهور ، وقد تتكلف مليون دولار . ونظراً لوجود مواقع أخرى أكثر إغراء للمكتشفين ، فقد تركت هلايك إلى تاريخ مقبل .

« إذا كنت تبحث عن هلايك وبورا ومدن آخيا المفقودة ، فانظر إذن تحت البحر » هكذا كتب الشاعر الرومانى أوفنيد منذ ألفى عام . إن هلايك وبورا لازالتا تنتظران تحت البحر إخراجهما للنور . وحينما يتم نهائياً الجهد المبذول لكشفهما ، فإن الحصيلة ستكون ثمينة . إن عالم الآثار الفرنسى ر . دومانجيل فى كتابته عن هلايك يشير إلى الواقعة المثيرة الآتية :

«إن مدينة كاملة يرجع تاريخها للقرن الرابع قبل الميلاد ، بكل استحكاماتها وأثاث منازلها ، وتماثيل معابدها ، وهيا كل سكانها قابعة فى انتظار حفار المستقبل » .

وثمة مشروع آخر للمستقبل : ألا وهو استكشاف « الفاروس » منارة مصر العظيمة ، التى تعد إحدى العجائب السبعة للعالم القديم . والفاروس ، التى كانت فى الأسكندرية على البحر الأبيض المتوسط ، أقامها حوالى سنة ٢٧٩ قبل

الميلاد مهندس إغريقي يدعى سوستراتوس . وكانت تستخدم كمنارة وكنصب عام معاً ، وكان طولها يبلغ خمسمائة قدم ويتوجها تمثال ضخم لإله الحرب بوسيدون . واستمرت الفاروس تعمل ما يقرب من ألف عام ، ثم قلبتها الزلازل فى البحر الأبيض المتوسط ، مع كل ما تبقى من البناء الجبار ، الذى أخاف قيصر ومارك أنتونى وآخرين لا حصر لهم من زوار مصر . ولا تعدو بقاياها إلا أجزاء من الجرانيت الأحمر . وفى عام ١٤٨٠ بنى قايتباى سلطان مصر قلعة وحصناً على موقع المنارة ، وأدخلت بقايا الفاروس فى جدران قلعة قايتباى .

أما الحطام المبعثر من المنار فما زال ملقى فى قاع البحر فى ميناء الإسكندرية ، ولكن لا يعرف أحد فى أى مكان هى . إلا أن الغواصين بالجلد قد استكشفوا الميناء بدقة ووجدوا أشياء عديدة ذات قيمة أثرية مثل العملات الرومانية والأعمدة الجرانيتية والتوابيت الزخامية .

وفى أوائل عام سنة ١٩٦٢ غاص شاب مصرى بلباس الغوص الجلدى فى الماء ليصطاد سمكاً ، وكان على بعد ياردات قليلة من الشاطىء ، وكان على عمق ٢٤ قدماً حينما رأى قطعاً من تمثال كبير جداً : قطعة واحدة بمفردها كان طولها عشرين قدماً ووجد بالقرب منها تمثالاً أصغر وعاموداً وأبى الهول .

ويعتقد الدكتور هنرى رياض أمين المتحف الإغريقى الرومانى بالإسكندرية أن التمثال الضخم قد يكون تمثال بوزيدون الذى كان يعتلى ذات يوم قمة الفاروس . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن المحتمل أن تكون أطلال المنارة بأكملها مدفونة فى مكان قريب .

وقد أرسلت بحرية الجمهورية العربية المتحدة الغواصين إلى القاع ، فأكدوا

التقرير الأصلى للغواص حول التمثال ذى الحجم الضخم ، ولكن الماء كان عنيفاً عكراً لدرجة أشد من أن تسمح بتصوير الحطام . وعلق الدكتور رياض قائلاً :

« لدينا فى مصر خبرة طويلة بالآثار التى توجد فى الصحارى ، ولكن العمل تحت بحر متقلب أمر جديد وغريب علينا » .

إن مزيداً من العمل فى مسح المكان سيؤجل لمدة ستة أشهر ؛ أى حتى الخريف ، حينما يكون البحر فى أهدأ أحواله . وحالما ينتهى المسح يمكن البدء فى أعمال الاستكشاف . ومن المحتمل أن تنتشل الفاروس من البحر بعد أن يكون قد مضى سبعمائة عام على غرقها .

وليس ببعيد عن الإسكندرية من الناحية الجغرافية ذلك الموقع الذى قامت فيه مدينة قيسارية القديمة . وفى فترة ما كانت كل من الإسكندرية وقيسارية جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، ولكن الإسكندرية اليوم فى مصر وقيسارية فى فلسطين .

لقد شيد هيرودوس ملك اليهود مدينة قيسارية فى العام العاشر قبل الميلاد ، وهو غير هيرودوس الذى نعرفه من الإنجيل ، ولكنه والد الملك الذى سلم المسيح إلى صالبيه . وقبل أن يبنى هيرودوس مدينته هناك ، كانت تقوم على نفس الموقع مدينة فارسية قديمة تسمى « أيول » IOL ولقد هدم هيرودوس « أيول » وبنى ميناءاً لدخول فلسطين . إن المؤرخ اليهودى جوزيفوس ، الذى رأى قيسارية منذ ألف وتسعمائة عام خلت ، كتب يقول « أقام فيها هيرودوس — طولاً وعرضاً — مبان ضخمة ذات أناقة عظيمة من الحجر الأبيض ؛ كما زينها بأعظم القصور فخامة وأقام فيها مبان كبيرة لإسكان الشعوب . . وكانت المدينة ذات

تسكوين جميل • وعلى عكس المعتاد فالأقبية والمخازن تحت الأرضية لم تسكن أقل فخامة من الإنشاءات التى فوق الأرض . . . كما بنى هيرودوس مسرحاً من الحجارة وملعباً يتسع لعدد كبير من الجمهور . . . » .

وكانت قيسارية وهى فى قمة مجدها، مدينة عدد سكانها مائة ألف، وكانت ميناء رئيسية فى البحر الأبيض المتوسط ، يزخر بالحياة ويزدحم بالتجار من اثنتى عشرة دولة . وجعل بيلاطى النبطى مقر بلاطه فى قيسارية ، وحكم الرومان هناك لمدة ستة قرون . وفى عام ٦٣٩ غزا العرب المدينة وحولوها إلى ميناء إسلامى نشيط . وبعد ذلك بخمسمائة عام نزل الصليبيون إلى قيسارية وطردوا العرب ؛ وحطموا جزءاً كبيراً من المدينة . وبعد مضى قرن ونصف استرد العرب المدينة مرة أخرى ؛ وفى هذه المرة فإنهم ـــ بدلاً من أن يستوطنوها ـــ اختاروا أن يدمروها تماماً لـكيلا ينتفع بها الصليبيون فهدموا الحصن الذى بناه الصليبيون ونسفوا إحدى أنبوبتى المياه القديمتين اللتين تزودان قيسارية بالماء وتركوا الفيضان يعبث بها . وتحولت قيسارية إلى بحيرة ، وغطى البلل والطين قصورها الفاخرة ، وبرزت وسط الحطام مدينة تشرشل Cherchel القليلة الأهمية .

إن آثار قيسارية الرومانية لازالت مرئية : حجر الصوان فى الميناء ، ومبنى هنا وعامود هناك ، ولـكن الرمال المتراكمة غطت المدينة الرومانية كما أن فعل تلاطم الأمواج جعل أجزاء كثيرة من الميناء تتساقط فى البحر . وفى أوائل الخمسينيات من القرن الحالى عمل بعض علماء الآثار على اكتشاف قيسارية القديمة باستخدام الرئات المائية . ولـكن تم القيام بأكثر الاستكشافات فى قيسارية فى عامى ١٩٦٠/١٩٦١ بإشراف إدوين أ . لينـك الذى اكتشف من قبل بورت رويال .

وقد استخدم لينك سفينته « الغواص البحرى » التى جهزت بشكل يدعو للاعجاب للتنقيب عن الآثار تحت المائية . ولقد جرف مصعده الهوائى أطناناً من الرمال من فوق الأطلال اليونانية إلى خارج الماء ومعها جرار وتوابيت وعملات وقطع من الجواهر . أما الحفارون على اليابس فقد وجدوا كنزاً عربياً فى قبو من القرن الحادى عشر يحوى الذهب المرصع والتحف الزجاجية والعقيق والزمرد . ولقد أتت الكراكة أيضاً بكثير من الأشياء غير العادية : مثل دبابيس شعر عاجية ومصباح نادر ومسامير برونزية وميدالية فى حجم القرش تصور منظراً من الميناء كما كان فى عهد هيرودس . والاكتشاف الهام الآخر كان أرضية رومانية جميلة من الموزايكو كشفها لينك بإزاحته للرمال التى تغطيها بواسطة منفاخه الخاص ذى الضغط العالى .

ومازال الكثير متبقياً فى قيسارية ، سواء على اليابس أو فى البحر . ولكن رحلة أدوين لينك شكلت بداية هامة ، وكانت مساهمة عظمى للدعوة الدائمة للكشف عن آثار الأراضى المقدسة . وبلا شك فإن استكشافات مصاعد المستقبل الهوائية سوف تقوم بدور كبير فى إزاحة الستار عن مدينة هيرود على البحر الأبيض المتوسط .

وتنتشر مواقع أخرى للآثار تحت المائية فى كل أنحاء العالم . فخمسة آلاف عام من حطام السفن ترقد فى قاع البحر الأبيض المتوسط . وقليل فقط من المئات بل الألوف من هذا الحطام هى التى حدد مكانها . كذلك سيغرق عدد كبير من المواقع الهامة القديمة فى مصر عندما يتم بناء السد العالى — خزان أسوان الجديد ، وحينذاك فإن مجالاً كاملاً جديداً سيفتح أمام علم الآثار تحت المائية . إن السدود التى بنيت فى الولايات المتحدة غمرت مواقع مختلفة من الحياة الهندية الأمريكية ، وسيحتاجون للغواصين بالجلد لاستكشافها . وعلى بعد من شاطىء

سوريا أو شمال أفريقيا أو فرنسا وأينما قام رجال العصور القديمة بالتشييد بالقرب من البحر ، فإنه توجد أطلال تحت الأمواج . إن الرئة المائية والمصاعد الهوائية والكشاف المعدنى تحت المائى ونواحى التقدم التكنيكى الأخرى سوف تجعل مهمة علماء الآثار أيسر كلما تقدموا فى العمل . إن عدد المواقع التى لم تمس بعد يذهل العقل . إن عالم آثار تحت الماء يحتاج إلى ما احتاج إليه الإسكندر الأكبر: ألا يخاف من أنه سوف يقتحم عوالم جديدة ليحقق النصر .

غير أن مكاناً واحداً لم يمسسه أحد بل لم يكتشف حتى الآن ، ومن المحتمل أيضاً أنه لم يوجد إلا فى دنيا الخيال . ومن المحتمل أن بعض من زودوا بالرئة المائية قد سأل نفسه عما إذا كان هو الشخص الذى سوف يكتشف «أطلانطا» القارة الخرافية المفقودة .

إن « أطلانطا » كما نعلم حتى الآن مجرد أسطورة . وأول من تكلم عنها هو أفلاطون فى مناظرتيه تيمايوس وكريتياس ، حين سرد قصة إمبراطورية أطلانطا الجبارة الواقعة على جزيرة ذات حجم هائل تقع فى مكان ما غرب اليونان . وذكر أفلاطون أن الأطلانطيين هزموا العديد من الأراضى المحيطة بجزيرتهم الفخمة ، غير أن طغيانهم استؤصل حينما أدى زلزال وفيضان إلى غرقها تحت البحر .

وحدد أفلاطون زمن غرق أطلانطا بأنه قبل زمنه بحوالى ٩٠٠٠ عام تقريباً أى منذ ١١٥٠٠ سنة . وقال إنه سمع القصة من أحد أحفاد رجل الدولة الأثينى القديم المدعو سولون ، الذى سمع بدوره عن أطلانطا من بعض كهنة مصر .

وكان أفلاطون رجلاً ذا خيال شعرى ، ومن المحتمل جداً أنه اختلق بوعى

أسطورة ما يهدف إثبات أفكاره الفلسفية . ولكن من الجائز أيضاً أنه لم يفعل ذلك .

ونحن لا نعلم الحقيقة — ولكننا نعرف أن أسطورة أطلانطا انتقلت ونمت عبر القرون . ولقد أصبحت أطلانطا إمبراطورية الأدعياء والمخادعين الذين زعموا أنهم قد اكتشفوها . وقد أعلن بعض « الخبراء » أن شعب الماياس فى أمريكا الوسطى إنما كانوا لاجئين من أطلانطا الغارقة . وقد وضعت نظريات أخرى تفوق ذلك فى الخيال .

إن تتبع تاريخ أسطورة أطلانطا مهمة شاقة . فقد جمع أحد الخبراء بأطلانطا وأسطوريتها قائمة تضم أكثر من ١٥٠ كاتباً دونوا توضيحات وتفسيرات لفقرات أفلاطون عن أطلانطا — والواقع إن معجم أطلانطا لا نهاية له تقريباً .

والحقيقة أنه فى كل قرن —منذ زمن أفلاطون— تطلع الناس إلى «أطلانطا» وحلموا بأن يجدوها ، بل ذهبوا للبحث عنها . إن هذه الحقيقة تبين ما لهذه القارة الأسطورية من نفوذ على تصور الإنسان . إنها خيال ولكنه خيال جذاب ، فشعوب كثيرة لديها أساطير عن فيضان عظيم ، وعن قارة غارقة تحت الأمواج . ويشير انتشار هذه الأساطير فى أجزاء واسعة منفصلة من العالم إلى كارثة حقيقية وقعت فى الماضى السحيق : من الجائز أنها غرق مجموعة من الجزر البركانية التى يمكن أن تتحول خلال تناقلها إلى اختفاء قارة بأكملها .

ونحن لا نملك دليلاً قاطعاً ، وقد تكون أطلانطا لا شىء سوى قصة خرافية . وإذا كان هناك نصيب من الواقعية للقصة ، فإنه من الممكن أن يكون قرننا — قرن علم الآثار تحت المائية — هو الذى سيرى اكتشافها : واليوم يتنافس الناس فى المائة ركن الغارقة من المعمورة — فى البحث عن السفن والقرى والمدن

المفقودة . فمن ذا الذى يزعم أنه من غير المحتمل أن يعثر واحد منهم على أكثر المكافآت غرابة بين الآثار تحت المائية : ألا وهى قارة مفقودة ؟ .

ويجب ألا نحلم بعيداً بأحلام الخيال . فهناك الكثير من الأعمال أمام علماء الآثار تحت المائية أن يؤدوها فى مجال الغطس والحفر حتى الأعماق . إنهم لا يحتاجون الركض بعيداً وراء أطلانطا الخرافية ، بينما أن « هلايك و آس » لا زالتا لم تكتشفا بعد ، وبينما تجد معظم مدينة بورت رويال راقد تحت طمى الكاريبى ، وبينما تحتفظ منابع مايان بأسرار من الماضى . ولكن من المحتمل أنه فى يوم ما وبمجرد المصادفة ، يعثر غطاس محظوظ على الأعمدة البارزة أو الجدران المحطمة لأطلانطا المجهولة ، وسوف يبهر العالم حينئذ كما فعل الغطاسون الذين بعثوا طروادة ونينيفه من أعماق الزمن .

وبالطبع وجدت أطلانطا مرات عديدة فى عالم التخيلات ، ولم توصف بطريقة أكثر حيوية مما ظهرت عليه كلاسيكيا فى القرن الماضى نتائج الاستكشاف تحت الماء ، وذلك فى كتاب « ٢٠ ألف فرسخ تحت البحر » لجول فيرن . وقد يبدو غريباً أن نختم كتابا عن الحقيقة باقتباس رواية عن تصور خيالى . ولكن هذه حالة لا يتنافس فيها الخيال والحقيقة المثيرة فحسب بل يتفوق فيها الخيال دائماً . ولا بد من أن نذكر أنه فى الوقت الذى كتب فيه جول فيرن روايته ، كان علم الآثار تحت المائية ما زال حلماً ، وكانت الرثات المائية خرافة ، وكانت غالبية المكتشفات العظمى لعلم آثار اليابسة لم تنجز بعد . واقد عنى فيرن البعيد النظر بأن يضع فى قالب أسطورى لمحة لا تنسى عن الحيرة والدوار الذى قد ينتظر عالم الآثار الحقيقى لعشرات من السنين المقبلة . وسألخص هذا المشهد هنا ، لأنه يبدو لى بعثاً أسطورياً مليئا بالحيوية يعبر عن غموض علم الآثار تحت المائية : —

* * *

« وحوالى الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة ، تمت زيارة لى لم تكن متوقعة أبداً ـ وكان الزائر الكابتن نيمو ، وسألنى برقة بالغة عما إذا كنت قد شعرت بأننى أجهدت فى نومى فى الليلة الماضية فأجبته بالنفى .

— « إذن يا سيد « أرونا كس » أقترح عليك رحلة نادرة ومشوقة » .

— « اقترح يا كابتن » .

— « إنك ، حتى وقتنا هذا ، زرت أعماق البحار فى النهار وتحت سطوع الشمس ، فهل سيناسبك أن تراها فى حلكة الليل ؟ » .

— « بكل شغف » .

— « على إذن أن أحذرك من أن الطريق سيكون متعباً . فأمامنا مسافة بعيدة لنمشيها ، وعلينا أيضاً أن نتسلق جبلاً . . ، والطرق ليست ممهدة » .

— « ما تقوله يا كابتن لا يزيدنى إلا شغفاً . إننى مستعد لأن أتبعك » .

— « تعال إذن ياسيدى . فسنرتدى ملابس الغطس الخاصة بنا » .

وحينما وصلنا إلى حجرة الملابس اكتشفت أنه لا زملائى ولا أى من بحارة السفينة سيصاحبوننا فى هذه الرحلة ؛ وحتى لم يقترح كابتن نيمو أن أصطحب معى ند كونسيل .

وفى دقائق قليلة ارتدينا ملابس الغطس ، ووضعوا الخزانات على ظهورنا ، وقد ملئت تماماً بالهواء ولكن لم تعد لنا مصابيح كهربائية . وقد لفت نظر الكابتن لهذه الحقيقة فأجاب .

« إنها ستكون عديمة الفائدة » .

وظننت أنى لم أسمع جيداً . ولكننى لم أستطع إعادة ملاحظتى ، لأن رأس الكابتن كانت قد اختفت بالفعل فى غلافها المعدنى . وأنهيت إعدادى لنفسى . وشعرت بهم يضعون عصا بمقدمة حديدية مدببة فى يدى . وبعد ذلك ببضع دقائق من الإجراءات المعتادة وضعنا أقدامنا على قاع الأطلنطى إلى عمق ٩٠٠ قامة . واقترب منتصف الليل ، وكانت المياه شديدة الحلكة . ولكن كابتن نيمو شاهد فى الطريق (على بعد مباين من الفوتيلوس) بقعة مائلة للاحمرار : كانت نوراً من ضوء كبير يسطع بلمعان . ما هى هذه النار ؟ وما الذى يمونها ؟ ولماذا وكيف أضاءت الكتلة السائلة ؟ هذا ما لا يمكننى أن أرد عليه . وعلى أى الأحوال فإنها أضاءت طريقنا إضاءة باهتة . هذه حقيقة . ولكننى مالبثت أن عودت نفسى على الجهاز المخصص .

وحينما تقدمنا سمعت نوعا من الطرقعة فوق رأسى . والضجة تتضاعف بحيث تصبح أحياناً سيلاً متصلاً . وما لبثت أن فهمت السبب : إنه مطر ينهمر بغزارة دافعاً سطح الأمواج . وبالغريزة مرت فى عقلى فكرة أنى سأبتل كلية من ذلك الماء ، فى وسط الماء ! ولم أستطع مغالبة الضحك على هذه الفكرة الغريبة .. ولكن الحقيقة إننا لا نشعر ونحن فى ملابس الغطس السميكة بالمواد السائلة ، وإنما يبدو فقط وكأن المرء فى وسط أكثر كثافة من الجو المحيط بالأرض ، ولا شىء أكثر من ذلك .

وبعد مسيرة نصف ساعة أصبحت التربة حجرية يضيئها نوع من الإشعاعات الفوسفورية لأسماك المديوزا وأنواع الصدفيات الميكروسكوبية وأسماك البناتيول المجنحة . وقد شاهدت إشعاعاً لقطع من حجر مغطى بملايين الأحياء البحرية وبكتل من حشائش البحر . وكثيراً ما انزلقت قدماى على هذا البساط الهلامى من حشائش البحر . ولولا عصاى ذات السن الحديدى لسقطت أكثر من مرة ..

إننى مازلت أستطيع — حينما التفت حولى — أن أرى مصباح النوتيلوس الأبيض يزداد شحوباً عبر المسافة الطويلة .

لكن الضوء الوردى الذى يرشدنا تزايد وأضاء الأفق . إن وجود هذا النور تحت الماء حيرنى لأقصى حد . هل هو إشعاع كهربى . هل أنا متجه إلى ظاهرة طبيعية غير معروفة بعد لعلماء الأرض ؟ أم هل ليد الإنسان علاقة بهذا اللهب (لأن هذه الفكرة مرت على خاطرى) ؟ وهل يغذى الإنسان هذه الشعلة ؟ هل سأقابل فى هذه الأعماق زملاء وأصدقاء للكابتن نيمو ، يتجه لزيارتهم ؟ وهم — مثله يعيشون فى هذا الوجود الغريب ؟ هل سأجد هناك فى الأعماق مستعمرة شاملة للمنفيين الذين أضناهم بؤس هذه الأرض فوجدوا الخلاص فى المحيط العميق؟ وراودتنى كل هذه الأفكار السخيفة وغير المعقولة . ولكن هذه الحال تمر بعقل فاض اضطرابه بتتابع الغرائب التى تمر باستمرار أمام عينيه . فإننى سوف لا أدهش حينما أقابل فى قاع البحر واحدة من تلك المدن البحرية التى حلم بها كابتن نيمو .

وأصبح طريقنا أكثر فأكثر إضاءة . وأتى النور الباهت الأبيض فى صورة أشعة من قمة جبل يبلغ ارتفاعه ٨٠٠٠ قدم ، ولكن ما رأيته كان — ببساطة — انعكاساً انتشر بفعل صفاء المياه . أما أصل هذا الضوء غير الواضح فكان ناراً على الجانب المقابل للجبل .

وفى قلب هذا التيه الذى يخترق قاع المحيط الأملس ، تقدم كابتن نيمو بلا أى تردد . إنه عرف هذا الطريق المعتم . وبلا شك فإنه كثيراً ما سافر عليه ولم يفقد طريقه أبداً . وتبعته بثقة لا يرقى اليها الشك . لقد بدا لى مثل جن البحر . ولأنه سار أمامى فإننى لم أستطع مغالبة إعجابى بتكوينه الذى تحدد بلون أسود أمام الأفق المضىء .

وكانت الساعة الواحدة صباحاً حينما وصلنا إلى أول منحدرات الجبل . ولكن وجدنا أنه لكى نحرز تقدماً نحوها ، كان علينا أن نعبر خلال ممرات صعبة لدغل متسع . نعم إنه دغل من أشجار ميتة بلا أوراق أو عصارة — أشجار تحجرت بفعل الماء ، وتوجت — هنا وهناك — بأعناق عملاقة . إنها تشبه منجم فحم ، وكأنه لا زال قائماً . إنها مثبتة بواسطة جذورها إلى التربة المشققة . وترى فروعها الشبيهة بقصاصات رفيعة من ورق أسود بوضوح على السقف المائى . صور لنفسك غابة معلقة إلى جانبى الجبل ولكنها غابة قد ابتلعت ، وتغطت الطرق بحشائش البحر ، والطحالب الصخرية التى انتشر بينها عالم بأسره من الصدفيات . وواصلت السير متسلقاً الصخور ، عابراً فوق الجذوع المتمددة ، محطماً الحشائش البحرية المتسلقة المعلقة بين شجرة وأخرى ، مخيفاً الأسماك التى تسبح من فرع إلى فرع . ولم أشعر بإرهاق وأنا متقدم إلى الأمام ، لقد تبعت مرشدى الذى لا يتعب . يا له من مشهد ! ! كيف يمكننى وصفه ؟ ما أبدع منظر تلك الغابات والصخور فى هذا الوسط ، بأجزائها السفلى الداكنة البدائية والعليا التى صبغت بلون أحمر باهت بواسطة ذلك الضوء الذى ضاعفته الطاقات العاكسة للمياه . وتسلقنا صخوراً سقطت بعد ذلك مباشرة بدحرجة هائلة وبالقرقعة المنخفضة لانهيار ثلجى . وعلى اليمين واليسار امتدت ممرات مظلمة فقدت فيها الرؤيا — وهنا ساحات واسعة مفتوحة تبدو كما لو أن يد الإنسان هى التى صنعتها . وتساءلت فى بعض الأحيان : أليس من الممكن أن يظهر لى فجأة أحد سكان مناطق تحت البحر هذه ؟

لكن كابتن نيمو ما زال يتسلق الجبل ، ولا أستطيع البقاء متخلفاً ، فتبعته بهمة ، وساعدتنى عصاى مساعدة طيبة . إن خطوة واحدة طائشة ستكون لها خطورتها فى هذه الممرات الضيقة التى تنحدر إلى أسفل نحو جانبى الأخاديد . ولكننى سرت بخطى ثابتة ، وبلا أى شعور بالارتباك . الآن قفزت أخدوداً

جعلنى عمقه أهتز كما لو كنت وسط نهـر جليدى فوق سطح الأرض . والآن عبرت فوق جذع شجرة متعرج يصل بين حافتى هوة سحيقة ، وذلك دون أن أنظر تحت قدمى ، فلقد اسـغرقت تماماً فى إمتاع ناظرى بالمشاهد الطبيعيـة فى هذه البقاع .

وهناك أيضاً صخور تذكارية ، تـكاد تتحدى كل قوانين التوازن بارتـكازها على قواعدها المقطوعة بغير انتظام ، ومن بين ركبها الصـخرية امتدت الأشجار بطريقة تشبه اندفاع سائل تحت ضغط ثقيل ، تتشابك وتدعم بعضها البعض . إن أبراجاً طبيعية وأعمدة كبيرة شقت عمودياً مثل « سـتارة » أو مالت على زاوية لا يمكن لقوانين الجاذبية أن تحتملها فى المناطق الأرضية .

وبعد ساعتين من مغادرتنا التوتيلوس ، كنا قد عبرنا خط الأشجار ، وارتفعت فوق رأسينا بمائة قدم قمة الجبل التى ألقت بظلها على الاستضاءة الناصعة للمنحدر المقابل . إن بعض الشجيرات المتحجرة انتشرت حيثما اتفق هنا وهناك ، والأسماك فزعت تحت أقدامنا مثل الطيور فى العشب الطويل ، والصخور الهائلة شـقت بشروخ غـير نافذة وبتجاويف عميقة وثقوب بلا قاع يمكن أن تسمع فى قاعدتها مخلوقات مزعجة تتحرك . لقد تجمد دمى حينما رأيت عـدداً هائلا من قرون الاستشعار يملأ طريقى ، أو مخلباً مخيفاً يلتصق فى ظل أحـد التجاويف مصحوباً بضجة . إن ملايين من البقع المضيئة ترى بوضوح فى قلب الظلام : إنها عيون صدفة عملاقة قبعت فى جحورها ، وسلاحف مياه تنصب نفسها مثـل الجلادين وتحرك مخالبها محدثة رنيناً خافتاً بأظافرها الحادة ، وسرطانات ضخمة بدت مثل مدفع على عربته ، وحيوانات أخطبوطية مخيفة المنظر تموج أذرعها مثـل عش حى للثعابين .

وقد وصلنا الآن إلى أول مسطح حيث تنتظرنا مفاجآت جـديدة انبسطت أمامنا بعض الأطلال الجميلة المنظر التى خانت يد الإنسان ، ولـكنها لم تخن يد الخالق : فهناك أكوام هائلة من الحجر التى تميزت بينها أنواع غامضـة وخيالية من القلاع والمعابد مغطاة بعالم مزهر من الأسفنجيات التى نما فوقها حجاب كثيف من الخضر بدلاً من الحشائش البحرية والطحالب . ولـكن ما هو هذا الجزء من المعمورة الذى ابتلعته الطوفانات ، ومن الذى وضع هذه الصخور والأحجار التى تشبه مبانى عصور ما قبل التاريخ ؟ أين أنا ؟ وإلى أين تتعجلنى خيالات كابتن نيمو ؟

وامتلأت رغبة فى أن أسأله ، ولـكننى كنت غير قادر على ذلك ، وأوقفته وأمسكت ذراعه . ولـكنه هز رأسه وأشار إلى أعلى بقعة من الجبل وكأنه يقول :

— « أقدم . أقدم إلى الأمام . أقدم إلى أعلى ! » .

وتبعته . وفى دقائق معدودات كنت قد تسلقت إلى القمة التى تمـكنت من فوقها أن أحيط بكل كتل الصخر فى دائرة اتساعها عشر ياردات . ونظرت إلى أسفل ، إلى الجانب الذى صعدناه تواً : إن الجبل لا يرتفع إلى أكثر من سبعمائة أو ثمانمائة قدم فوق مستوى القاع ، ولـكنه على الجانب المقابل بحكم أعماق هـذا الجزء من الأطلنطى من ارتفاع يبلغ ضعف ارتفاعه من الجانب الذى تسلقناه .

وأحاط بصرى بمساحة كبيرة مضاءة بلمعان متوهج : إن الحقيقة أن الجبل كان بركاناً .

وعلى ارتفاع خمسين قدماً فوق القمة ، وفى وسط سيل جارف من الحجارة والحمم ، كانت فوهة البركان تقذف بتيار جارف من الحمم جرى متدفقاً مثل شلال من نار إلى أحضان الـكتلة السائلة ، وبوضعه هكذا أضاء هـذا البركان

— مثل شعلة هائلة — السهل السفلى إلى حدود الأفق البعيدة ، إننى قلت إن فوهة البركان تحت البحرى قد قذفت حمماً لاهبياً ؛ فاللهب يتطلب باستمرار أكسيجين الهواء لإشعاله ، ولا يمكن أن يوجد هذا الأكسيجين تحت الماء ؛ أما تيارات الحمم فتحتوى ذاتياً على مكونات تأججها ، ويمكنها أن تكتسب ضوءاً أبيض ، وتقاتل بشراسة العنصر السائل وتحوله إلى بخار بمجرد ملامسته .

إن تيارات سريعة تحمل كل هذه الغازات المنتشرة ، كما تحملى كل سيول الحمم ، وتاقيها إلى قاعدة الجبل ، مثل انفجار لبركان فيزوف على أرض إغريقية أخرى .

فهناك — فى الحقيقة — مدينة محطمة ومخربة ماقاة تحت بصرى ، أسطحها مفتوحة إلى السماء ، ومعابدها منهارة ، وأقواسها متفسخة ، وأعمدتها ممدة على الأرض ؛ ومنها يمكن للمرء أن يعرف المميزات الرائعة للمعمار التوسكانى . وعلى بعد من ذلك يوجد حطام لخزان هائل . وهنا أيضاً القاعدة العالية لتمثال لأكروبوليس مجاورة لحدود ظاهرة من البارثنون . وهناك آثار جسر كما لو أن ميناء قديماً أقيم من قبل على شواطىء المحيط ثم اختفى بمحاله التجارية وحصونه الحربية . وعلى بعد آخر وجدت خطوطاً طويلة لجدران غارقة وشوارع واسعة مهجورة — كأن بومبيى حقيقة اختفت تحت الماء ، هذا هو المشهد الذى وضعه كابتن نيمو أمام عينى .

أين أنا ؟ أين أنا ؟ يجب أن أعلم بأى ثمن . حاولت أن أتكلم ، ولكن كابتن نيمو أوقفنى بإشارة منه والتقط قطعة من حجر طباشيرى وتقدم إلى صخرة من البازلت الأسود وكتب كلمة واحدة :

« أطلانطا »

أى ضوء سطع فى مخيلتى : « أطلانطا » الميروبيس القديمة لثيوبومب ، « أطلانطا » عهد أفلاطون ، تلك القارة التى كذب وجودها أريجن وجاميليكوس و د/ أنفيل ومالت برون وهامبولدت الذين وضعوا قصة اختفائها بين الأساطير الخيالية التى افترضها يوزيدون وبلينى وآميانوس مارسيللينوس وترتولليان وانجل وبوفون و د/ أفيزاك . إنها هناك أمام عينى ، تحمل فوقها الشهادة المؤكدة لكارثتها . وهكذا فالمنطقة التى ابتلعت كانت وراء أوروبا وآسيا وليبيا ، وراء أعمدة هرقل حيث عاش الأطلانطيون — أولئك الناس الأقوياء الذين شنت ضدهم أول حروب اليونان القديمة .

هكذا دست — ومنقاداً بأغرب الأقدار — بقدمى جبال هذه القارة ، ولمست بيدى تلك الأطلال التى عاشت منذ آلاف الأجيال — بل عاشت فى عصر واحد مع أقدم الأحقاب الجيولوجية . إننى مشيت فى نفس البقعة التى مشى فيها خلفاء الإنسان الأول .

وبينما حاولت أن أثبت فى ذهنى كل صغيرة من هذه الأصقاع الكبيرة ، ظل كابتن نيمو بلا حراك ، كما لو كان قد تحجر من نشوة طاغية ، وهو مستند إلى حجر مغطى بالطحالب . هل كان يحلم بتلك الأجيال التى اختفت منذ زمن بعيد ؟ هل كان يسألهم أسرار حظ الإنسان وقدره ؟ هل جاء هذا الرجل الغريب إلى هنا ليغمر نفسه بذكريات تاريخية ، وليعيش مرة أخرى هذه الحياة القديمة — وهو الذى لم يرغب قط فى الحياة الحديثة ؟

إننى لأعطى كل ما أملك لكى أعرف أفكاره ، وأقاسمه إياها ، وأفهمها . ومكثنا ساعة فى هذا المكان نتأمل السهل المتسع تحت توهج الحمم التى تبرق أحياناً بروعة . وسرت فى الجبل ذبذبات سريعة بسبب غليانات داخلية . وثارت ضجة

عميقة تنتقل بوضوح عبر الوسط السائل وتنعكس فى صدى فائق الرهبة . وفى هذه اللحظة ، ظهر القمر خلال كتل المياه ، وألقى بأشعته الشاحبة على القارة المدفونة . إنها ليست إلا ومضة . ولكن أى أثر لا يوصف تركته . وانتصب الكابتن ، ملقياً نظرة أخيرة على السهل المترامى ، ثم أمرنى بأن أتبعه .

ونزلنا الجبل بسرعة. وبمجرد تخطينا للغابة المعدنية ، رأيت مصباح النوتيلوس يتألق مثل النجم . واتجه الكابتن نحوه رأساً ، وبلغنا سطح السفينة فى نفس الوقت الذى أضاءت فيه الأشعة الأولى من النور سطح المحيط .

مطابع سجل العرب
٩ عماد الدين - بستان الدكة
تليفون ٥٢٣٠٩